نحو فكر وحدوي جديد

الدكتور نديم البيطار

استاذ العلوم الاجتماعيـة في جامعـات اميركيـة وكندية . اصدر عدة دراسات فلسفية ـ اجتماعية ، منها « الايديولوجية الانقلابية » « الفعالية الثورية في النكبة » « من النكسة الى الثورة » (صدرت كلها في بيروت) .

توافرت الاوضاع الموضوعية الملائمة بكثرة للوحدة وتحقيقها ولكن الاتجاهات والاحتمالات والقوى الوحدوية التي تنطوي عليها هذه الاوضاع لم تؤد الى الوحدة ، او تدفع بشكل محسوس نحوها . لماذا عجز العمل الوحدوي بهذا الشكل ؟ ان الاسباب التي تفسر ذلك عديدة وبما ان المجال لا يفسح حتى بالاشارة الواضحة اليها كلها فان البحث سيقتصر على سبب اساسي اغفله الفكر الوحدوي اغفالا تاما وهو ان منطلقات الوعي الوحدوي فيما يتعلق بالطريق الى الوحدة ، كانت حتى الان مغلوطة بشكل تام تقريبا . « فضيحة » الفكر الوحدوي الاولى هي ارتجال طريقه الى الوحدة بشكل اعتباطي ، لايعتمد وعيا وحدويا ناضجا يستطيع بالاعتماد عليه ضبط الاحداث وتوجيهها نحو الدولة الواحدة . لهذا فشل العمل الوحدوي فأصبح فريسة الاحداث التي راحت تتلاعب به وتتقانفه دون ان يتمكن من توكيد ذاته عبرها وفيها .

ولكن كيف يمكن لهذا الفكر ان يحقق هذا الوعي الناضج ؟ كيف يمكنه ان يحدد طريقه الى الوحدة بشكل غير ارتجالي واعتباطي ؟

ذلك يتوافر له طبعا عندما يكون فكرا موضوعيا علميا . ولكن كي يكون هذا النوع من الفكر كان يجب عليه عندما يتحدث عن الطريق الى الوحدة او الانتقال اليها ان يدرس الظاهرة الوحدوية كواقعة موضوعية ، اي كما كانت تحدث تاريخيا ، فيكشف عن عناصر العملية الوحدوية التي كان يتم فيها الانتقال من حالة تجزئة الى حالة وحدة ، اي العلاقات الانتظامية الواحدة التي تعيد ذاتها في تجارب التاريخ الوحدوية . هذا بده علمي اولي لكل فكر يريد ان يكون موضوعيا او علميا . وقد اصبح منذ مدة طويلة موقفا تلقائيا عفويا للفكر الحضاري الحديث . الفكر الوحدوي العربي اهمل اهمالا تاما هذا البده العلمي .

منذ مائة عام ونيف كان هذا الفكر يدعو الى الوحدة ، يحدد الطريق اليها ، ويخلق برامج الوصول اليها . ومنذ ثلاثين او اربعين عاما اخذ هذا الفكر يتحدث ويكتب « علميا » و « موضوعيا » عن الطريق الى الوحدة ، ويميز ذاته بمضغ مستمر لكلمات « علم » ، « منهج علمي » ، « علمية » ، الخ .. ولكن رغم ذلك لم تصدر دراسة واحدة عن هذا الفكر تحقق ذلك البده العلمي او حتى تشير بانه يعي هذا البده . انه ، بكلمة اخرى ، كان فكرا يتكلم باستمرار عن كيفية الانتقال الى الوحدة دون ان يدرس الظاهرة الوحدوية عبر التاريخ . ليس هناك من دراسة واحدة تبحث عن هذا الفكر حول هذه الظاهرة ، او تدل انه فكر يعي ضرورة الرجوع اليها او وجودها .

لهذا يمكن القول بكل امانة او موضوعية علمية، انه فيما يتعلق بالطريق الى الوحدة او كيفية الانتقال من حالة تجزئة الى حالة وحدة ، وهي مسألة الفكر الوحدوي الاولى ، ليس هناك في العالم كله من فكر اكثر عقما وتخلفا من هذا الفكر . قد يوجد هناك فكر عقيم متخلف كهذا الفكر ، ولكن يستحيل وجود فكر يكون اكثر عقما وتخلفا .

عندما ندرس ظاهرة الانتحار ندرس حوادث الانتحار ، عندما ندرس الظاهرة الثورية ندرس الثورات التاريخية ، عندما ندرس ظاهرة الحرب ندرس هذه الظاهرة في الحروب التي تعبر عنها ، عندما ندرس ظاهرة الطلاق ، الجريمة ، نشوء الدولة، العائلة، الخ .. ندرس احداث الطلاق ، الجريمة ، نشوء الدولة والعائلة ، والاوضاع التي تحيط بها وترافقها .

الفكر الوحدوي كان كفكر من يدرس الظاهرة الثورية دون الرجوع الى الثورات التاريخية ، او ظاهرة الانتحار دون الرجوع الى احداث الانتحار ، الخ .. بل دون ان يعي ضرورة هذا الرجوع او حتى وجود هذه الثورات والاحداث .. لو كان هذا الفكر يتميز باية سمة علمية بحد ادنى من الوعي العلمي ، لكان رأى مثلا اننا لسنا اول شعب يحاول ان ينتقل من حالة تجزئة الى حالة وحدة ، ان التاريخ مليء بتجارب من هذا النوع ، ان« علميته » تفرض عليه الاتجاه الى هذه التجارب ، فيحاول ان يرى ، على الاقل ، في واقع التجارب الناجحة فيها ، ان كان هناك من اتجاهات واحدة تعيد ذاتها في عملية انتقالها الى الوحدة ، اي ان كان هناك من قوانين وحدوية تسود هذه العملية الوحدوية ، بغية العمل معها وبوحيها ان كانت موجودة .

العلم ، المنهج العملي ، يعني ان الظواهر الاجتماعية والتاريخية ، وليس فقط الظواهر الطبيعية ، تتميز بموضوعية مستقلة عن ارادة الانسان ، ان هذه الموضوعية تعبر عن ذاتها في اتجاهات عامة واحدة ، او علاقات انتظامية واحدة . هذا ان لم نقل بقوانين واحدة ، وان حرية الانسان ترتبط بدرجة ادراكه لهذه الاتجاهات او العلاقات الانتظامية . هذا التحديد الذي يلقى اجماعا عاما ، ويلتقي فيه دعاة العلم شرقا وغربا ، كان غريبا عن الفكر الوحدوي ، هذا يعني ان هذا الفكر كان ذا طبيعة تبشيرية محضة فيما يتعلق بالطريق الى الوحدة ، اي انه ، اولا ، كان ينطلق من ويدور في تصورات ذهنية عما يجب صنعه ، كما يبدو له انه الاصلح ، اي بشكل مجرد يعبر عن نزوات وانفعالات ورغبات ومطامح ومشاعر مسلوخة عن الواقع الموضوعي وامكاناته : وثانيا ، ان هذا الفكر لا يدور فقط في حلقات مجردة مثالية وذهنية صرفة بل انه لا يعي حتى موضوعية الواقع الموضوعي ــ الاجتماعي السياسي ، ان هذه الموضوعية تكشف عن ذاتها في ديالكتيك تحولها الخاص ، وان الفكر العلمي هو الذي يعي هذا . هذا الفكر كان يعمل ــ واقول هذا دون مبالغة ــ وكأن هذا الواقع الموضوعي غير موجود ، فهذا الفكر كان باستمرار ، ودون استثناء ابدا ، يعالج مسألة الطريق الى الوحدة دون اية دراسة للظاهرة الوحدوية في التاريخ .

ما قاله الفكر الوحدوي حول الطريق الى الوحدة هو في الواقع اقرب الى المقالات الصحفية منه الى الفكر العلمي . فهو يقدم التصحيحات حولها ولكن دون الرجوع الى تجارب التاريخ الوحدوية وهي التجارب التي يجب ان تكون قاعدة ومنطلق كل تحديد علمي للطريق الى الوحدة . الوعي الوحدوي العلمي ــ كل وعي علمي ــ هو الادراك الموضوعي لحركة الواقع . دون هذا النوع من الوعي تصبح الحوافز التي توجه سلوكنا من النوع الذي يتشكل من حالات مزاجية ، ردود انفعالية ، اراء اعتباطية ، ومواقف دوغماتية . هذه الحوافز قد تلتقي هنا وهناك ، في عملها ، مع حركة التاريخ والواقع ، او الادراك العقلاني الموضوعي لهما . ولكن في المدى البعيد ، تكون ضد العمل الوحدوي والوحدة ، لان الحوافز التي لا يضبطها العقل الموضوعي العلمي تتعرض باستمرار الى شتى اشكال الخطأ والانحراف والتخبط والانتهازية .

ديالكتيك العملية الوحدوية الموضوعي المستقل هو وحده الذي يستطيع الاسهام في توجيه العمل الوحدوي نحو دولة الوحدة ، وليس البرامج الوحدوية المجردة . العمل الوحدوي يستطيع ان يكون

فعالا فقط عندما يتمكن من العمل مع هذا الديالكتيك الذي يكشف بوضوح عبر تجارب التاريخ الوحدوية ، عن بعض الاتجاهات الواحدة الاساسية التي تعيد ذاتها باستمرار في هذه التجارب وتسودها . العمل الوحدوي ليس ضرورة سياسية فقط ، بل هو علم ، والعلم يعني حقائق ووقائع واتجاهات عامة يجب الارتباط بها ان نحن اردنا لهذا العمل النجاح .

واجب المفكر العلمي الاساسي هو ان يحول التعدد الى وحدة ، و« فوضى » الاحداث والظواهر الاجتماعية والسياسية المرئية او الظاهرية الى نظام يربط بينها او بالاحرى الى النظام الذي يكمن وراءها ويضبطها. هذه ميزة الفكر العلمي، ميزة كل ابداع فكري . لهذا كان الفكر الوحدوي العربي فكرا غير علمي ، فكرا لا يعرف الابداع ، الكشف عن نظام كهذا فقط يجعل من الممكن المقارنة بين طريق مسدودة واخرى قادرة على الانتهاء بالوحدة ، العلم يبني او ينظم الواقع من جديد لان قصده هو شق طريقه عبر الظواهر كي يكشف عن حقيقة غير ظاهرية تقف وراءها. هنا نجد ضعف الفكر الوحدوي الاساسي ، وهو الضعف الذي جعله عاجزا بشكل تام عن الاسهام في دفع العمل الوحدوي نحو دولة الوحدة . عدم الاعتراف بعجز هذا الفكر عجزا شبه كامل ، وبالتالي ضرورة توافر نمط فكري وحدوي جديد يعني فقط الاسترسال في الاقليمية وترسيخها . الفكر الوحدوي يحتاج ، بكلمة اخرى ، بأن يضع ظواهر التجارب الوحدوية التي تبدو ظاهريا منفصلة غير مرتبطة في اطار عام موحد ذي معنى فتحولها الى تصحيحات موضوعية حول الاتجاهات الواحدة التي تعيد ذاتها في العمليات الوحدوية عبر التاريخ .

العلم يحاول ترتيب وقائع واحداث ظاهرة معينة في نظام عام ، او بالاحرى ان يكشف عن هذا النظام الذي ينظم هذه الوقائع ، الفكر الاجتماعي السياسي العلمي الصحيح يدرس معطياته ويقارن بينها كي يكتشف التكوين العام الذي يقف وراءها ، او التركيب الاساسي العام الذي يوحد بينها .

العلم وحركة الأحداث

العلم يعني استخراج النظام الذي ينطوي عليه مجرى التحول المتغير . ويحاول ان ينتزع من العالم الموضوعي الذي يواجهه الانتظامية المتكررة التي ينطوي عليها ، من يطابق بين تجميع الوقائع والاحداث وبين العلم يخطىء جدا لانه يرى في جزء وان كان مهما العملية العلمية كلها. فالوقائع والاحداث في ذاتها لا تقول لنا ما هي الاحداث والوقائع المهمة ، ما هي العلاقة بينها او كيف يمكن ترتيبها في نظام عام ذي معنى يجعلها مفهومة منا. لهذا يجب الانتقال من تجميع الوقائع والاحداث الى تعميمات تحدد العلاقات الانتظامية الواحدة التي تسودها السمة الاولى للمنهج العلمي في القدرة على التدليل والتفسير في ضوء هذه العلاقات التي تسود ظواهر الاجتماع ووقائع التاريخ . لهذا كانت المقارنة التاريخية والاجتماعية اساس هذا المنهج لانها هي وحدها تستطيع ان تكشف عن هذه العلاقات او الاتجاهات العامة الواحدة ، لهذا كانت الخطوة العلمية الاساسية في دراسة ظاهرة ما — كعملية التوحيد السياسي مثلا او الانتقال من حالة تجزئة الى حالة وحدة — هي دراسة هذه الظاهرة كما حدثت في التاريخ ومن ثم تحديد الاتجاهات العامة التي كانت تعيد ذاتها فيها .

هناك وقائع صغرى ووقائع كبرى ، حقائق كوقائع منفصلة وحقائق حول مرحلة او مراحل تاريخية ككل ، حقائق حول احداث فردية واخرى حول حركة الاحداث . الفكر العلمي هو الذي لا يقف عند الاولى بل يدرك ان دراستها هي فقط خطوة نحو الثانية . لهذا كان الابداع الفكري عملية محدودة نسبيا لانه كان يتطلب مواهب معينة ، جهدا فكريا كبيرا ونفسا علميا طويلا . المنهج العلمي يعني الارتباط بالواقع الموضوعي ، مطابقة افكارنا لهذا الواقع كما يصنع نفسه ، اي العمل مع القوانين العامة التي يكشف عنها . ملاحظة وتجميع الوقائع المختلفة امر سهل نسبيا ولكن الكشف عن هذه القوانين العامة امر صعب يتطلب تمرسا علميا طويلا وقدرة فكرية على الخلق .

الفكر الاجتماعي السياسي الكبير يشغل نفسه بطبيعة الانظمة الاجتماعية والسياسة ككل ،

بطبيعة حركة التاريخ والاجتماع وتحولها ، وبالقضايا الكبرى التي نكشف عنها في الديالكتيك العام الذي يسودها . الفكر الوحدوي الكبير ايضا يشغل نفسه هو الآخر بالتجربة الوحدوية ككل ، بطبيعتها ، بحركتها ، وبالديالكتيك العام الذي يسودها . الفكر الوحدوي العربي لم يكن هذا النوع من الفكر . لم يكن يماثل عن قريب او بعيد وباي شكل من الاشكال هذا الفكر .

هنا في هذه الناحية نجد العطل الاساسي الذي يميز الفكر الوحدوي . معالجة هذا العطل يعني ان تحرر العمل الوحدوي يحتاج الى تحريره من هذا الفكر الذي لازمه واقترن به . الفكر الوحدوي يعاني ازمة ضخمة ويجد نفسه في مأزق خانق لانه استنزف امكاناته ويدور منذ مدة طويلة في حلقة مفرغة .

القصد الوحدوي يحتاج الى التنقية من اللاعقلانية التي لازمته حتى الآن كي يمكن تحرير الطاقة الخلاقة التي تتوافر له هذه اللاعقلانية فادت الى نتائج سلبية مستمرة ، كانت باستمرار تغذي روح الخيبة والانهزامية حوله . هذا القصد يحتاج الى وحدويين يدركون بوضوح ان الشجاعة والامانة والاصالة في المشاعر الوحدوية لا تكفي وحدها في تحقيق دولة الوحدة ، وانه يتعين على الضمير الوحدوي ان لا يتغنى فقط بوحدويته كي يكون وحدويا بل ان يترجم ذاته في تحولات وحدوية في الواقع الاقليمي تدفع بفاعلية الى انحساره وتجاوزه ،وان هذا يتطلب ويفرض وعيا ووحدويا علميا يعبر عن وينطلق من الاتجاهات الواحدة المتكررة في تجارب التاريخ الوحدوية . هذا يعني وضع نهاية للفكر الوحدوي السابق ذي الطبيعة التبشيرية ، وخلق نمط فكري وحدوي جديد .

بما ان الواقع الوحدوي الموضوعي ــ كما عبر عن ذاته في تجارب التاريخ الوحدوية ــ يتميز بموضوعية مستقلة عن ارادة الفرد ، فان العقلانيـة تعني فكرا يعبر عن هذه الموضوعية ، والاتجاهات الواحدة المتكررة التي تسودهـا . الفكر الوحـدوي كان فاشـلا حتى الآن في تسجيل احداث اي تحول وحدوي ، وهذا يعني انه كان فكرا مغلوطا منحرفا ، وهو امر يعود نهائيا الى عجزه عن ادراك « موضوعية » العملية الوحدوية او حتى وجودها . ان كانت المشكلة الاساسية التي تواجهناهي كيفية الانتقال من التجزئة الى الوحدة، وان كنا نعترف كدعاة منهج علمي ان هذه الظاهرة تتميز ، ككل الظواهر الاجتماعية السياسية بموضوعية مستقلة تعبر عن ذاتها بقوانين معينة او بعلاقات انتظامية واحدة متكررة ، يجب علينا اذن ان ندرس الكيفية التي كان يحدث فيها هذا الانتقال عبر التاريخ . فكرة الوحدة لا تؤثر مباشرة في الاحداث اذ بينها وبين الاخيرة يقف دائما ضمنـا، او صراحة ، بشكل واع او لا واع ، مفهوم استراتيجي ما .

الاجوبة التي تقدمها اية نظرية تتحدد بقدر كبير ، وغالبا تتقرر بنوع الاسئلة التي نطرحها . لهذا يجب التطلع الى الاسئلة التي تقف وراءها . الاجابات التي كان يقدمها الفكر الوحدوي لم تنطلق حتى الآن من السؤال العلمي الاساسي الذي كان يمكن له ان يؤدي الى الاجابة الصحيحة وهو كيف كانت تنتقل عبر التاريخ وحدات سياسية مستقلة او مجتمعات مجزأة الى الوحدة ؟ .. ان كان المنهج العلمي يقول ان الظواهر الاجتماعية السياسية تتميز بموضوعية مستقلة تعبر عن ذاتها باتجاهات عامة واحدة ، ما هي اذن الاتجاهات العامة الواحدة التي تكشف عنها هذه التجارب الوحدوية ؟ .

بما ان الدراسات والبرامج التي ظهرت حتى الآن حول الطريق الى الوحدة او كيفية الوصول اليها لا تتفرع من او تعتمد على دراسة جامعة للظاهرة الوحدوية في التاريخ ولا تكشف عن وعي لضرورة ذلك ، فان « اخلاقية » الوحدة حلت محل « سوسيولوجيا » الوحدة ، اي ان الافكار التي نتصورها مسبقا عن الطريق التي «يجب» ان تؤدي اليها حلت محل الكيفية التي كانت تتبعها موضوعيا العملية التوحيدية في انتقال مجتمعات مجزأة من حالة تجزئة الى حالة وحدة .

لقد قيل حول أحزاب اليسار الفرنسي ان التاريخ كان يصنع نفسه لمدة طويلة دون هذه الأحزاب ... انه لم يصنع شيئا لوقت طويل ، ولكنه منع بعض الأشياء من الحدوث . هذا قول كان

يجب ان يقال ، وبشكل خاص ، باليسار الوحدوي العربي ،ليس هناك من يسار في العالم اكثر استحقاقاً لهذا القول .

هذه الملاحظات تعني بوضوح ضرورة خلق فكر وحدوي جديد يعلن عن إفلاس الفكر الوحدوي السابق ــ فيما يتعلق بالطريق الى دولة الوحدة . سقوط الفكر الوحدوي كما نعرفه حتى الآن ينطوي على عنصر ايجابي لأنه يعني ان هذا الفكر قد استنزف ذاته ، وان النمط الفكري الذي يمثله قد افلس ، وبالتالي فان الطريق اصبحت ممهدة لظهور مفهوم جديد يحقق قفزة علمية من حيث تحديد الطريق الى الوحدة . كل فكر لا يكشف لنا عن النظام الذي ينظم الكل الاجتماعي او صعيداً معيناً منه ، يكون فكراً عابثاً من ناحية علمية ، ويعجز ان يوفر لنا اية قدرة صحيحة على ممارسة عمل وحدوي فعال في الواقع . تجارب التاريخ الوحدوية والثورية تدل انها كانت تنتقل من مرحلة الى اخرى عندما تنتهي مرحلة ما الى طريق مسدود او عندما تستنزف امكاناتها ، ولكن كي يحدث ذلك يجب ان يحدث وعي عام بأن النمط الفكري السائد قد افلس ، ان منطلقاته سقطت ، وانه يحتاج الى تجديد .

طالما ان الوعي يتحدد في ضوء نمط فكري يشكل جزءاً من الواقع ، فانه يكون الى حد كبير مجرداً من الحرية ، وبالتالي من الطاقة الثورية . ولكن عندما ينسلخ عن الأفكار والمفاهيم التي تمثل هذا النمط ، ينتقل الى دنيا الحرية وما ينتج عنها من طاقة ثورية ، ولكن هذا الانسلاخ لا يتم عن طريق ذاتي صرف ، بل عندما يتحول الواقع عن عقلانيته التاريخية فيصبح لا عقلانياً . هذا التحول في قلب الواقع هو الذي يولد المناخ الذي يفرز هذا النوع من الوعي . فبقدر ما يصبح الواقع لا عقلانياً ، بقدر ما تزيد امكانات الوعي في الحرية ، او الوعي الذي ينقض لا عقلانية وضع قائم . الطريق المسدودة التي وصل اليها النمط الوحدوي الفكري الحالي والحلقة المفرغة التي يتراوح فيها يحيطانه بواقع لا عقلاني يفرض ، عاجلا او آجلا ، على الوعي الوحدوي بتجاوزه بنمط جديد .

الفكر الوحدوي متخلف عن الأزمة الوحدوية التي يعانيها العمل الوحدوي والتي تهدد بتكريس نهائي للاقليمية ، ولكن ليس هناك من ازمة دون حل ممكن ، لأن الأزمة لا تعود الى قوى خارج التاريخ والاجتماع ، بل تنتج عن وضع اجتماعي تاريخي معين وادراكها في ضوء القوى التي يكشف عنها هذا الوضع يوحي دائماً بسبب طبيعته الديالكتيكية نفسها ، بالقوى التي يمكن اعتمادها في الوصول الى حل لها .

الأزمة الوحدوية او ازمة الطريق المسدودة التي يعانيها الفكر الوحدوي تكشف إذن عن قوى وعوامل معينة تقف وراءها ، ومعالجتها تقضي بالتغلب على هذه الأخيرة بقوى وعوامل يمكن لها ان تسودها ، لهذا نحن نحتاج الى وعي وحدوي جديد ينطلق منه النضال الوحدوي في سبيل الدولة الواحدة . دون هذا الوعي ستتسع الأزمة وتستفحل ، ومن ثم تقضي نهائياً على احتمال الوحدة ، وبذلك تحول الوطن العربي الى « بربرية » سياسية دائمة .

الاعتراف بهذه الأزمة وابعادها ضروري جداً في مجابهتها ، وهي دون الوعي لها تستمر في نموها ولا يمكن معالجتها ، الاعتراف بها والوعي لها يجعلان من الممكن الوصول الى معرفة وحدوية علمية عن الطريق الى الوحدة ، لأن إبرازها يطرح اشكال الفكر السابقة كمشكلة .

القوى والعوامل الاقليمية تنمو وتترسخ مع الوقت ، ونحن الآن بأشد الحاجة الى وعي وحدوي موضوعي علمي جديد نستطيع به ان نحد من عمل هذه القوى والعوامل ، ان نلجم حركتها ونتجاوزها في طريق يمكن ان تؤدي الى الوحدة . إننا في سباق مع الزمن ، ودون وعي من هذا النوع سنخسر هذا السباق ، لأننا سنعجز عن الافادة من الاحتمالات والامكانات الوحدوية التي يوفرها التاريخ لنا .

عند دراسة المسألة الوحدوية وتحليل الظواهر الفكرية والسياسية التي تحيط بها ، يجب ان لا ندع « للضجيج اللفظي » مجالا بأن يلهينا عن الرؤية الموضوعية للأزمة التي تحيط بقضية الوحدة .

دون هذا الوعي العلمي العقلاني الذي يجب على العمل الوحدوي الانطلاق منه والرجوع اليه ، يتحول هذا العمل ــ وهذا ما يدل عليه تاريخه ــ الى آنية تنشغل بالأحداث والتحولات اليومية ، وتذوب في تجزيئية تفصل بين هذه الأحداث والتحولات وبين ترابطها الديالكتيكي ، فتفقده بالتالي القدرة على سيادتها ، عندئذ يصبح الفكر الوحدوي موضوعياً فكر الاقليمية وليس فكر الوحدة . هذا ما حدث فعلا له . المشكلة الآن اصبحت ، في الواقع ، اقليمية جديدة اشد خطرا بكثير من الاقليمية الماضية ، لأنها تبرز من داخل الفكر الوحدوي وباسمه ، وتنتج عن انظمة تقول بالوحدة .

في غياب وعي وحدوي علمي جامع ، اصبح هذا الفكر ــ بسبب النتائج السلبية التي تترتب على هذا الغياب ــ يعبر غير واع عن الاقليمية الجديدة ، ويقود موضوعياً الى ترسيخها رغم تصوراته ودوافعه الوحدوية . المهم ليس كمية الفكر الوحدوي ــ وهي كمية كبيرة ــ بل القدرة على التعبير عن الاتجاهات والقوانين الأساسية التي تسود عملية الانتقال من التجزئة الى الوحدة في ضوء تجارب التاريخ الوحدوية ، وهي قدرة مفقودة ، والتي تستطيع ، ثانياً ، ان تتحكم بتحولات الواقع العربي وتدفعها في وجهة الوحدة ، وهي قدرة كانت حتى الآن غير موجودة .

نظرية وحدوية علمية

هذا يعني ان تصحيح الفكر الوحدوي او العطل الأساسي في هذا الفكر يحتاج الى نظرية وحدوية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية .

الفكر الاجتماعي السياسي الكبير الذي كان يمارس أثرا ودورا اساسياً في التاريخ وحركته كان يحاول دائماً ان يشغل نفسه بالاجابة على اسئلة من النوع التالي : ما هي طبيعة المجتمع ، التاريخ ، الانسان ، الدولة ؟ ... ما هي طبيعة التحولات الاجتماعية والتاريخية ؟ ، ما هي القوى ، الاتجاهات او القوانين التي تسودها ؟ ، ما هو قصد وهدف الحياة الاجتماعية والسياسية ؟ ، ما هي علاقة الانسان بالمجتمع والتاريخ وكيف يجب او يمكن ان تكون ؟ ، كيف يمكن للانسان ان يحقق حريته ، وان يسود حركة التاريخ والاجتماع ؟ ، الخ ...

الفكر الوحدوي يجب ان يرتفع من زاويته الخاصة الى هذا المستوى ، فيشغل نفسه اولا وقبل كل شيء بالقضايا والعناصر الأساسية العامة الدائمة التي تنطوي عليها التجربة الوحدوية ، وليس فقط بقضاياها اليومية ، مشاغلها الآنية ، وسماتها المحلية ، النظرية الوحدوية العلمية هي الأداة التي يصل بها الفكر الوحدوي الى هذه القضايا والعناصر الأساسية .

واجب المفكر الاجتماعي الأول ، وخصوصاً في مرحلة كالمرحلة الانتقالية التي نمر بها ، ليس دراسة المجتمع فقط ، بل خلق المفاهيم والتفاسير التي تنظمه ، اي تحويل الظواهر ، والعناصر التي يتشكل منها الى صعيد مفاهيمي يرسم العلاقات التي تربط بينها وتشدها الى بعضها في كل عام . ما ينطبق على المجتمع ككل ، ينطبق بشكل خاص على اصعدته المختلفة ، التي لا يصح للمفكر ابدا تجزيئها عند دراستها ، اي الاقتصار على جزء من الكل الذي يعالجه . فهو ان اراد ان يكون علمياً وجب عليه الامتداد الى هذا الكل ، لأن الكل يتميز باتجاهات وقوانين عليا وأساسية تحدد الأجزاء . فحقيقة وواقعية هذه الأخيرة هما من حقيقة وواقعية الكل . لهذا فان العمل الوحدوي يحتاج الى نظرية وحدوية علمية تشمل الوضع الوحدوي في ترابط وتفاعل اجزائه ككل ، وفيما ينتج عنهما من اتجاهات مستقلة تتحكم بهذه الأجزاء ، هذه النظرية تسمح له بالتطلع وراء الوقائع والأحداث المعطاة مباشرة ، وراء التفاسير التي تقتصر عليها ، والدخول الى مستويات اخرى تفضح اقنعتها العابرة . الذين يقفون امام الظواهر الخارجية والآنية ، ويقتصرون عليها في تحديد مواقفهم السياسية ، يتعرضون للضلال والضياع ، مثلا ، عند مواجهة هزيمة ، فشل ، او نكسة ، خطأ او ضعف ما ، يسرعون عادة الى تعميم ذلك على الحركة الوحدوية او على الثورة ككل ، سبب هذا الاقتصار على تلك

الظواهر ، وما يجر اليه من انحراف ، يعود الى كونهم لا يعتمدون نظرية علمية جامعة تكشف لهم عن العلاقات الانتظامية الواحدة التي تعيد ذاتها وتسود الحركة والثورة .

العمل الوحدوي الثوري الفعال يعني قدرة على التمييز بين ما ينفعه ويسيء اليه ، بين الواقعي والخيالي ، بين الموضوعي والوهمي ، بين الحقيقة والخطأ ، بين الأساسي والثانوي ، بين التحولات والاتجاهات والقوى النامية ، وتلك التي يفرض عليها التاريخ الاتحاد والانكماش : بين ما يلهيه عن قصده ، وان كان يلوح جذاباً مفيدا في المدى القريب ، وبين ما يخدم هذا القصد في المدى البعيد ، وإن كان ضعيفاً او ينطوي على تنازلات في المدى القريب . كي يتوفر لنا ذلك ، نحتاج الى نظرية وحدوية شاملة نرجع اليها ، نقيس ونميز بها بين هذه الظواهر . الطريق الى هذه النظرية ، او بالأحرى الطريق الوحيدة اليها ، هي الرجوع الى الظاهرة الوحدوية في التاريخ ، اي تجارب التاريخ الوحدودية، بغية الكشف عن الاتجاهات او القوانين الواحدة التي تعيد ذاتها فيها ، والتي تشكل نواة نظرية من هذا النوع .

مركز دراسات وحدة عربية يجد تبريره الأول في تقديم هذا الفكر الجديد . الفكرة التي رافقت تأسيسه ليست فقط العمل بنشاط نحو توعية وحدوية تجمد الى حد ما على الأقل الانزلاق النفسي الفكري نحو الاقليمية ، بل إعطاء هذه التوعية منطلقات جديدة ، رؤيا جديدة تفصل بينها وبين الفكر الوحدوي السابق ، المركز يرجو ان يوفق في ذلك ، وهو سيعمل جاهدا على تحقيقه .

الفرص الذهبية الخمس التي اضاعتها الجامعة العربية

أحمد الشقيري

في ذكرى مرور ثلث قرن على انشاء جامعة الدول العربية ، يخص الاستاذ احمد الشقيري المستقبل العربي بهذا المقال . وقد عمل الزعيم الفلسطيني سنوات امينا عاما مساعدا في الجامعة ، قبل ان يتولى انشاء ورئاسة منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٤ ـ ١٩٦٨ . وهو معنى حاليا بدراسة سبل تطوير الجامعة اداريا وسياسيا وقانونيا .

منذ ثلاثين عاماً والأمة العربية في صراع متواصل مع اسرائيل ، خاضت خلاله اربع حروب ، وصفحات التاريخ الحديث ما تزال مفتوحة على مصراعيها لتدون انباء حروب اخرى ، قادمة لا محالة حتى تحقيق النصر الاكبر بعودة فلسطين الى حظيرة الوطن العربي الكبير ، وعودة شعب فلسطين الاحفاد ، أو احفاد الاحفاد ، الى تراب الآباء والأجداد .

وقد بدا هذا الصراع الرهيب في عام ١٩٤٧ حين كانت الطائفة اليهودية في فلسطين تتجسد في اطار كيان سياسي اسمه الوطن القومي اليهودي ، ثم كان ما كان من صدور قرار الأمم المتحدة في خريف ١٩٤٧ بانشاء دولة يهودية في فلسطين ، في مساحة تزيد قليلا على نصف مساحة فلسطين ، وما تلا ذلك من تصدي الجامعة العربية بالحرب وبالسياسة للحيلولة دون قيام الدولة اليهودية ، ثم ما انتهى اليه الأمر من هزيمة الجيوش العربية ، وقيام الدولة اليهودية باسم اسرائيل في ربيع عام ١٩٤٨ ، وكان اسوأ ربيع شهدته الأمة العربية في تاريخها الطويل الطويل .

وقد عصفت هذه الهزيمة الساحقة الماحقة بكيان الأمة العربية في ارجاء الوطن الكبير ، فاطاحت وما تزال بالملوك والرؤساء ، فوقعت الثورات والانقلابات ، وكلها تطلق شعارا واحدا : تحرير فلسطين كاملة غير منقوصة .

وفي غمرة هذا الصراع الرهيب تحملت الأمة العربية ، راضية شامخة ، تضحيات جسيمة مادية وبشرية ، فاستشهد من ابنائها الألوف والألوف في ساحات الشرف والكرامة ، حتى لم تبق أسرة عربية في الوطن العربي الكبير إلا وفقدت قريباً او صديقاً أو حبيباً .

وكذلك فقد انفقت الأمة العربية في حلبة هذا الصراع زبدة ثرواتها وخيراتها ، وشدت الحزام على بطون ابنائها ، ناهيك عن تناقص برامجها الصحية والتعليمية والاجتماعية ، وتخلف مشروعاتها الزراعية والصناعية والعمرانية .

وقد ارتضت الأمة العربية هذه التضحيات الجسام ، وما تزال وستظل ، لأن فلسطين هي قلب العالم العربي ، تهون كل التضحيات من اجل تحريرها ، ولأن العدو الغاصب المحتل ، يهدد امن الأمة العربية وسلامتها ، وخيراتها ومقدساتها ، وحاضرها ومستقبلها وكل ذلك جدير باغلى التضحيات ، واعز الأنفس والأموال والثمرات .

وحين ننظر في الحساب الختامي لهذا الصراع في كل مراحله نرى ان الأمة العربية لم تحقق شيئاً

من اهدافها ، وان العدو هو الذي حقق الكثير من اهدافه . فقد اصبحت اسرائيل دولة قائمة ، معترفاً بوجودها في الأمم المتحدة ، واصبحت محتلة لفلسطين بكاملها ، ومعها الأراضي العربية من جبل الشيخ في الجولان الى شرم الشيخ في سيناء .

وكانت حرب اكتوبر هي الشعلة المضيئة الوحيدة وسط هذه الظلمة الدامسة التي طال ليلها ، بما اظهرت من كفاءة الجندي العربي وبسالته ، ولكن الدبلوماسية العربية ، بما اقترفت من اخطاء سياسية جسيمة ، على الصعيدين العربي والدولي ، قد اطفأت تلك الشعلة المجيدة ، وعادت اسرائيل الى سياستها العدوانية التوسعية الدائبة ، تقيم المستعمرات على الأرض العربية ، وتعمل على تهويد الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتهدد بالاستيلاء على جنوب لبنان ، وتتشامخ برأسها في الشرق الأوسط .

ويطالعنا هذا العام بأنباء خطيرة عن قوة اسرائيل العسكرية المتفوقة ، وما تؤكده مراجع المعاهد الاستراتيجية في العالم الغربي ، من ان اسرائيل توشك ان تصبح نووية وانها اصبحت تصدر انواعاً كثيرة من السلاح الى دول امريكا اللاتينية بل والى امريكا والمانية ، وانها تعاون افريقيا الجنوبية في صنع القنبلة الذرية .. وان .. وان ..

وكل الذي يعنينا في هذا العرض الموجز ، ونحن نضع هذه الدراسة عن الجامعة العربية ، ان ننبه الى حقيقة تاريخية علمية ، اهملها الكثيرون من الباحثين ، وانطمست وقائعها ، تحت الاحمال الثقيلة مما كتب عن القضية الفلسطينية ، غثا كان او ثميناً . وهي ان اسرائيل هذه ، كان يمكن ان لا تكون ، في عام ١٩٤٨ وان بقاءها واستمرارها ، كان يمكن ان لا يكون ، وان قوتها العسكرية المتنامية كان يمكن ان لا تكون . وبالتالي ان كل هذه الكوارث والمآسي التي تحملتها الأمة العربية عبر ثلاثين عاماً ، كان يمكن ان لا تكون .

كل ذلك كان يمكن ان لا يكون ، لولا ان الجامعة العربية قد اضاعت خمس فرص ذهبية ، كل واحدة منها كانت كافية ان تحول دون قيام اسرائيل ، أو ان تجعل أمرها قاصراً على كيان محدود يتمتع باستقلال ذاتي في اطار دولة فلسطين ديمقراطية .

وهذه النتيجة ، الراجح وقوعها يومئذ ، كان من الميسور ان يواكبها قيام وحدة عربية كبرى ، وتنصرف الأمة العربية الى تعبئة طاقاتها وثرواتها في سبيل تقدمها العلمي والاقتصادي والاجتماعي ، وبذلك تتوافر الحياة الرغيدة للملايين البائسة من ابناء الأمة العربية .

ولقد كانت حرب ١٩٤٨ ، استثناء لجميع الحروب اللاحقة ، هي حرب الجامعة العربية ، فهي التي اعلنتها ، وخططت لها ، ونفذتها ، وخاضتها الجامعة العربية تحت علمها وقيادتها ، ومن هنا تأتي علاقة الجامعة العربية في هذه الحرب ، ومن هذه الزاوية تأتي هذه الحرب في دراستنا هذه .

ولقد كتب عن حرب ١٩٤٨ مئات من الكتب والمقالات والدراسات ، في جميع اللغات ، وافقرها ما كتب في اللغة العربية ، وليس هذا البحث مؤلفاً يضاف الى هذه المجموعة . فلن نتعرض الى تاريخ هذه الحرب ، ولا الى ملابساتها وظروفها ، وفقدان الخطة فيها ، وانقسام الدول العربية بشانها ، وفساد الاسلحة والضمائر التي تكشفت عنها ، فذلك كله وغيره له مراجعه ووثائقه .

ولكنا سنقتصر البحث على فترات خمس من هذه الحرب ، اتاحت للأمة العربية فرصاً ذهبية خمساً ، كانت أي واحدة منها قادرة على تغيير مصير المعركة ، وبالتالي مصير اسرائيل والعالم العربي ، ولنعد قليلا الى الوراء الى بعض الوقائع ، ولنبدأ بالفرصة الذهبية الأولى .

في التاسع والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ وقف الشعب الفلسطيني امام الخطر الرهيب وجها لوجه . فقد تجسدت مخاوفه وهواجسه التي كانت تملأ فؤاده عبر ثلاثين عاماً مضت . ففي ذلك اليوم اصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين ، بين الغرباء الدخلاء ، والمواطنين الشرعيين اصحاب البلاد الحقيقيين على مدى عشرة آلاف عام من التاريخ المدون ، ورأى

الشعب الفلسطيني في هذا القرار الظالم افتئاتاً صارخاً على حقوقه الوطنية ، وتهديداً باجلائه عن وطن آبائه واجداده ، على حين تمتع اخوانه في الأقطار العربية المجاورة بالاستقلال والسيادة والحرية او كانوا في الطريق الى ذلك .

ولم يعد امام الشعب الفلسطيني رغماً عن قلة وسائله وضعف امكاناته ، من خيار الا النضال المسلح ، بعد خمس عشرة ثورة خاضها الشعب الفلسطيني منذ ان فرض الانتداب على فلسطين .

وقد طال انتظار الشعب الفلسطيني للجامعة العربية وقراراتها منذ ان انشئت في ربيع ١٩٤٥ ، ومنذ ان تلاحقت مؤتمراتها من انشاص الى بلودان وصوفر وعاليه وكلها تمني الشعب الفلسطيني ومعه الأمة العربية بالعمل على عروبة فلسطين بكافة الوسائل ، ومنها النضال والقتال . وكان اخرها البيان « القومي الحازم » الذي اصدرته الجامعة العربية باستنكار التقسيم والعمل على احباطه .

ولم يكن الشعب الفلسطيني وحده هو الذي فقد صبره من الجامعة العربية وسياستها المتخاذلة المعتمدة على صداقة « الدولتين الديمقراطيتين العظيمتين » . فان الأمة العربية باسرها قد اسقطت الجامعة العربية من حسابها ، وتداعى الرأي العام العربي الى الجهاد لانقاذ فلسطين ، ولتمض الجامعة العربية في مسالكها فيما تستطيع ان تقول او تفعل ، وقد قالت كثيراً وفعلت قليلا .

وهكذا كان ، فما هي إلا بضعة ايام حتى اخذ الفلسطينيون في اعداد انفسهم للكفاح في مجموعات في مختلف مقاطعات فلسطين ، واخذ المتطوعون في البلاد العربية يتسابقون الى ميدان الجهاد في فلسطين ، وكلهم عزيمة صادقة على الاستشهاد أو النصر .

والشعب الفلسطيني وقد استنفد الجهاد الطويل كل موارده في الماضي ، لم يكن يملك السلاح والعتاد ، ولا وسائل التدريب ، ومع هذا فقد انطلق ابناء فلسطين يبحثون عن السلاح في البلاد العربية المجاورة ، ومنهم من باع بقرته أو دابته ، أو أجر ابنته ليشتري بأجرها بندقية كائنا ما كان حالها ، حتى ولو كانت من المطمورات في الصحراء الغربية ، من مخلفات الحرب العالمية الثانية .

وبدأ الشعب الفلسطيني كفاحه من الصفر ، ومعه المتطوعة من ابناء الأمة العربية ، وراحوا يتصدون للمستعمرات والمؤسسات والمواصلات اليهودية ينزلون بها افدح الخسائر .

وقد ادرك المقاتل الفلسطيني من البداية ان العدو اليهودي يجب ان يقابل بمثل خططه واسلحته . فتلك هي شريعة الحرب وخاصة مع عدو يتخذ من الارهاب وسيلة لازهاق الحق ، واحقاق الباطل .

وكانت أولى عملياتهم العسكرية ، « الكفاح للوصول الى السلاح » وبعد اسبوعين من صدور قرار التقسيم وبالتحديد في الثاني والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨ اقتحم المناضلون الفلسطينيون مدرسة البوليس الاضافي قرب مدينة الرملة في اواسط فلسطين ، وبعد معركة قصيرة فاصلة ، استطاع المناضلون ان يغنموا كل ما فيها من اسلحة وعتاد ، فاستولوا على اربعماية بندقية وثمانية مدافع ستن وستين الف طلقة للبنادق ، وحققوا بذلك وصية طارق بن زياد الى جنوده في فتح الاندلس ، « ان ليس لكم إلا ما تغنموه من أيدي عدوكم » . وقد تكررت هذه العمليات عدة مرات فكانت من اكثر مصادر السلاح للمقاتل الفلسطيني .

وقد انشغل المناضلون وقتاً غير قليل في الوصول الى السلاح ، فان السلاح الذي قررته الجامعة العربية مرة بعد مرة لم يصل الى المناضلين الفلسطينيين . وقد كتب الأستاذ احمد فراج طايع ، الذي كان قنصل المملكة المصرية في القدس يومذاك ، (واصبح فيما بعد وزيرا للخارجية المصرية) يشكو الى وزارة الخارجية المصرية من تباطؤ البلاد العربية في مد فلسطين بالأسلحة « التي طالما وعد بها رؤساء الحكومات العربية .. بحيث اصبح كثير من أهل فلسطين يعتقدون ان رؤساء الحكومات العربية اتخذوا من مأساة فلسطين وسيلة للدعاية الحزبية » وكان تاريخ هذه الشكوى [١] بعد شهر

---

١) ص ٦٨ من كتاب **صفحات مطوية عن فلسطين** الاستاذ احمد فراج طايع .

واحد من صدور قرار التقسيم ، ٢٥ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٧ .

والواقع انه بعد ايام قليلة من هذه الشكوى (في ١٩٤٧/١٢/٢٩) قام اليهود بجريمة ارهابية شنيعة في باب العمود في القدس فقد وضعوا عنده صفيحة مملوءة بالمتفجرات ، وكان المكان مزدحما بالاهلين الآمنين ، فذهب ضحيتها العشرات من الرجال والنساء والاطفال ، وقد تكررت امثال هذه الحوادث وكان ابرزها الانفجار الرهيب في سوق الخضار بالرملة ، واعقبه انفجار اشد هولا في شارع العراق في حيفا ، وقد أدت هذه الانفجارات بحياة الكثيرين من العزل الآمنين . وكان اليهود يتسللون الى الاحياء العربية وهم يلبسون الزي العربي او زي الجندي البريطاني .

ولم يعد امام المناضلين الفلسطينيين إلا مكافحة الارهاب بالارهاب ، وقد تفوقوا على اليهود في هذا المجال ، وان لم يكن هنالك تكافؤ في السلاح . وكانت بطولات المناضل العربي في هذا المجال اكثر من ان تذكر .

منها ان مجموعة من المناضلين الفلسطينيين قد اخذت طريقها الى موقف الباصات اليهودية في حيفا ، وهو ساحة كبيرة يتجمع فيها اليهود ، فوضعوا لغما موقوتا ، وما ان انفجر في ساعته المحددة حتى كان القتلى والجرحى من اليهود بالمئات (١٩٤٨/١/١٤) .

وفي اليوم العاشر من شهر فبراير (شباط) من عام ١٩٤٨ قامت مجموعة اخرى من المناضلين الفلسطينيين باقتحام شارع بن يهودا في القدس فاشعلت فيه النيران ودمرت فيه عددا من المباني ، وهاجمت عمارة جريدة البالستين بوست ـ جروسلم بوست الحالية ـ واحرقتها بما فيها ومن فيها ، ولم تغادر الحي إلا بعد ان اصبح ربوة من النيران والانقاض .

وكانت « قمة » هذه الاعمال المجيدة المتلاحقة عملية خارقة باسلة قام بها مناضل فلسطيني واحد . دخل الى الحي الذي فيه مبنى الوكالة اليهودية وهو يركب سيارة عليها العلم الامريكي وترك السيارة وفيها المتفجرات الموقوته ، وما ان غادرها ، ومشى مع الجمهور اليهودي ، حتى كانت الوكالة اليهودية تتناثر جدرانها في الفضاء ومعها اشلاء عدد من زعماء اليهود . (١٩٤٨/٣/٣١) .

وكل ذلك واكثر من ذلك جاء مصداقا لتقرير بعث به قنصل المملكة المصرية في القدس الى وزارة الخارجية يقول فيه « يقع التصادم المسلح بين العرب واليهود بصورة مستمرة .. وقد دلت الحوادث على ان العرب بالرغم من قلة ما تجمع لديهم من الاسلحة وبالرغم من رداءة نوعها برهنوا على شجاعة عظيمة وعلى انه لو كان لديهم نصف ما لدى اليهود من اسلحة لنكلوا باليهود شر تنكيل » .[٢]

جبهـــة حرب المواصلات

واتسع نشاط المناضلين الفلسطينيين في مجالات اخرى فقد فتحوا جبهة « حرب المواصلات » فقد تصدوا للمواصلات اليهودية ، في جميع ارجاء فلسطين ليقطعوا التجمعات اليهودية بعضها عن بعض ، وتعرضوا للطريق بين تل ابيب وحيفا ، وبين تل أبيب والقدس ، وضربوا حصارا حول المواقع السكانية اليهودية ، واصبح اليهود لا يتحركون إلا قوافل تحت حراسة شديدة ، وكانت هذه القوافل لا ينجو منها إلا القليل .

وكانت معركة قافلة كفار عصيون على الطريق الرئيسي بين الخليل والقدس من اشد المعارك هولا على اليهود ، فقد تصدى المناضلون الفلسطينيون لقافلة يهودية ضخمة (١٩٤٨/٣/٢٧) فقتلوا الكثير من افرادها وغنموا الاسلحة والذخائر ، ومن بقي على قيد الحياة جرى تسليمه الى القوات البريطانية .

ولم تمر مذبحة دير ياسين من غير انتقام عادل شامل ، فبعد اسبوع واحد من تلك المذبحة

---

٢) ص ٦٩ من المرجع السابق .

الرهيبة (١٣/٤/١٩٤٨) . خطط المناضلون الفلسطينيون لهجوم على قافلة يهودية كبيرة كانت في طريقها الى جبل سكوبس ـ المشارف ، احد جبال القدس ، فتصدى لها المناضلون الفلسطينيون فابادوها واستولوا على الأسلحة والذخائر وكان بين الهلكى عدد كبير من زعماء اليهود ومشاهير اطبائهم . وقد اعلن اليهود ذلك اليوم يوم حداد ، ولا يزالون الى يومنا هذا يجددون عليه العويل والبكاء .

ولا يتسع المجال لذكر امثال هذه الحوادث ، ولو بايجاز . ولكننا نورد هذه الشواهد المحدودة لنصل الى الفرصة الذهبية الاولى التي لاحت في الافق العربي ، بل وقعت في قبضة الجامعة العربية ، ثم جعلتها تسقط من يدها .

ذلك ان البطولات الفلسطينية هذه ومعها بطولات المتطوعين العرب ، قد افزعت الجمهور اليهودي وخلعت قلبه ، وراحت المظاهرات الصاخبة في شوارع تل أبيب تطالب الوكالة اليهودية بوقف الاعمال العسكرية اليهودية ، والبحث عن وسيلة للتعايش مع الشعب العربي في فلسطين ، والدارس للصحافة اليهودية والعالمية في تلك الحقبة يجد على ذلك الدلائل متوافرة .

ومع قلق الطائفة اليهودية في فلسطين ، قلقت الأم الحنون ، امريكا ، على مصير مصالحها في الوطن العربي وعلى مصير القضية الصهيونية برمتها . وبدأ التفكير في التراجع المنظم عن السياسة الامريكية ، وعن التقسيم ، وعن اقامة دولة يهودية ، ولو الى حين .

ذلك انه بعد ان صدر قرار التقسيم في خريف ١٩٤٧ كان مجلس الأمن في حالة انعقاد دائم ليس له شغل شاغل إلا قضية فلسطين يتلقى التقارير عن حالة الأمن فيها ، ويناشد الشعب العربي في فلسطين والوكالة اليهودية الى العمل على اقرار السلام ، وقد اصدر عدة قرارات يعبر فيها عن هذه التمنيات .

وفي اليوم الرابع والعشرين من شهر فبراير (شباط) ١٩٤٨ ، أي بعد ثلاثة اشهر من قرار التقسيم ، فوجئت الأمم المتحدة والمحافل الدولية بخطاب مثير من قبل المستر وارن اوستن مندوب امريكا في مجلس الأمن ، يعلق على تقرير وارد عن حالة الأمن في فلسطين ويعرب عن شكوكه في « حكمة » قرار التقسيم ومدى الامكانات في تنفيذه بالنظر لحالة عدم الاستقرار السائدة في فلسطين .

وكان التقرير المطروح على مجلس الأمن صادرا عن رئيس اللجنة الدولية في القدس التي كانت مكلفة بتنفيذ قرار التقسيم . وكان مما جاء في ذلك التقرير ، انه « في ظروف فلسطين الحالية والمستقبلية فانه لا يرى امكانية لتنفيذ قرار التقسيم إلا بقوة عسكرية فعالة من خارج فلسطين » . ولم يستطع المندوب الامريكي امام هذه الحقيقة الخطيرة إلا ان يقول « ان مجلس الأمن لا يملك ان ينفذ قرارا سياسيا سواء كان صادرا من الجمعية العامة او من مجلس الأمن نفسه » .

وثارت الصهيونية العالمية على هذا الموقف المتراجع ، وحملت حملة كبرى على المندوب الامريكي واتهمته « باللاسامية » وهي التهمة التي توجه لمن يقاومون الحركة الصهيونية من غير العرب ، تماما مثل تهمة « إلقاء اليهود بالبحر » التي توجه الى العرب ، حينما يرمون اليهود باشواك الورد .

ولم يكن موقف السياسة الامريكية هذا بالعدول عن التقسيم قائما على اساس القناعة بالظلم الذي لحق بالعرب ولا بمخالفة التقسيم لمبادىء العدالة واحكام ميثاق الأمم المتحدة فان المناقشات التي دارت في الأمم المتحدة قبل ثلاثة اشهر من ذلك التاريخ كانت اغنى « مرافعة » حظيت بها أية قضية من قضايا الأمم المتحدة ، لكن الدافع الرئيسي الذي حمل امريكا على هذا الموقف ان النضال العربي الفلسطيني كان مشتعلا في ميدان المعركة ، وان نكبة كبرى توشك ان تقع على الطائفة اليهودية في فلسطين ، وجودا ومصيرا ، وان سلاح البترول يوشك ان يتحرك من مرقده .

ومع اشتداد هذا النضال ، الذي كان يملك وفرة وافرة من الشجاعة والاقدام وقلة ظاهرة من السلاح والعتاد ، فقد اشتد الموقف الامريكي انكارا للتقسيم ، واخذت الولايات المتحدة تتحدث عن

مشروع جديد يكون بديلا عن التقسيم ، يقوم على انشاء وصاية دولية على فلسطين .

وفي ١٩ مارس (آذار) ١٩٤٨ اثار المندوب الامريكي انتباه العالم الدولي ، وهو يعلن امام مجلس الأمن معارضته للتقسيم مرة اخرى ، فأعلن ان السياسة الامريكية بالنسبة الى فلسطين تلخص في ثلاث نقاط : الأولى « ان هناك اتفاقاً عاماً ان التقسيم لا يمكن تنفيذه بتدابير سلمية . ثانياً انه يترتب على مجلس الأمن ان يدعو الجمعية العامة للانعقاد في دورة خاصة بصورة عاجلة وذلك للنظر في اقامة وصاية مؤقتة دون اجحاف بحقوق ومطالب ومواقف أي من الفريقين ومن غير اجحاف بطبيعة مستقبل الحل السياسي ، وذلك من شأنه توطيد السلام واعطاء فرصة اخرى للوصول الى اتفاق . ثالثاً : والى ان تتم دعوة الجمعية العامة فان على مجلس الأمن ان يطلب الى لجنة فلسطين الدولية ان توقف مساعيها الرامية الى تنفيذ التقسيم » .

وما ان انتهى المندوب الامريكي من اقتراحاته هذه حتى ثار مندوب الوكالة اليهودية ، وراح يرغي ويزبد منددا بالسياسة الامريكية ، ووصفها بانها تمثل تراجعاً رهيباً مخزياً عن موقفها السابق ، وانها تعد انتهاكاً صارخاً لكرامة الأمم المتحدة واخلالا بميثاقها ، واعلن المندوب اليهودي في ختام كلمته الغاضبة ان الموقف الامريكي ما هو إلا استسلام لبعض الدول الاعضاء الذين هددوا باستعمال القوة (الاشارة الى الدول العربية) .

وتناول الكلام عدد من اعضاء مجلس الأمن ، مؤيدين الموقف الامريكي واقتراحاته وكان من ابرزهم رئيس المجلس ـ مندوب الصين ـ فقد أيد الاقتراحات الامريكية واستشهد بقول لجنة فلسطين الدولية من انه لا يمكن تنفيذ التقسيم إلا بالقوة ، وانه ليس على المجلس ان يستعمل القوة في مثل هذه الحالة . ولم يعارض الاقتراح الامريكي إلا مندوب الاتحاد السوفياتي ـ وكانت هذه احدى زلاته الشهيرة .

واستمر مجلس الأمن يناقش الموقف في فلسطين ، ويتلقى تقارير اللجنة الدولية في القدس وكلها تعرب عن بالغ قلقها ، وتحذر من العواقب والمخاطر ، الى ان حل اليوم الأول من شهر ابريل (نيسان) ١٩٤٨ وكان يوما تاريخياً حقاً في عمر الأمم المتحدة .

ففي ذلك اليوم اصدر مجلس الأمن في جلسته رقم ٢٢٧ قرارا رقمه (١٩٤٨/٤٤) لا بد ان نورد نصه الكامل فيما يلي :

قرار رقم ٤٤ (١٩٤٨) بتاريخ ١ ابريل (نيسان) ١٩٤٨

دعوة دورة استثنائية **للجمعية العامة للنظر في حكومة** فلسطين المستقبلة .

ان مجلس الامن وقد تلقى في ١٩٤٧/١٢/٩ قرار الجمعية العامة رقم ١٨١ (الدورة ٢) بشأن فلسطين المؤرخ في ١٩٤٧/١١/٢٩ .

وقد اخذ علماً بتقريري لجنة فلسطين التابعة للأمم المتحدة الأول والثاني ؟ عن تقدم اعمالهما ، وبالتقرير الاول الخاص عن مشكلة الأمن .

وقد اخذ علماً بالتقارير التي وضعت بشأن تلك المشاورات ، يطلب من السكرتير العام ، وفق المادة ٢٠ من ميثاق الأمم المتحدة ، ان يدعو الى عقد دورة استثنائية للجمعية العامة للبحث مجددا في مسألة حكومة فلسطين المستقبلة .

ووافق مجلس الأمن على القرار المذكور بامتناع كل من الاتحاد السوفيتي واوكرانيا .

وفي السادس عشر من شهر ابريل (نيسان) ١٩٤٨ انعقدت الجمعية العامة في دورة خاصة ، لتبدأ من جديد بحث القضية الفلسطينية ، وتعاقب على المنبر رؤساء الوفود يدلون بآرائهم وكان الكثير منهم يدعو الى البحث عن حل آخر للقضية الفلسطينية غير التقسيم ، واصبحت المعركة الدائرة في قاعة الجمعية العامة مركزة على التقسيم في مبدأه، لا في تفاصيله ، هل يبقى أو يزول ، وقال الكثيرون انه يجب ان يزول .

وقد طرح المندوب الامريكي امام الجمعية العامة مشروعاً للوصاية يتلخص فيما يلي :

اولا : وضع فلسطين تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة .

ثانياً : تتولى هيأة الأمم المتحدة تصريف شؤون البلاد عن طريق مجلس الوصاية الدولي .

ثالثاً : يعين مجلس الوصاية حاكماً على البلاد ، ويخول هذا الحاكم صلاحية تأليف القوات المسلحة وغير ذلك من السلطات .

رابعا:تتكون حكومة البلاد من الحاكم العام ومجلسين حكوميين وهيأة قضائية واخرى تشريعية

خامساً : تكون فترة اعضاء مجلس الشيوخ والنواب لمدة ثلاث سنوات .

سادساً : فيما يتعلق بالهجرة فهناك اقتراحان ، الأول السماح للحاكم العام بتعيين مقدرة البلاد على الاستيعاب والثاني السماح لعدد من المشردين اليهود بدخول فلسطين لمدة عامين فقط .

سابعاً : فيما يتعلق بنظام الأراضي فيخول الحاكم العام صلاحية وضع تشاريع خاصة لضمان حرية انتقال وبيع وشراء الأراضي واستغلالها دون مساس بحقوق أي فريق من السكان .

ثامناً : يتعهد الحاكم العام بضمان سلامة الأراضي المقدسة .

تاسعاً : وفيما يتعلق بمستقبل البلاد فهناك اقتراحان :

الأول ــ يعمل الحاكم العام على تحقيق وصول العرب واليهود الى اتفاق حول مستقبل الحكم فيها ومتى تم الاتفاق ينقل الى الجمعية العامة وتنتهي الوصاية .

الثاني ــ يظل نظام الوصاية ساريّ المفعول ثلاث سنوات ثم يقرر نوع الحكم عن طريق الاستفتاء العام .

هذا وقد اقترح المندوب الامريكي تأليف قوة دولية لفرض الوصاية بالقوة .

الضغوط الصهيونية

وان اقل ما يقال في الاقتراح الامريكي انه سدد « الضربة القاتلة » لقرار التقسيم ، وتأتي اهمية هذه الضربة انها جاءت من الولايات المتحدة نفسها التي كانت قبل اربعة اشهر مضت تقوم باكبر حملة من الارهاب والابتزاز السياسي والاقتصادي للموافقة على التقسيم .

لقد تراجعت امريكا رغماً عن الضغوط الصهيونية الكبرى التي قامت بها في امريكا وفي سائر ارجاء العالم .

ومن هذه الضغوط الكبرى انه في الاسبوع الأول من شهر ابريل (نيسان) ١٩٤٨ انعقد في ميدان ماديسون في نيويورك اجتماع يهودي ضخم ضم ما يزيد على مئة الف ، وخطب زعماء الصهيونية منددين بالسياسة الامريكية ، وكان اشدهم فصاحة في الباطل الحاخام ابا هلل سيلفر ، وكانت الجماهير اليهودية تقاطع خطابه بالهتاف ضد امريكا ، وضد الرئيس ترومان بالذات ، وانضم « ملوك البترول » والاقطاعيون العرب « الى القائمة فكانوا هدفاً للهتافات العدائية » .

وظلت هذه الحملة الضخمة بضعة اسابيع فامتدت الى الصحافة واجهزة الاعلام المختلفة ، ودخلت ابواب الكونجرس ، واعلنت ارملة الرئيس روزفلت استقالتها من الوفد الامريكي احتجاجاً على السياسة الامريكية .

وبعث الزعيم الصهيوني الدكتور وايزمن كتاباً الى الرئيس ترومان يقول فيه « ان عقارب الساعة لا يمكن ان تعود الى الوراء .. الى ما قبل ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ » . وهو تاريخ التقسيم ـ واضاف الى ذلك انه « لا يمكن اعطاء الاستقلال في تشرين الثاني ثم الغاؤه في آذار » .. وفي حديثه مع الوفد الامريكي اعلن الدكتور وايزمن ، انه لا يكترث « بالقوة العسكرية العربية فهذه ما هي إلا اسطورة » .

وكانت الحملة الصهيونية بالغة العنف ، تعبىء كل طاقاتها لتأييد التقسيم ، وكأنها في معركة البقاء والفناء ، ويكفي ان نشير هنا ان الصحافة العالمية قد اصبحت تتحدث عن القضية الفلسطينية ، وكأن قرار التقسيم قد القي في سلة المهملات ، ويكفي ان نشير ان صحيفة متزنة مثل « التايمس » قد كتبت تقول « ان قرار التقسيم قد حكم عليه بالاعدام » وان كاتباً يهودياً معروفاً هو المستر جون كيمشي قد اعلن في كتابه المعروف « الأعمدة السبعة المنهارة » ان الصهيونية « كانت على حافة الهاوية في تلك الفترة الخطيرة » وهذا المؤلف هو كاتب صهيوني في ثياب مفكر يهودي محايد .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الوكالة اليهودية نفسها قد بعثت في شهر شباط فبراير ١٩٤٨ بمذكرة الى مجلس الأمن تشكو فيها من « اعمال الارهاب الفلسطيني العربي » ومذكرة اخرى في شهر آذار مارس ١٩٤٨ تكرر الشكوى من فظائع المنظمات الفلسطينية المسلحة ، وتطالب بانشاء قوة دولية للحفاظ على الأمن والسلام في فلسطين ، ولتسهيل تنفيذ قرار التقسيم .

وازداد الموقف وضوحاً حين مثل رئيس اللجنة الدولية امام مجلس الأمن والقى بياناً مستفيضاً عن الحالة العامة في فلسطين ، وما أفضى اليه قرار التقسيم من اضطرابات وقلاقل ، وأكد في نهاية بيانه ان التقسيم لا يمكن تنفيذه الا بقوة دولية فعالة .

واستمر مجلس الأمن يناقش القضية الفلسطينية على هذا الأساس ، أساس الوصاية بعيدا عن قرار التقسيم ، الى ان انتهى شهر ابريل (نيسان) ١٩٤٨ ، وحل شهر مايو (ايار) ، الشهر الذي بدأت فيه التصريحات العربية تتحدث عن دخول الجيوش العربية الى فلسطين لمقاومة التقسيم ، والحفاظ على الأمن والسلام في فلسطين ، وانقاذ الفلسطينيين من الارهاب اليهودي .

وهذه المرحلة ، مرحلة الجيوش العربية ودخولها الى فلسطين ـ تحتاج الى كتاب كبير يتألف من عدة اجزاء لسرد الصراعات العربية التي كانت تحف بالقضية الفلسطينية وفساد الخطة العربية في تلك المرحلة من البداية الى النهاية .

وكل الذي يهمنا في هذا المقال ان رياح الاطمئنان قد بدأت تدخل الى البيت الأبيض في واشنطن ، والى الأمم المتحدة في نيويورك ، فقد كان معروفاً لدى المراجع العليمة في امريكا ان الدول العربية لا تخوض حرب فلسطين لازالة الدولة اليهودية ، ولا لاحباط التقسيم ولكن « لملء الفراغ » في اراضي الدولة العربية المقترحة ، الفراغ الذي ينشأ بانسحاب بريطانيا من فلسطين .

والنتيجة من هذه الخطة العربية واضحة تماماً انها بكلمة واحدة تنفيذ التقسيم ، والحفاظ على « الأرض » المخصصة للعرب . وكانت هذه الخطة بالاتفاق مع المستر بيفن وزير خارجية بريطانيا كما يتضح ذلك من اقوال « جلوب باشا » قائد الجيش الأردني ـ يومئذ ، في كتابه الشهير ، ولا يستطيع احد ان يطعن فيما كتبه حول هذا الموضوع بالذات . فقد كشف عن اسرار خطيرة بصدد حرب فلسطين . [٣]

وكائنا ما كان الأمر ، فان الخطة العربية ، اذا كانت قد حققت شيئا فانها لم تحبط مشروع التقسيم ، ولا حفظت الارض العربية المخصصة للعرب ، بل انها فقدت كثيرا من المدن والقرى العربية استطاعت اسرائيل ان « تظفر » بها ،وفوق هذا وذاك فقد تضاعف عدد اللاجئين من ربع مليون

---

٣) جندي في الصحراء ، تأليف جلوب باشا ص ٦١ .

فلسطيني قبل تدخل الجامعة العربية ، الى ثلاثة ارباع المليون في نهاية هذا التدخل المشين.

وهذا الاستطراد لا يبعدنا عن موضوع الفرصة الذهبية التي تجلت في عدول امريكا عن التقسيم وجنوحها الى نظام الوصاية الدولية ، فقد كانت هذه الفرصة التاريخية حقيقة ظلت قائمة قرابة ثلاثة اشهر بكاملها ، من فبراير (شباط) الى مايو (ايار) ١٩٤٨ . وظلت المناقشات دائرة في مجلس الأمن والجمعية العامة تدور في هذا الاطار الذي لخصناه . الى ان جاء اليوم الرابع عشر من شهر مايو ١٩٤٨ .

ففي ذلك اليوم التاريخي دخلت الجيوش العربية الى فلسطين ، وكانت الجمعية العامة ما تزال منعقدة لمناقشة القضية الفلسطينية من كل جوانبها . وتلقت الأمم المتحدة في مساء ذلك اليوم رسالة من تل ابيب تبلغ الأمم المتحدة بقيام الدولة اليهودية واعلان الحكومة المؤقتة برئاسة بن غوريون .

ورأت الولايات المتحدة امام الوضع الحرج في فلسطين ، والضغوط الصهيونية الضخمة ، والتراخي العربي في تنفيذ مقررات بلودان التي مضى على صدورها قرابة سنتين كاملتين من غير تنفيذ ، وخاصة فيما يتعلق بالبترول ومنح امتيازات جديدة للدول الغربية ، رأت امريكا ازاء ذلك كله ان لا تتابع موضوع الوصاية – دون ان تسحبه – وان تقدم اقتراحا آخر بتعيين وسيط دولي ، هو الكونت برنادوت ، فوافقت الجمعية العامة عليه تحت رقم ١٨٦/س٢/١٩٤٨ تنص فقراته الرئيسية على تخويل الوسيط الدولي (الكونت برنادرت الذي وقع عليه الاختيار فيما بعد) القيام بمهمة « تشجيع ايجاد تسوية سلمية في مستقبل وضع فلسطين » والعبارة الانجليزية وهي اكثر تحديدا تقول :

«A Peaceful Adjustment of the Future Situation of Palestine».

كما ان القرار قد نص على « اعفاء لجنة فلسطين من الاستمرار في ممارسة مسؤولياتها الواردة في القرار ١٨١ (الدورة ٢) الصادر في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٤٧ » .

ويلاحظ من هذه الفقرة ان قرار التقسيم قد انطوى جانبا بعد ان تم اعفاء اللجنة التي كانت مؤلفة لتنفيذه .

والمواطن العربي يلاحظ كذلك ان هذا القرار كان وسطا بين الموقف اليهودي والموقف العربي ، يعطي الفرصة لتأييد المنتصر ، وأبرز ما فيه انه لم يؤيد قرار التقسيم اطلاقا ، واناط بالوسيط الدولي ان يعمل على « تشجيع الوصول الى تسوية سلمية لمستقبل الحالة في فلسطين » . بل انه اقرب الى الموقف العربي من الناحية النظرية .

ولو ان الجامعة العربية كانت صادقة في مد الفلسطينيين بالسلاح والعتاد ، ونفذت بعض قراراتها السرية ، لبقيت الأمم المتحدة على موقفها من التقسيم ، ومضت في موضوع الوصاية الدولية الى النهاية .

ولكن جاءت الاحداث بعد حرب فلسطين ، وبعد وساطة الكونت برنادوت لتكون لصالح القضية اليهودية . وسقطت الفرصة الذهبية الأولى لتصبح في ذمة التاريخ ، وغدت مهمة الكونت برنادوت الوصول الى تسوية سلمية بين الدولة اليهودية والدولة العربية ، بعد ان كانت في قرار تعيينه الوصول الى تسوية سلمية بشأن « مستقبل الحالة في فلسطين». تلك سيرة الفرصة الذهبية الأولى التي اضاعتها الجامعة العربية ، نضعها امام المواطن العربي بايجاز كئيب حزين .

اما الفرصة الذهبية الثانية فقد كانت مواكبة زمنيا للفرصة الأولى كأنهما توأمان نشأ وماتا في فترة واحدة . وهذه الفرصة الثانية هي الحصار العسكري الذي فرضه المناضلون الفلسطينيون ومعهم المتطوعة العرب على القدس الجديدة ، خارج الأسوار .

حصار القدس

وحينما انبرى المناضلون الفلسطينيون للتصدي الى العصابات اليهودية وضعوا خطة عسكرية لقطع القدس عن تل ابيب والقاء الحصار على السكان اليهود في القدس البالغ عددهم يومئذ مئة الف يهودي . وتنفيذا لهذه الخطة قام المناضلون العرب بالاستيلاء على المراكز الاستراتيجية حول القدس واحكموا الحصار عليها ، وأصبح المئة الف يهودي في كماشة عربية تطبق عليهم من كل جانب ، وقد حاولت القوات اليهودية فك الحصار بهجمات ضارية ، ولكن دون جدوى . فقد استبسل المناضلون العرب رغماً عن عدم التكافؤ بينهم وبين القوات اليهودية ، وأيقن اليهود انهم هالكون لا محالة وانهم ينتظرون مصيرهم اسبوعاً بعد اسبوع ويوماً بعد يوم .

واستماتت القوات اليهودية في محاولاتها اليائسة لفك الحصار عن يهود القدس ، واندفعت القوافل اليهودية من تل ابيب تحمل الى القدس الجديدة المؤن والأدوية والحاجات الضرورية . فكان ان استولى عليها المجاهدون الفلسطينيون ، وما سلم منها فقد عاد ادراجه الى تل ابيب .

وضاقت الحياة على يهود القدس ، وبدأت سلطاتهم المحلية توزع عليهم الماء والغذاء بالبطاقات ، وقامت المظاهرات اليومية في شوارع القدس وميادينها ، وهم يطالبون بوقف القتال ، وقد رفعوا اللافتات تحت عنوان « الخلاص .. الخلاص بأي ثمن » .

ووصل الأمر الى مرحلة الاستسلام ، ولم يبق عند يهود القدس من الماء والزاد الا ما يكفي لثلاثة ايام . وكان طريق الماء الذي يصل الى القدس تحت السيطرة الكاملة للقوات العربية . وأصبح المئة الف يهودي مهددين بالفناء جوعاً وعطشاً .

وغدا زمام الموقف كله بيد المناضلين الفلسطينيين ، يتحدثون من مركز القوة ، ويطلبون الى الوكالة اليهودية ان تعلن الاستسلام من غير قيد ولا شرط .

وليس هذا الحديث من باب التفاخر بالنضال الفلسطيني ، فان المراجع التي سردت وقائع تلك الفترة متوافرة فيما كتبه الدارسون الغربيون ، ناهيك عن المراجع اليهودية نفسها ، ومن ابرزها ما كتبه المؤلف اليهودي جون كيمشي في كتابه الذي اشرنا اليه سابقاً ، فقد اسهب في وصف الضائقة الرهيبة التي كانت تمسك بعنق الطائفة اليهودية .

وشاهد عيان ، هو الاستاذ احمد فراج طايع ، الذي كان يومئذ القنصل العام للمملكة المصرية ، فقد كتب الى القاهرة يقول : « وكان للعرب في القدس ميزة كبرى في صراعهم مع اليهود ، وهي انهم يستطيعون قطع الماء واحكام الحصار عليها من جميع الجهات ، وفي القدس ماية الف يهودي يمكن القضاء عليهم بهذا السلاح الماضي . والعرب لا يتأثرون بقطع الماء عن القدس الا قليلا جدا ، لأن الأحياء العربية تحتوي على آبار تكفي لمعظم السكان العرب بينما لا توجد في الأحياء اليهودية آبار مطلقاً [٤] .

وتدخل مجلس الأمن عدة مرات لانقاذ يهود القدس من الكارثة المحققة التي كانت محدقة بهم ، فأصدر بتاريخ ١٧ ابريل (نيسان) ١٩٤٨ قرارا يدعو الهيأة العربية العليا والوكالة اليهودية الى وقف اطلاق النار ، « وعدم القيام بأي نشاط سياسي يمكن ان يلحق ضررا بحقوق احد الطرفين الى ان تنتهي الجمعية من بحث مستقبل نظام الحكم في فلسطين » . وهذه اشارة واضحة اخرى الى العدول عن قرار التقسيم ، وقد امتنعت روسيا واوكرانيا عن التصويت على هذه الفقرة بالذات .

ونصت فقرة اخرى ، وهذا هو المهم « على صون المرافق العامة الأساسية لا سيما ما يتعلق منها بالنقل والمواصلات والصحة العامة والتموين بالغذاء والماء » .

وقد وافق كل من الاتحاد السوفياتي واوكرانيا على هذه الفقرة « انقاذا لليهود » . ولكنهم

---

٤) صفحات مطوية عن فلسطين ـ احمد فراح طايع ـ ص ٧٧

فشلوا في ادراج فقرة اضافية تنص على « وجوب سحب الجماعات المسلحة التي دخلت فلسطين لمعارضة تنفيذ قرار الجمعية بقوة السلاح ، وتحريم دخول مثل هذه الجماعات » .

ورفض المجاهدون الفلسطينيون من جانبهم تنفيذ قرار مجلس الأمن . ولكن الجامعة العربية وافقت على هذا القرار في ٧ مايو ١٩٤٨ ، وفي الاجتماع المشهور باجتماع اريحا وافق وفد الجامعة العربية على قرار الهدنة بعد تحفظات وايضاحات . وبدأ يهود القدس يتنفسون الصعداء .

ولكن المناضلين العرب رفضوا ان يسيروا في ركاب الجامعة العربية ، وكان رئيس بلدية القدس في ذلك الوقت المستر اسكاراني معيناً من قبل الأمم المتحدة ، فأرسل يستنجد بالملك عبد الله ، ويستغيث بالأريحية العربية والرحمة الاسلامية ، فبعث اليهم برقية يلتمس فيها « اعادة النظر في مسألة تزويد القدس بالمياه لأن ندرة المياه تسبب آلاماً عظيمة لجميع السكان ، كما ان حالة النساء والأطفال والمرضى يرثى لها ، ولهذا فاني ارجو وأقترح على جلالة الملك ان يضرب لمدينة القدس وللعالم اجمع ، مثلا رائعاً ، ويبرهن على ان الارادة والعزم لا تتعارضان مع الشعور الانساني » .

ومن غير دخول في التفاصيل بدأت الفرصة الذهبية الثانية تفلت من يد المجاهدين العرب ، وبالتالي من يد الأمة العربية . فقد كان التباطؤ في تزويد المناضلين العرب بالسلاح من اهم الأسباب في ضياع تلك الفرصة . ويكفي ان يعلم المواطن العربي ان الجامعة العربية التي كانت مجتمعة في القاهرة في ١٦ فبراير (شباط) ١٩٤٨ قد اصدرت قرارا يوصي الحكومات العربية ان تبادر الى تسليم الأسلحة التي سبق ان تعهدت بها ومعها عتادها الكامل ، على ان تكون بقدر الامكان من نوع واحد وصنف جيد ، وكذلك « فانها توصي الحكومات العربية بالسماح للمتطوعين من البلاد العربية والبلاد الاسلامية بالمرور عبر اراضيها » .

هذا القرار وحده كاف لأن يوضح الأسباب التي ادت الى ضياع هذه الفرصة الذهبية من يد الجامعة العربية . فان معناه ان السلاح والذخيرة لم تصل الى الفلسطينيين وهم في معمعان المعارك في فبراير (شباط) ١٩٤٨ ، وقد كان هذا شهر البقاء والزوال بالنسبة للدولة اليهودية .

وكان طبيعيا ان يضعف النضال الفلسطيني ، وان تفتح القوات اليهودية الطريق الى القدس وانقاذ المئة الف يهودي ، وهم في آخر رمق من الجوع والعطش ، بعد ان كان الخطر المحدق بهم اكبر بكثير من دخول الجيوش العربية بعد ذلك في منتصف شهر مايو (ايار) ١٩٤٨ .

وبعد ان ضاعت الفرصة الثانية ، اقبلت الفرصة الثالثة ، تجر اذيالها ، ذلك ان مدينة يافا العربية ، المرفأ التاريخي الشهير ، كانت تمثل شوكة كبرى في ظهر مدينة تل ابيب ، وفيها اكبر تجمع يهودي في فلسطين يناهز ثلث سكان الجالية اليهودية ، وكانت هذه المدينة العربية الباسلة بما حولها من القرى العربية ومعها مدينتا اللد والرملة ، ومطار اللد الشهير ، ذات موقع استراتيجي خطير ، وظل ابطالها يحيطون بمدينة تل ابيب احاطة السوار بالمعصم ، ولم يكن ينقصها الا السلاح والعتاد ، وتقول اوراقي ان اهلها قد امطروا الجامعة العربية بالبرقيات والوفود يطلبون السلاح السلاح . ولكن من غير سميع ولا مجيب .

وقد كان بامكان الجامعة العربية ، كما فعل ابراهيم باشا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، ان ترسل قوات عسكرية الى يافا وبذلك تستطيع القوات العربية الانقضاض على تل ابيب ، ومحاصرتها وتطويقها ، ويكون بذلك القضاء على دولة اسرائيل في المهد . دون ما حاجة الى دخول الجيوش العربية في شهر مايو للقيام بمعركة لم يتوافر لها دليل واحد على نجاحها .

ولكن بدلا عن ذلك كله ، فان العصابات اليهودية هي التي اخذت زمام المبادرة بالنسبة الى يافا ، فاحتلتها قبل دخول الجيوش العربية بأيام معدودات ، وانقذت اليهود في تل ابيب وبالتالي انقذت التجمع اليهودي بأسره ، وبذلك ضاعت الفرصة الذهبية الثالثة على الجامعة العربية .

ويكفى للتدليل على ذهبية تلك الفرصة الذهبية ، ان مناحم بيجن ، رئيس وزراء العدو الحالي ،

قد كشف عنها بنفسه في « يومياته » بعد احتلالها فقال : « قد لا يلاحظ البعض اهمية يافا بالنسبة الينا ، ولكنها من الناحية السياسية والتاريخية ذات اهمية قصوى ، فقد كان على يافا ان ترهب تل ابيب خصوصاً بعد ١٥ ايار فتشل بذلك عمل القوات اليهودية . لقد كانت يافا الاداة الرئيسية لاذلال اليهود ودفعهم الى طلب الحماية البريطانية ، ولكننا افشلنا هذه الخطة في الوقت المناسب . ولقد كان باستطاعة العرب ان يغرقوا يافا بالرجال والعتاد والقنابل لقصف تل ابيب . ثم ان يافا لا تبعد كثيرا عن غزه ، والقوات العربية التي نزلت غزه كانت تستطيع ان تنزل في يافا ، وفي ١٥ ايار لم يكن لدينا طائرات ولا بواخر حربية ».وانهى بيجن كلامه قائلا « لقد انقذ احتلالنا ليافا شعبنا اليهودي من الدمار ، لقد كان احتلال يافا حادثة عظيمة في تاريخ حرب التحرير اليهودية » .

اما الفرصة الذهبية الرابعة التي قذفت بها الجامعة العربية ادراج الرياح فقد كانت سقوط عكا المدينة التاريخية العريقة ، ذات الأسوار المنيعة والأبراج الحصينة ، سقطت تماماً يوم دخول الجيوش العربية الى فلسطين ، بعد ان تعاقب وفودها على دمشق والقاهرة طلباً للسلاح والنجدة ، وبعد ان استنفذ شبابها الأبطال آخر طلقة من ذخائرهم ، وأخر قطرة من دمائهم .

ولو ان الجامعة العربية قد انجدت عكا ، ووصلت اليها بحرا او برا ، وهي على بضعة ساعات من بيروت ودمشق ، لوقعت اسرائيل بين فكي الكماشة ، فك في يافا ، وفك في عكا ، ولكان مصير الدولة اليهودية الى زوال .

ولكن العكس هو الذي جرى ، فكما اخذت القوات اليهودية زمام المبادرة بشأن يافا ، فقد اخذت زمام المبادرة بشأن عكا ـ المدينة الباسلة قاهرة نابليون الذي ارتد عنها وهو يقول « على اسوارك يا عكا اضعت مستقبل حياتي » .

وبسقوط عكا سقط الجليل الغربي بمدنه وقراه العربية ، وسقط « مفتاح سوريا » كما يقول المؤرخون عن عكا « من فتحها فقد فتح سوريا » .

تلك هي مأساة الفرصة الذهبية الرابعة التي اضاعتها الجامعة العربية ، اما الفرصة الخامسة فانها متصلة بحرب فلسطين ودخول الجيوش العربية ، ووقف اطلاق النار الذي عرف بالهدنة الأولى .

ونحن لا نتعرض في هذا المقال لتفاصيل هذه الحرب ، وهي كارثة بذاتها حتى في معزل عن نتائجها ، ولن ندخل في تفاصيلها الموجعة المفجعة ولكننا نقتصر على جانب محدود فيها .

الفرصة الاخيرة

الفرصة الذهبية الخامسة التي اعنيها ، هي وقف اطلاق النار في الهدنة التي قبلتها الجامعة العربية ، فهذه لم تكن فرصة ضاعت على حساب العرب فحسب ، ولكنها انقلبت الى فرصة ذهبية للطائفة اليهودية ، هزمت الجيوش العربية ، واقامت الدولة اليهودية ، واستولت على الاراضي العربية المخصصة للدولة العربية بموجب قرار التقسيم .

وكائنة ما كانت المهزلة المأساة التي اسمها حرب فلسطين ، ودخول الجيوش العربية ومن خلفهم حكام العرب المتباغضون المتحاسدون ، الحاقدون بعضهم على بعض ، المتربصون الدوائر على رفاقهم في المعركة ، فان حرب فلسطين هذه كانت في الاسبوعين الأولين تسير سيرا لا بأس به ، فقد استولت الجيوش العربية على مناطق غير قليلة من فلسطين ، واصطدمت مع القوات اليهودية في معارك ناجحة . وكان قصف الطائرات المصرية لتل ابيب ليلا ونهارا مما اثار الرعب في الجماهير اليهودية . وراح الرأي العام الدولي يترقب نتائج هذه المعركة باهتمام وقلق بالغين . ولم تكن للقوات اليهودية حتى تلك الفترة قوة عسكرية ذات شأن ، فقد كان اثرهم وخطرهم الى ذلك الوقت قاصرا على الأعمال الارهابية ، لا قتال الميدان ، وكذلك فلم يكن بين يدي تلك القوات اسلحة ذات شأن ، وكان الجمهور

اليهودي يسخر من قواته العسكرية ، مستخدماً النكتة الساخرة للتعبير عن مشاعره ، وقد روى الكاتب اليهودي جون كيمشي في كتابه الذي اسلفنا الاشارة اليه ان اليهود كانوا يتندرون قائلين : « عندنا احسن جيش مدرب وطائرات متقدمة ــ ولكن في اوروبا » بينما يقول آخرون « هل تعرفون ان لدينا اسلحة سرية .. انها طائراتنا غير المنظورة » .

وفي المعركة التي خاضها اليهود لفك الحصار عن القدس ، تشكلت قوات يهودية بصورة غير منتظمة ، وكان الكثير منهم لا يتكلمون اللغة العبرية ، وكان الكولونيل ايجال يادين مدير العمليات العسكرية متشائما من نتائج المعركة ، ويرى انه لم يعد مناص من استسلام اليهود في القدس الجديدة بعد ان استسلموا بالقدس القديمة ، وغير ذلك من الوقائع التي اشار اليها المؤلف اليهودي المذكور .

وتقول اوراقي ، وكنت على اتصال وثيق بالعمل العربي في تلك الفترة ، ان اليهود في فلسطين قد بدأوايشكون في جدوى التقسيم ، وفي حكمة السياسة اليهودية برمتها ، وان عددا من اليهود ذوي المعرفة بالشخصيات العربية قد اتصلوا بالمسؤولين في الجامعة العربية بحثا عن حل مقبول يقوم على اساس التعايش بين اليهود والعرب ، وكفى الله الناس القتال .

يضاف الى ذلك ان المراجع الامريكية والبريطانية راحت تعرض حلولا اخرى ، منها تضييق حدود التقسيم بحيث تكون الدولة اليهودية قاصرة على الرقعة الساحلية من حيفا الى تل ابيب .

وعلى العموم فان الخط البياني لحرب فلسطين في مرحلتها الاولى كان صاعدا لصالح الجيوش العربية ، وكان ذلك هو ما اتفقت عليه تحقيقات المعلقين العسكريين.

وتحرك مجلس الأمن ، يبحث الوسائل التي تكفل وقف الحرب ، واعلان هدنة مؤقتة تتيح البحث عن تسوية سلمية . والسجل هنا طويل ومحاضر مجلس الأمن اوسع من ان تتحمل التلخيص .

وصفوة الأمر ان مجلس الأمن اصدر في الثاني والعشرين من مايو (ايار) قرارا يقضي بوقف القتال . وسارعت الوكالة اليهودية الى قبوله بعد يومين اثنين . كما سارعت السفارتان الأمريكية والبريطانية في القاهرة الى الاتصال بالجامعة العربية ووزارة الخارجية المصرية للالحاح بالاذعان لقرار مجلس الأمن ، وما يعقبه من « فوائد » لحل القضية الفلسطينية .

وعقد اجتماع في مكتب وزير الخارجية المصرية احمد خشبة باشا ، حضره ممثلو الدول العربية وقرروا بالاجماع رفض قرار مجلس الأمن وبعثوا بردهم الى المجلس يقولون فيه « انه ليبدو غريباً وشاذاً في المعاملات الدولية ان تعامل القوات النظامية العربية على قدم المساواة مع تلك العصابات الارهابية التي لا تمثل الا اقلية ثائرة تريد ان تملي ارادتها قوة واقتدارا على غالبية السكان في بلاد لا تتسع الى التجزئة والتقسيم » .

وعاد مجلس الأمن الى الانعقاد مرة ثانية ، في السابع والعشرين من شهر مايو ، فأصدر قرارا جديدا يدعو الى وقف القتال لمدة اربعة اسابيع ، « وان على الفرقاء ان يبلغوا مجلس الأمن قبولهم للقرار ، في اول يونيو » .

واجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية في اول يونيو (حزيران) في عمان للبحث في امر هذا القرار الجديد ، وناقش وزراء الخارجية العرب الموقف السياسي والعسكري ، وقد ادلى القادة العسكريون في هذا الاجتماع بآرائهم وخلاصتها كما تقول اوراقي : « انه لا توجد اسباب عسكرية ملحة تلجىء الحكومات العربية الى الموافقة على الهدنة المقترحة لأن الموقف العسكري في فلسطين بوجه عام هو في صالح القوات العربية » .

وكان قد وصل الوسيط الدولي الكونت برنادوت الى عمان ، كما وصل رجال المخابرات البريطانية والامريكية ، وفي مقدمتهم الجنرال كلايتون ، الموجود ابدا في العواصم العربية عند كل

حادث . وبدأت الضغوط الدولية تعمل ليل نهار على اقناع هذه الدولة او تلك ، حتى تفككت عرى التضامن العربي في الجامعة العربية فوافقت دولة على قرار مجلس الأمن ، وقبلت الثانية لأن الأولى قبلت ، وتبعتها الثالثة الى السابعة ، وكل منها تعرب عن قبولها لأن غيرها قد قبل .

ولم يخل الأمر من اصوات معارضة للهدنة ، في مقدمتها امين الجامعة العربية عزام باشا الذي قدم استقالته احتجاجاً ، ثم سوى الأمر بينه وبين رؤساء الوفود العربية .

وهذه الأصوات المعارضة حذرت من ان الهدنة ستكون لصالح اليهود ، عسكرياً وبشرياً . ولم يعترض احد على اقوال المعارضة وأجمعوا انها صحيحة ، ولكن الجامعة العربية كانت اضعف ميثاقاً وهيكلا ، وكانت دولها اضعف وجوداً من ان تتحمل ضغوط الدولتين الديمقراطيتين العظيمتين .

والغريب حقاً ان هذه التحذيرات والمخاوف قد امتلأت بها مذكرة الجامعة العربية التي ارسلتها الى مجلس الأمن . لقد دونتها وسجلتها ، ولكنها قبلت وقف اطلاق النار .

وفجع الرأي العام العربي ، واحراره وقادته المفكرون لوقف اطلاق النار ، بينما تنفس المجتمع اليهودي الصعداء ، كما يقول المؤلف اليهودي جون كيمشي في كتابه [٥] لأن الحرب العربية على حد تعبيره كانت اشد هولا مما كانوا يتوقعون .

وكان وقف اطلاق النار فرصة العمر ، بل فرصة الدهر بين يدي اليهود . فاستغلوها اعظم استغلال خلال الأسابيع الأربعة التي نص عليها قرار مجلس الأمن . بينما انشغل حكام العرب في تطريز برقيات التهاني فيما بينهم تمجيداً للنصر الذي حققته الجيوش العربية في معركة لم تتجاوز ثلاثة اسابيع الا قليلا .

وخلال اسابيع الهدنة ، قامت الدولة اليهودية باعادة بناء قواتها العسكرية ، ويمكن تلخيص المكاسب اليهودية التي تحققت فيما يلي : ـ

١) تشكيل القوات اليهودية من جديد ، بعد ان انضمت اليها اعداد وفيرة من القادة العسكريين والخبراء والفنيين والجنود الذين قدموا من كل انحاء العالم .

٢) احتلال مزيد من الأرض العربية « وتطهير الجيوب » الواقعة وراء الخطوط اليهودية .

٣) اجلاء السكان العرب من المواقع الاستراتيجية .

٤) انشاء طريق « بورما » بين القدس وتل ابيب لضمان السيطرة على القدس ، اقتداء بطريق « بورما » التي انشأها الحلفاء في قلب آسيا لمد روسيا بالمعونات العسكرية

٥) هجرة الألوف من يهود اوروبا ومعظمهم من القادرين على حمل السلاح .

٦) الحصول على كميات وافرة من الأسلحة والذخائر من اوروبا وامريكا ، ومنها الطائرات والمدافع والقطع البحرية .

لقد فعلت اسرائيل هذا على مرأى ومسمع من الجامعة العربية والأمم المتحدة والكونت برنادوت رغماً عن الحظر الذي نص عليه مجلس الأمن . وقال المؤلف اليهودي جون كيمشي تبريرا لذلك « لو التزم اليهود بنصوص قرار مجلس الأمن لكان ذلك يعني نهاية الحرب بالنسبة لاسرائيل . ان الوضع العسكري كان من الوضوح لدى كل يهودي في فلسطين وخارجها ، بحيث لم يكن هناك شك للحظة واحدة بأن مخالفة قرار مجلس الأمن كان لا بد منه . فقد كان الأمر مسألة حياة او موت بالنسبة لاسرائيل » [٦] . ومعنى ذلك بكلمة واحدة انه لولا الهدنة لكانت « الدولة اليهودية » في ذمة التاريخ .

---

٥) كتاب الاعمدة السبعة المنهارة ص ٢٤٠

٦) نفس المرجع ص ٢٤٩

وقد علمت الجامعة العربية بهذه الاختراقات اليهودية الخطيرة فبعثت الى الكونت برنادوت مذكرة بهذا الشأن بتاريخ ٣ يوليو (تموز) ١٩٤٨ جاء فيها ما يلي : ـ

« لقد كان متفقاً عليه ومقرراً ان تنفذ شروط الهدنة تنفيذاً دقيقاً لا يترتب عليه اي تغيير في مركز الجانبين كما كان عليه وقت وقف اطلاق النار يوم ١١ يونيو بحيث لا يستفيد احد في هذه الفترة على حساب الآخر . ولكن الطرف الآخر قد امعن في خرقها وانتهاكها المرة بعد المرة كما نبهت الدول العربية جنابكم الى ذلك ، واستمر في جهات متعددة يرتكب اعماله العدوانية الاستفزازية ، ولا شك ان رقباءكم سجلوا جميع هذه الاعمال التي استفاد منها الطرف الآخر ، وجعلت فترة وقف اطلاق النار تعود عليه بالفائدة ، كما انه ادخل الى فلسطين العديد من المهاجرين القادرين على القتال والكثير من الأسلحة والعتاد ، واخذ في تدعيم مراكزه واحتلال بعض المواقع الاستراتيجية وفي تموين قواته المحاصرة . كما ان اليهود قاموا بهجمات محلية متكررة على كافة قطاعات الجبهة ، كما قامت طائراتهم باستطلاعات مستمرة فوق مواقعنا العسكرية . وقام اليهود خلال هذه الفترة بتطهير جيوب المقاومة الكائنة في مناطقهم . وكان ابرز خرق للهدنة قام به اليهود هو هجماتهم المتكررة التي بدأت في ١٦ يونيو على عدد من القرى العربية وتمكنوا من احتلالها وتدميرها وطرد سكانها » .

والغرابة الكبرى ان هذا البيان ، والبيان السابق بقبول وقف اطلاق النار ، كانا بارعين كل البراعة في بيان اخطار وقف اطلاق النار ، وما سيؤدي اليه من المزايا العسكرية للدولة اليهودية . ومع ذلك فقد قبلت الجامعة العربية بوقف اطلاق النار ، تماماً كمن يستيقظ مبكراً لتنفيذ حكم الاعدام .

وكان ذلك هو الاعدام لحرب فلسطين ، والاعدام لاهداف الجامعة العربية ومقرراتها في تلك الفترة ، فما ان استؤنف القتال بعد انقضاء الهدنة الأولى حتى انطلقت القوات اليهودية تضرب بيد فولاذية في جميع الجبهات فوطدت سيطرتها على جميع الأراضي المخصصة للدولة اليهودية ، واخترقت الخطوط العربية ، فاحتلت العشرات من المدن والمئات من القرى العربية التي كانت مخصصة للدولة العربية ، وفي مرحلة تالية اخترقت صحراء النقب بكاملها الى شواطىء البحر الأحمر ، واستولت على اواسط فلسطين حتى وصلت الى اسوار بيت المقدس ، ثم بسطت يدها على الجليل الغربي ومنها نفذت الى الأرض اللبنانية واحتلت بضعة قرى لبنانية على الحدود . واستقر الأمر في النهاية على توقيع هدنة عربية يهودية ، فرض الغالب فيها شروطه على المغلوب .

وبهذا توطدت دعائم الدولة اليهودية ، وتكاثرت الاعترافات الدولية بها ، وقبلت عضوا في الأمم المتحدة ، والمواطن العربي يعرف بقية القصة الى يومنا هذا .

وهكذا اضاعت الجامعة العربية خمس فرص ذهبية : الوصاية الدولية التي اقترحتها امريكا ، الحصار العسكري على المئة الف يهودي في القدس الجديدة ، سقوط يافا بيد القوات الاسرائيلية وسقوط عكا ، وأخيرا الهدنة الأولى التي توقف فيها القتال لمدة اربعة اسابيع .

وكانت اي من هذه الفرص كافية للقضاء على الدولة اليهودية ، او للوصول الى حل مرحلي مقبول يبعد عن الامة العربية هذه السلسلة الطويلة من الحروب والكوارث التي وقعت فيها الامة العربية في الثلاثين عاما الماضية .

تلك هي مسؤولية الجامعة العربية العظمى نسردها اليوم لا لنستعرض احداثا تاريخية مضت وانقضت ، ولكننا اردناها ان تكون مؤشرا صارخا صائحا يدعو الأمة العربية وحكامها المعاصرين الى بناء الجامعة العربية من جديد ، ميثاقا وهيكلا واختصاصا وسيادة . ذلك ان الجامعة تلك ، صاحبة الهزيمة الكبرى اياها ، ما تزال قائمة الى يومنا هذا بكل سيئاتها ، وبميثاقها الهزيل .

ليس هذا فحسب بل ان سيئاتها قد ازدادت ضخامة ، بضخامة هياكلها المبعثرة ، ومؤسساتها المفككة ، كما تعمقت التجزئة بين دولها بعد ان تجاوز اعضاؤها ، عشرين دولة انفصالية ، تتعامل فيما بينها ، تعامل الدول الاجنبية بعضها مع بعض .

ولا بد للأمة العربية ان تقضي على هذه المآسي بالاصلاح ، او بالثورة ، اذا عجز الاصلاح .

الاسلام : الثورة الاجتماعية

الدكتور محمد عمارة

دكتوراه في العلوم الاسلامية من جامعة القاهرة . درس وحقق الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني ورفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وقاسم امين وعلي مبارك وغيرهم . والف خمسة وعشرين كتابا في الفكر السياسي والاجتماعي والتاريخ والفلسفة . وله عشرات البحوث في المجلات الفكرية المختصة في مصر ولبنان والعراق والكويت وقطر وليبيا .

في الجانب الديني ، وبالذات : الألوهية ، والنبوة ، وعالم الحساب والجزاء ، جاء الاسلام مصدقا لما بين يديه من الرسالات السابقة ، فقط صحح ما طرأ عليها واصابها من انحراف ، ابرزه انحرافها عن نقاء عقيدة التوحيد ، ذلك ان دين الله واحد منذ اتصلت بين السماء والارض أسباب الوحي الى الرسل والانبياء . ومن ثم فان الذي بشر به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، لم يكن دينا محمديا . اما في الجانب التشريعي ، وعلى جبهات : تحرير الانسان ، واوضاعه الاجتماعية والسياسية ، فنحن إزاء شريعة محمدية جديدة ، لأنه اذا كان دين الله واحدا فان شرائعه ــ بمعنى مناهجه وطرقه الموصلة الى تحقيق غايات دينه الواحد ــ متعددة بتعدد الرسل والانبياء للتعدد والاختلاف القائم في مجتمعات هؤلاء الرسل والأنبياء ، وعصورهم .

ولقد جاء الاسلام ختاما لرسالات السماء ، وايذانا بانتهاء «الوحي» المتجدد ، لأن البشرية قد بلغت سن رشدها ، وأصبحت ، في امور معاشها ، قادرة على الاسترشاد بعقلها ، على ضوء الاطر العامة والقضايا الكلية التي اوصى بها الوحي في هذه الامور . ومن ثم فلقد كان الاسلام ، كشريعة للدنيا ، وكفلسفة تفسر لانسانه هذا الكون الذي يعيش فيه ، طورا جديدا ، غير مسبوق ، من الرسالات الدينية القديمة ، بل وثورة استهدفت احداث تغيرات جذرية عميقة في واقع الحياة التي ظهر فيها ، وعقل الانسان الذي قرعت آذانه آيات كتابه الكريم .

الانسان والكون

كانت الطبيعة ، في كثير من مظاهرها وظواهرها ، لغزا غير مفهوم للانسان العربي ، بل ولا لغيره ، على امتداد تاريخ طويل . ولقد دفع هذا العجز ، الذي لازم الانسان ، عن فهم الكثير من هذه الظواهر الطبيعية الى ان خاف الانسان تلك الظواهر ، وارتعدت منها فرائصه ، ثم حاول استئناسها بالقرابين ، ثم جعل منها آلهة عبدها من دون الله ، او وسائط يتقرب بها ، زلفى ، الى الله . عبد الشمس ، وعبد القمر ، وعبد النجوم ، وعبد الليل والنهار ، وعبد البحر ، والنهر ، والجبل ، وعبد ، او قدس ، القوي او النافع من الحيوان . وقدم القرابين والصلوات للرعد والبرق والمطر ، وللجن ، وغير ذلك مما عجز عن تفسيره من مظاهر الطبيعة وظواهرها .

فماذا أحدث الاسلام من ثورة على هذه الجبهة ؟ وما هو التغيير العميق والجذري الذي انجزه في حقل تصور الانسان العربي للكون ، وعلاقته بالطبيعة وموقفه من قواها وظواهرها ؟

لقد قرر الاسلام : « تكريم » الانسان على ما عداه من مخلوقات هذا الكون . كما قرر « تفضيله » على هذه المخلوقات (ولقد **كرمنا** بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات **وفضلناهم** على كثير ممن خلقناه تفضيلا) [١] . ولكنه لم يقف عند حدود (التكريم) و « التفضيل » . بل قرر ان الانسان هو «سيد » الطبيعة ، وان هذه الظواهر الطبيعية التي طالما رهبها حتى عبدها انما هي « مسخرة » له ، بل انها لم تخلق الا لتكون « مسخرة » لهذا الانسان ! فهنا ثورة ، وانقلاب جذري في العلاقة بين الانسان والطبيعة يحدثهما ذلك التصور الجديد الذي يقدمه الاسلام عن الكون للانسان العربي والمسلم ، بل لكل انسان .

وفي كثير من سور القرآن الكريم تلح آياته على تقرير هذا المعنى ، وتغرس في نفس الانسان وعقله هذا التصور الجديد الذي يحرره من العبودية ، عبودية الطبيعة وظواهرها ، وينقله الى مكان « السيد » الذي ما خلقت هذه الطبيعة وظواهرها الا لخدمته وتحقيق الشروط الضرورية لرقيه وانسانيته .

(الله الذي خلق السماوات والارض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . **وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره ، وسخر لكم الانهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار**) [٢] .

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بامره ، ان في ذلك لايات لقوم يعقلون) [٣]

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) [٤] .

(**الم تر أن الله سخر لكم ما في الارض** والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء ان تقع على الارض الا بأذنه . ان الله بالناس لرؤف رحيم) [٥] .

(الم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الارض واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) [٦] .

(**الذي جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا** لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا . كذلك تخرجون . والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون . لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي **سخر لنا هذا** وما كنا له بمقرنين) [٧] .

(الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . **وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض** جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [٨]

(**وسخرنا مع داود الجبال والطير** وكنا فاعلين) [٩] .

(واذكر عبدنا داود ذا الايد ، انه أواب . **انا سخرنا الجبال معه** يسبحن بالعشي والاشراق . **والطير محشورة كل له أواب**) [١٠] .

(ولسليمان الريح عاصفة **تجري بامره** الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين) [١١]

(**فسخرنا له** [١٢] **الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب . والشياطين كل بناء وغواص . واخرين مقرنين في الاصفاد**) [١٣] .

(والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير . فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع المعتر . **كذلك سخرناها لكم** لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . **كذلك سخرها لكم** لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين)[١٤] .

وهكذا .. لم يكتف الاسلام بتكريم الانسان ، وبتحريره من قيود الرهبة من الطبيعة واسار

---

(١) **الاسراء** : ٧٠ .
(٢) **ابراهيم** : ٣٢ ، ٣٣ .
(٣) **النحل** : ١٢ .
(٤) **النحل** : ١٤ .
(٥) **الحج** : ٦٥ .
(٦) **لقمان** : ٢٠ .
(٧) **الزخرف** : ١٠ ــ ١٣ .
(٨) **الجاثية** : ١٢ ، ١٣ .
(٩)**الانبياء** : ٧٩ .
(١٠) ص : ١٧ ــ ١٩ .
(١١) **الانبياء** : ٨١ .
(١٢) اي لسليمان .
(١٣) ص : ٣٦ ــ ٣٨ .
(١٤) **الحج** : ٣٦ ، ٣٧ .

العبودية لها ، بل لقد ارتفع بمستوى تحريره الى الحد الذي قرر فيه أن هذه الطبيعة وقواها وظواهرها انما هي جميعا مسخرة لهذا الانسان .

الفرد والقبيلة

قبل ثورة الاسلام كان مجتمع شبه الجزيرة العربية لا يقيم وزنا لفردية الفرد بجانب القبيلة التي ينتسب اليها . فالقبيلة هي الوحدة التي يبدأ منها التنظيم الاجتماعي لبناته ، بل والتي ينتهي اليها هذا البناء . كانت وحدة متحدة ، لها ، من دون الفرد ، الشخصية الاعتبارية ، وكل الحقوق ، وعليها ، دون الفرد ايضا ، تقع الواجبات والتبعات التي تترتب على الفرد من افرادها . ولم يكن التضامن القبلي داخل القبيلة تعبيرا عن رقي في سلم التضامن والترابط بين الفرد والباقين من قبيلته بقدر ما كان تعبيرا عن تخلف التنظيم الاجتماعي عن الاعتراف لهذا الفرد بأية ذاتية مستقلة بجانب ذاتية القبيلة وشخصيتها المنفردة بالاعتبار والنفوذ . فالملكية لها ، والشرف لها ، وكل الحقوق لها ، والعار عليها ، والنقيصة لها ، وجميع المغارم تلزمها ، ولا اعتبار للمسئولية الفردية على اي فرد من افرادها . كانت ذاتية الفرد ضئيلة ومتضائلة وذائبة في الشخصية العامة لقبيلته التي ينتسب اليها .

ولكن ثورة الاسلام جاءت فأبرزت ذاتية الانسان الفرد على حساب ذاتية القبيلة ، ابرزتها ، في البداية ، في اطار القبيلة ثم حثت على اذابة ذاتية القبيلة في اطار الامة القومي ومحيط الدولة العام . وهي قد فعلت ذلك عندما قررت للانسان الفرد حريته واختياره ، بعد ان كانت جبرية العرب في الجاهلية تحد من نطاق ذاتية الفرد ونموه الى حد كبير ، وبعد ان رتبت على حريته واختيارهمسؤوليته الفردية والتزامه المستقل عن ما قدمت وتقدم يداه . ولقد بدأت ثورة الاسلام تقرير هذه المسؤولية الفردية ونلك الالتزام الفردي المستقل بميدان الافعال والتكاليف الدينية وما يتعلق بها ويتصل من الاعمال شبه الاجتماعية ، حسنات كانت ام سيئات ، ثم اتسع هذا النطاق شيئا فشيئا حتى تقلصت ، بالتدريج ، هيمنة القبيلة لحساب المسؤولية الفردية والالتزام الفردي المستقل للانسان .

فجميع التكاليف ، التي هي فروض عين ، فردية ، تجب على الفرد ولا يجزيه عنها التزام قبلي او غير قبلي . وتبعا لذلك فان مسؤوليته عنها وحسابه عليها وجزاءه فردي كذلك ، فعليه ، وحده ، القصاص اذا قتل ، وليده ، وحده ، القطع اذا سرق ، وهو ، وحده ، المجلود اذا زنى .. الخ. وحتى فاطمة بنت محمد ، عليه الصلاة والسلام ، يقول ابوها ، في معرض تقرير المسؤولية الفردية ، والمساواة والصرامة في تقريرها انها لو سرقت لقطعت يدها [١٥] . وحتى بنو هاشم وآل بيت الرسول يقرر الرسول ان المسؤولية الفردية هي حجر الاساس في علاقة كل واحد منهم بالتنظيم الاجتماعي الجديد ، فينهاهم عن الاعتماد على علاقات النسب التي تربطهم به : « لا يأتي الناس بأعمالهم وتأتوني باحسابكم » .

فكانت تلك واحدة من انجازات ثورة الاسلام على درب تحرير الانسان العربي .

الانسان والقدر

وكانت جبرية العرب في الجاهلية ، عندما تنسب عمل الفرد الى القدر ، خيرا كان هذا العمل او شرا ، تسهم في تحديد نطاق فردية الفرد وتحد من حريته الى حدكبير.وجاءت ثورة الاسلام فلم تقف عند حدود تحرير الانسان الفرد من سلطة القبيلة الطاغية وتخليصه من الذوبان في محيطها ، لانها ، بتقريرها حريته واختياره ومسؤوليته ، قد جعلت ذاته ، كفرد ، اللبنة الاولى والمستقلة في التنظيم الاجتماعي الجديد .

---

(١٥) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه الدارمي وابن حنبل .

ولقد زادت هذه الثورة من حجم انجازها التحريري هذا ومن قيمته عندما رفعت من قدر الانسان وأعلت من شأن حريته وارادته وفعله حتى عندما يكون الحال بازاء ارادة الله سبحانه وتعالى وقضائه وقدره . صحيح ان التوحيد الاسلامي يعني العبودية التامة من الانسان لله ، وصحيح ان الاسلام يعني ، اول ما يعني ، اسلام الوجه اسلاما كاملا للخالق سبحانه ، وصحيح كذلك ان صفات الله ، في الاسلام ، تجعله : القاهر ، والجبار ، والمهيمن ، والمتكبر ، والفعال لما يريد . ولكن هذا التوحيد الاسلامي ذاته قد حرر ذات الانسان من العبوديةللآلهةوالقوى والطواغيت المادية الكثيرة التي كانت تستعبد روحه وتستذل ذاته وتنتقص من حريته قبل التدين بعقيدة التوحيد . ثم ان « التنزيه والتجريد » الذي قرره الاسلام بالنسبة للذات الآلهية جعلنا امام وضع جديد تقرر فيه : **التحرير الكامل والحقيقي** للانسان من استعباد **القوى المادية** التي كان يرهبها وتتحكم فيه ، **والعبودية لذات الهية يجعلها التصور التنزيهي اقرب الى القانون الاكبر والعقل العام للكون ويدخل بها في اطار التجريد** . وفي هذا التحول انجاز على جبهة تحرير الانسان .

ويؤكد هذا المعنى ويبرزه ان الاسلام عندما قرر الكثير من الحقوق المتعلقة بالدنيا ، للذات الالهية ، نراه ، بسبب من « التوحيد والتنزيه » يعود ، في الواقع العملي ، الى جعل هذه الحقوق من نصيب الانسان .

* فالفقه والشريعة يقرران ان « **حق الله** » هو « **حق المجتمع** » . والمجتمع هو مجموع الافراد الذين يعيشون فيه .

* والفقهاء يقررون : ان ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن . فيضعون مبدأ : ان ارادة الشعب هي ارادة الله في صورة قانون اسلامي عام وقاعدة فقهية مقررة .

* والرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يقرر في حديثه ، الذي يرويه انس بن مالك : « ان أمتي لا تجتمع على ضلالة »[١٦] ، وفي الحديث الذي يرويه ابن عمر : « ان الله لا يجمع أمتي على ضلالة »[١٧] . يقرر مبدأ : عصمة الامة ، وهي غاية ما تقرر ويتقرر في الفكر من اعلاء لقدر حرية الانسان .

* ثم يبلغ الرسول بتحرير الاسلام للانسان القمة عندما يقول : « ان من عباد الله من لو اقسم على الله لأبره »![١٨] .

فباستطاعة الانسان ، اذن ، ان يصل بسلطته وسلطانه الى الحد الذي لو اقسم فيه على الله لأبره الله ! لان هذا الانسان باكتشافه قوانين الكون وسنن الله فيه ، وبسيطرته على هذه القوانين وتلك السنن يصبح حاكما غير محكوم ، لان اكتشافاته هذه وسيطرته تلك هي كنه ما يريده الاسلام ويعنيه من وراء : الاقتراب من الله ، والتشبه به ، والاتصاف بصفاته ، فالله هو قانون الكون الاعظم ، وطاعة الانسان لهذا القانون الاعظم تعني الاتصاف بصفاته والتسلح ببعض قدراته ، الى الحد الذي يسخر فيه القوى الطبيعية بالسيطرة على ما يحكمها من قوانين : من اطاعني كنت يده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وعينه التي يبصر بها ، واذنه التي يسمع بها ! يا عبدي اطعني تكن ربانيا تقول للشيء : كن فيكون .

هكذا بلغ الاسلام الغاية من حرية الانسان وتحريره ، حتى بالقياس الى القدر والى الجبروت والسلطان اللذين اختص بهما الحق ، تبارك وتعالى ، نفسه وذاته .

تحرير المرأة

ولقد اولى الاسلام تحرير المرأة ، من قيودها القديمة والتقليدية عناية خاصة . ولم يقف عند ما تقرر لها مع الرجل ، كانسان ، لان قيودها الخاصة دعته الى ابراز ما قرر لها من حقوق وحريات .

---

(١٦) رواه ابن ماجه .
(١٧) رواه الترمذي ، وابن حنبل .
(١٨) رواه البخاري ومسلم وابو داود والترمذي والنسائي وابن حنبل .

فلم تعد ــ خلافا لما كانت عليه قبل الاسلام ولما عاد فقرر عليها فقهاء عهود الحريم والعصور الوسطى ــ مجرد متاع للرجل واداة للهوه واستمتاعه . وانما ارتقى الاسلام بنوع العلاقة الانسانية والاجتماعية التي تربطها بالرجل . فعلاقة المودة والبر بين الام وولدها يعلو سلطانها على سلطان الدين والاتفاق في المعتقد (ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، وان جاهداك لتشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما)[١٩] . (وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) [٢٠] . وعلاقة المرأة الزوجة بالرجل الزوج هي : المودة والرحمة ، بل انها هي السكن الذي يسكن اليه في هذه الحياة . (ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) [٢١] . وفي الحقوق والواجبات تستوي المرأة بالرجل في نظر الاسلام (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) أما « الدرجة » التي أعطاها الاسلام للرجل على المرأة بقول قرآنه في آية المساواة هذه : (وللرجال عليهن درجة) [٢٢] فانها تقف عند تقرير ضرورة اعطاء العنصر الاكثر خبرة ووعيا وامكانية وتمكنا حق الفصل في المشكلات التي تأهل اكثر من سواه للقول الفاصل فيها [٢٣] .

صحيح ان الاسلام يقرر للانثى ، في حالات معينة ، نصف ما للذكر من نصيب في الميراث ، ولكن هذا التمييز المالي لا يعكس انتقاصا من حرية الانثى وحقوقها ، بل لا نغالي اذا قلنا انه ، هنا ، يزيدها تكريما وتحريرا . فهو قد قرر لها الشخصية المالية المستقلة ، ثم تبنى عرف العصر الذي ظهر فيه ، الذي ألزم الرجل وحده بالتبعات المالية اللازمة للأسرة ، ذكورا واناثا . فكأن ما زاد في نصيبه من الميراث انما رصد لينفق منه على الانثى التي ألزمه الشرع بالانفاق عليها ، اما نصيبها هي فانه قد تقرر لها دون الزام عليها بالانفاق منه في شركة الزوجية .

ولم ينظر الاسلام ، كموقف عام وثابت ، الى التمييز بين الناس في الامور المالية كمعيار للتمييز بينهم في القدر والقيمة ودرجة الحرية . فالرسول ، عليه الصلاة والسلام، وابو بكر الصديق كانا يلتزمان التسوية بين المسلمين في « العطاء » ، باعتباره « معاشا » لا علاقة له بالاقدار والمراكز والمفاضلات . ثم جاء عمر بن الخطاب فميز بين الناس في « العطاء » عندما توفرت الاموال وكثرت بعد الفتوحات . ثم عاد علي بن ابي طالب الى نظام التسوية . وعلى عهد الرسول كانت « الحاجة » تحكم ، في احيان كثيرة ، مقادير الانصبة في توزيع الغنائم ، دون ان يكون للتمييز والتمايز المالي اية علاقة بالاقدار والمراكز الخاصة بالصحابة الذين تفرض لهم السهام في هذه الاموال . ولقد اعطى الرسول المهاجرين الفقراء غنائم هوازن ــ يوم حنين ــ ولم يعط الانصار ــ الا رجلين فقيرين منهم ــ بل لقد اعطى « المؤلفة قلوبهم » ، من هذه الاموال ما لم يعطه لأحد من الذين سبقوا الى الاسلام وصنعوا بتضحياتهم دولته وانتصارات دعوته وعقيدته ــ فالتمييز المالي للرجل في الميراث ، امر من امور المعاش ، لا ينهض دليلا على انتقاص ما قرر الاسلام للمرأة من حرية ، وما شرع لها من مساواة بالرجل .

وصحيح أن القرآن الكريم يقرر في احدى آياته أن شهادة امرأتين تعدلان شهادة رجل . ولكن المتأمل والمتدبر لهذه الآية يدرك أنها قد راعت تلك المرحلة التطورية التي كانت تمر بها المرأة يومئذ ، وهي مرحلة كانت محرومة فيها من خبرات المعاملات المالية التجارية المعقدة ، بسبب حرمانها من الشخصية المالية المستقلة ، فجاء القرآن ، مراعاة لتخلفها في هذا الميدان ، ليقرر ان شهادتها في الدين ــ (بفتح الدال المشددة) ــ الذي يحتاج اثباته الى دليل كتابي لا تساوي شهادة الرجل . فليس في الامر انتقاص من قدرها وحريتها ، وانما فيه موقف واقعي يلائم بين الحق وبين الامكانات ، وهي علة وقصد يفتح باب التطور والتنمية للحق بتطور الامكانات ونموها . ثم هل يستوي الرجال في الذاكرة والتذكر وفي الامكانات والقدرات ؟ انهم لا يستوون ، ومن ثم تتفاوت حقوقهم دون ان يعني هذا التفاوت انتقاصا من مساواتهم في الحرية التي قررها لهم الاسلام .

---

(١٩) العنكبوت : ٨ .
(٢٠) لقمان : ١٥ .
(٢١) الروم : ٢١ .
(٢٢) البقرة : ٢٢٨ .
(٢٣) انظر **الاسلام والمرأة في رأي الامام محمد عبده** ص ٦٢ ، ٦٣ دراسة وتحقيق د. محمد عمارة طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م .

تلك هو موقف الاسلام من التمييز بين شهادة الرجل وشهادة المرأة في ذلك الموطن المحدد والخاص من مواطن الاشهاد . ويتأكد هذا الذي نقول اذا نحن تدبرنا آيات القرآن التي تتحدث عن هذه القضية فتقول : (يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين ، من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء **ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى** ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى أجله ، ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى الا ترتابوا ، الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها ، واشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم)[٢٤].

فليس في الامر **تمييز طبيعي ودائم** ولا تمييز مطلق ينقص من قدر المرأة وما قرر لها الاسلام من حرية ومسؤولية وحقوق .

تحرر من العصبية القبلية

كذلك كانت ثورة الاسلام تحريرا للانسان العربي من قيد العصبية القبلية الضيق وأفقها المحدود ، وانطلاقا به الى اطار القومية ذات المحتوى الانساني والصبغة الحضارية . فبعد ان كانت القبيلة هي الوحدة التي تنتهي عند حدود نسبها روابط الولاء وتبعاته ، اصبحت هذه القبيلة ، منذ دستور دولة المدينة ــ الذي عرف بـ « الصحيفة » وبـ « الكتاب » ــ اللبنة الاولى في الكيان القومي العربي الموحد ، والذي كان بمثابة الوجه الثاني لعملة واحدة ، وجهتها الاولى : التوحيد ، في الدين ، لذات الاله ، فلم تعد القبيلة هي نهاية المطاف ، اداريا وسياسيا واجتماعيا ، بل غدت الوحدة الأولية في الجماعة القومية العربية التي وحدتها ثورة الاسلام ودولته .

بل لقد خطا الاسلام الى أفق أبعد ، وخاصة بعد فتوحات اهله التي حررت الشرق من البيزنطيين ومن الاسرة الساسانية الفارسية ، عندما دعا **قبائل** العرب الى الاندماج في **الشعوب** التي فتحت بلادها ، باعتبار ذلك تحقيقا لقول الله في قرآنه الكريم : (يا ايها الناس انا خلقناكم **شعوبا وقبائل** لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير)[٢٥] . كما جاءت سنة الرسول ، العملية والقولية ، لتضع لهذا التوحد القومي مضمونا انسانيا وحضاريا وفكريا يبتعد به عن العرق وعصبيته كما ابتعد به عن القبلية وتعصبها . فليس يخفي السر الذي جعل تجربة دولة المدينة تبرز ضمن قادتها وقيادتها قادة مثل : بلال الحبشي (٢٠ هـ ٦٤١ م) كرمز لالتحام الموالي والرقيق ذوي الاصول الافريقية السوداء في الجماعة القومية العربية ، عن طريق علاقة « الولاء » التي ربطتهم بالقبائل التي كانوا لها عبيدا قبل ان يحررهم الاسلام . و « الولاء » ــ كما قررت السنة النبوية ــ « لُحْمة كلُحْمة النسب »[٢٦] .

وكذلك كان الحال بالنسبة لقيادة : صهيب الرومي (٣٢ ق هـ ــ ٣٨ هـ ٥٩٢ ــ ٦٥٩ م) وسلمان الفارسي (٣٦ هـ ٦٥٦ م) ذلك أن مكانة هؤلاء القادة ، المنحدرين من أصول عرقية غير عربية ، والذين تعربوا بالحضارة والولاء ، ان مكانتهم في المجتمع الجديد ، وكانت عالية ، انما تعكس وتعبر عن تلك الروابط التي ضمت هذه الجماعة القومية الجديدة ، على اختلاف اصولها العرقية والجنسية . فهم لم يكونوا مجرد « مؤمنين اتقياء » وانما كانوا رموزا لاعداد متنامية اخذ الاسلام يحررها بالطريق التدريجي الذي سلكه لتصفية نظام الرقيق-طريق : الحصر والتضييق لمصادر الاسترقاق ، والتوسع في الاسباب التي تفك عن الارقاء قيود الاسترقاق . والرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يبرز وزن هذه القيادات في تجربة الدولة القومية عندما يقول : « أنا سابق العرب ، وصهيب

---

(٢٤) البقرة : ٢٨٢ .
(٢٥) الحجرات : ١٣ .
(٢٦) رواه الدارمي .

سابق الروم ، وسلمان سابق فارس ، وبلال سابق الحبشة » .

ولقد جاءت السنة القولية لتحدد وتؤكد ذلك المحتوى الحضاري ، اللاعرقي ، لهذه الوحدة القومية الجديدة ، عندما قررت على لسان الرسول ، عليه الصلاة والسلام : ان « ليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وانما هي اللسان ــ (اللغة بالمعنى الحضاري الواسع) ــ فمن تكلم العربية فهو عربي » .

فكان ذلك انجازا كبيرا على درب تحرير الاسلام للانسان ، بثورته التي تجاوزت آفاق العصبية القبلية الضيقة الى رحاب الأفق القومي الواسع والمستنير .

ثورة اجتماعية كبرى

وفي قضايا الثروة والمال والاقتصاد ــ (المسألة الاجتماعية) ــ كانت ثورة الاسلام اوضح ما تكون واعمق ما تكون . والاسلام ، كدين ، ومن خلال كتابه الكريم وسنته التشريعية العامة ، لم يحدد لمستقبل المسلمين نظرية اجتماعية بعينها ولم يشرع لمجتمعهم تشريعا اقتصاديا دائما بذاته ، لانه ، وهو خاتم الرسالات ، والمقرر ان لله في كونه سننا ، منها سنة التطور والتحول والتغيير ، ما كان له ان يضع القيود المسبقة على المصالح المتجددة والمتغيرة ، خصوصا وهو الذي قرر ، كما أشرنا ، الى ان ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ! ولكنه ــ في المسألة الاجتماعية ــ **وضع فلسفة للتشريع ، ولم يضع تشريعا ، ودعا الى معيار توزن به الامور عندما تتعارض المصالح والرغبات ، وقرر أطرا عامة حث على ان تتم الحركة في داخلها ثم ضرب الامثلة التشريعية للواقع الذي ظهر فيه ، توضيحا وتقنينا ، ثم جاءت تجربة دولة الخلافة الراشدة فطورت بعض هذه الأمثلة التشريعية وعدلت بعض هذه القوانين ، فكان ان ثبت بالقطع ان الاسلام ، كدين ، قد وقف عند تقرير فلسفة التشريع المالي وحكمة الموقف الاجتماعي دون ان يقيدخطى المسلمين المستقبلة او يكبل تجاربهم الاجتماعية بالنصوص والقوالب والنظريات .**

واذا شئنا ايجازا يكثف فلسفة الاسلام الاجتماعية فان باستطاعتنا ان نقول : انه قد انحاز كل الانحياز الى صف مجموع الأمة وعامتها ، وانتصر لمصالح العاملين من ابنائها . ثم ترك للواقع المتطور والمتغير امر الاختيار والصياغة لما يحقق هذه المقاصد من نظريات وقوالب وتشريعات .

والاسلام عندما انحاز الى مجموع الامة ، في المسألة الاجتماعية ، لم يكن يبدأ من فراغ ، فهو قد ظهر في مجتمع تغلب عليه البداوة والبساطة ، وكانت القبيلة فيه وحدة متحدة ، يملك مجموع ابنائها متكافلين وعلى نحو جماعي ، كل مصادر ثروتها ، بل وجميع ادوات كسب عيشها ، باستثناء اسلحة القتال . وبعد ان كانت القبيلة كيانا اداريا وسياسيا مستقلا ، الى حد كبير ، جاءت دولة العرب المسلمين لتجعل هذه القبيلة لبنة في بناء الامة الاجتماعي والقومي الجديد . وكان ان انتقل الاسلام بملكية مصادر الثروة الاساسية في المجتمع الى مجموع الامة . لقد كانت الملكية عامة في القبيلة ، عندما كانت هي « دولة » البداوة قبل التوحيد ، فأصبحت الملكية عامة في الامة بعد التوحيد القومي الذي شرعه الدين ونهضت دولته لاقامته .

والقرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وتجربة عصر النبي والخلفاء الراشدين ، زاخرة جميعها بالأدلة على هذا الانحياز الى مجموع الامة ، في المسألة الاجتماعية ، باعتباره فلسفة التشريع الاجتماعي للاسلام .

● فالمال في الاسلام هو مال الله ، اودعه في الطبيعة ، فيضا الهيا ، ورصده وسخره للبشر جميعا ، وبالعمل تتحد السبل والمقادير التي بها يصيبون ولها ينالون من هذا المال . هو مال الله ، وحق الله ــ كما قرر الاسلام ــ هو حق المجتمع ، لا حق فئة او طبقة . هو مال الله ، والمستخلف فيه عن الله الناس ، والبشر ، والأنام أجمعون .

فالارض جميعها ، بما استكن في باطنها وما حملت على ظهرها قد جعلها الله للانام جميعا : **(والأرض وضعها للأنام)** [٢٧] .

والمجموع ــ بدليل ضمير الجمع ــ هم الخلفاء والمستخلفون عن الله في ماله : (وأنفقوا مما **جعلكم مستخلفين فيه)** [٢٨] .

والله هو الذي افاض المال على خلقه وامدهم به : (وآتوهم من **مال الله الذي آتاكم)** [٢٩] .

وكما لا يتصور انسان ان يمتلك الاب ابناءه فيتصرف فيهم كيف يشاء ، كذلك لا يتصور ــ وفق منطق القرآن ــ ان يمتلك الانسان المال فيتصرف فيه كيف يشاء ، لان كلا من المال والبنين مدد من الله امد بهما الانسان : (ايحسبون انما **نمدهم به من مال وبنين** نسارع لهم في الخيرات ، بل لا يشعرون) [٣٠] ــ (ذرني ومن خلقت وحيدا . **وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا)** [٣١] . (ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيرا) [٣٢] . (يرسل السماء عليكم مدرارا .**ويمددكم بأموال وبنين** ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا) [٣٣] .

ثم تأتي السنة النبوية لتزكي هذا الموقف القرآني ، ولتحدد : ماذا للانسان كانسان ، في هذا المال الذي قرر القرآن انه عام ؟ فتحدد ان ما للانسان هنا هو : حاجته ، وفق العرف ، وفي المتوسط المألوف ، وليس ما فضل وزاد عن الاحتياجات .. وهي تقرر هذا الموقف عندما تميز بين المال ، على اطلاقه ، وهو لله ، وبين ما يصح ان يقول عنه الفرد : هذا مالي .

يقول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « يقول العبد : مالي ، مالي !! **وانما له من ماله ثلاث ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى** »[٣٤] . وفي رواية ثانية : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي ، وهل لك من مالك الا ما تصدقت فأمضيت ، او لبست فأبليت ، او أكلت فأفنيت » ؟ [٣٥] . وفي رواية ثالثة : « **ألهاكم** التكاثر حتى زرتم المقابر . يقول ابن آدم : مالي ، مالي وانما لك ما أكلت فأفنيت ، او لبست فأبليت ، او تصدقت فأمضيت » [٣٦] .

ولقد اخبر الرسول اصحابه أن مال أحدهم هو حاجته واحتياجاته ، أما ما سوى ذلك فهو مال ورثته،وليس ماله، وان الذين يحرصون على ما زاد عن الحاجة انما يحبون أموال غيرهم ، لأنها القدر الزائد عن الاحتياجات . يقول ، عليه الصلاة والسلام : « أيكم مال وارثه أحب اليه من ماله ؟! قالوا : يا رسول الله ، ما منا من احد الا ماله احب اليه من مال وارثه . فقال : اعلموا انه ليس منكم من احد الا مال وارثه احب اليه من ماله ! **مالك ما قدمت ، ومال وارثك ما أخرت .**

● والاسلام عندما انحاز ، في المسألة الاجتماعية ، الى مجموع الامة ، وجعل الاحتياجات معيارا للحيازة ، انما كان يستهدف تفادي المخاطر والمضار التي تنشأ عن تركز ثروة الله ــ ثروة الامة ــ بيد قلة من الأغنياء يتداولونها ويحتجزونها فيما بينهم ، لأن في ذلك الفساد كل الفساد ، في المادة والفكر ، في الدنيا وفي الدين . قرر الاسلام ذلك ، وضرب عليه الأمثلة وقدم بين يديه المواعظ والعبر من تجربة البشرية عبر تاريخها الطويل .

فالثروة يجب أن توزع ، وفق الاحتياجات ، وذلك حتى لا يزداد غنى الأغنياء فيصبح المال حكرا عليهم يتداولونه دولة بينهم : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، **كي لا يكون بين الاغنياء منكم** ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما

---

(٢٧) الرحمن : ١٠ .
(٢٨) الحديد : ٧ .
(٢٩) النور : ٣٣ .
(٣٠) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ .
(٣١) المدثر : ١١ ــ ١٣ .
(٣٢) الاسراء : ٦ .
(٣٣) نوح : ١١ ، ١٢ .
(٣٤) رواه مسلم وابن حنبل .
(٣٥) رواه مسلم وابن حبل والترمذي .
(٣٦) رواه النسائي .
(٣٧) رواه النسائي .

نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) [٣٨] .

وفي العديد من سور القرآن الكريم تطالعنا الآيات التي تقدم الصور غير المستحبة، بل والكريهة ، للأغنياء والمستغنين ، سواء أكانوا في المجتمع المحمدي ام فيما سبقه من المجتمعات .

فالاستغناء سلم يقود الانسان الى الطغيان ، بل ان القرآن يكاد ان يجعله قانونا يقضي بوجود الطغيان عند وجود الاستغناء (كلا **ان الانسان ليطغى . ان رآه استغنى**) [٣٩] .

والذين احتازوا الثروات واحتكروا الاموال ، على مر التاريخ ، كانوا هم المناوئين لرسل الله ورسالات السماء .(قال نوح : رب ، انهم عصوني **واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا**) [٤٠] .

وفي قوم نبي الله شعيب كان دعاة الشرك هم الاثرياء المستمسكون بحريتهم المطلقة فيما يحتكرون ويحتازون . (قالوا : يا شعيب ، اصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا **او ان نفعل في اموالنا ما نشاء**) ؟ [٤١] .

وسنة اخرى من سنن الله في الكون يطالعنا بها القرآن : أن هلاك القرى وانهيار الحضارات وتحلل المجتمعات وابادتها لا بد مقترن بسيطرة « المترفين » من ابنائها : (واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا **مترفيها** ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ــ [٤٢] . ومن القراء من يقرأ : « امرنا » ، بتشديد الميم مفتوحة . اي جعلنا هؤلاء المترفين أمراء في هذه المجتمعات وحكاما . ذلك لأن المترفين كانوا ، دائما ، هم المناوئين لرسل الله ولرسالات السماء . ومناوأتهم هذه بلغت ــ كما يحكي القرآن ــ مبلغ القانون . (وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال **مترفوها** : انا بما ارسلتم به كافرون . وقالوا : نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين) [٤٣] . (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة **واترفناهم** في الحياة الدنيا : ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب ما تشربون . ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون) [٤٤] .

والمترفون ، عادة ، هم أهل الجمود والمحافظة على القديم البالي : (وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال **مترفوها** : انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) [٤٥] .

والترف ، في ذاته ، قوة تقود هؤلاء الذين ظلموا انفسهم به الى مواقع الاجرام والمجرمين . (واتبع الذين ظلموا **ما اترفوا** فيه وكانوا مجرمين) [٤٦] .

وهم بعد ان اعتقدوا احقيتهم في احتكار الثروة قد اعتقدوا بأحقيتهم في احتكار النبوة والرسالة (وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ ! ــ (الوليد بن المغيرة ــ عظيم مكة ــ وعيسى بن مسعود الثقفي ــ عظيم الطائف) ــ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ !) [٤٧] كما اعتقدوا أحقيتهم في احتكار الملك : (وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟) [٤٨] .

تلك هي مواقفهم ،عبر التاريخ ، وبمختلف المجتمعات ، تتحدث عنها آيات القرآن . ثم تطالعنا بالمصير السيء الذي اعده الله لهؤلاء المترفين والمستغنين : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) [٤٩] . (حتى اذا اخذنا **مترفيهم** بالعذاب اذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم انكم

---

(٣٨) الحشر : ٧ .
(٣٩) العلق : ٦ ، ٧ .
(٤٠) نوح : ٢١ .
(٤١) هود : ٨٧ .
(٤٢) الاسراء : ١٦ .
(٤٣) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ .
(٤٤) المؤمنون : ٣٢ ، ٣٣ .
(٤٥) الزخرف : ٢٣ .
(٤٦) هود : ١١٦ .
(٤٧) الزخرف : ٣٢ .
(٤٨) البقرة : ٢٤٧ .
(٤٩) الانبياء : ١١ ــ ١٥ .

منا لا تنصرون . فقد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون . مستبكرين به سامرا تهجرون) [٥٠] . (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . انهم كانوا قبل ذلك مترفين) [٥١] . (وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ما له اذا تردى) [٥٢] . ولقد كان الدمار والبوار نصيب ذلك الذي استغنى فغره غناه حتى ظلم نفسه وقال لصاحبه : (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن ان تبيد هذه أبدا . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا) [٥٣] . ويوم القيامة لن تغني عنهم أموالهم ولن ينفعهم ما حقق لهم الثراء من سلطان : (واما من اوتى كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم اوت كتابيه ، ولم ادر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما اغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه) [٥٤] . (تبت يدا أبي لهب وتب . ما اغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب) [٥٥] . (ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده ، يحسب ان ماله أخلده ، كلا لينبذن في الحطمة) [٥٦] .

ثم تأتي السنة النبوية لتزكي موقف القرآن من المستغنين والمترفين ، اولئك الذين احتكروا ما زاد عن حاجاتهم من الثروات والأموال ، فحالوا بين الأنام وبين الاستخلاف في مال الله . يقول ابو ذر الغفاري : « جئت الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس في ظل الكعبة ، فلما رآني مقبلا قال : هم الأخسرون ورب الكعبة ! قلت :من هم ، فداك أبي وأمي ؟ ! . قال : الاكثرون أموالا ، الا من قال هكذا ، وهكذا ، وهكذا ــ (من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله) ــ وقليل ما هم [٥٧] . أي الا الذين انفقوا عن يمينهم وعن شمالهم وأمامهم وخلفهم ، فعمموا في الناس ما زاد عن حاجاتهم . وهؤلاء : « قليل ما هم » من بين المستغنين والمترفين ــ (الاكثرون اموالا) ــ حسب تعبير الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

● وهذا الموقف الذي اتخذه الاسلام من « المستغنين » و « المترفين » و « الاثرياء » ، وما صورهم به القرآن من منكر الصور ، وما تنبأ لهم به من سيء المصير ، لا يعني تحبيذه للفقر والحاجة والمسكنة . انه يعادي الترف واحتكار مال الله ، كي تتم ارادة الله باستخلاف خلقه في ماله ، وحتى يزول « الترف » و « العوز » معا . فهو ينهي عن « الكنز » و « الاكتناز » ،**اي الضم والجمع لما زاد عن الحاجة من الأموال ، ويدعو الى انفاق فضول الأموال ، اي ما زاد عن الحاجة منها ، للمستحقين** . يقول الله سبحانه : (.. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) [٥٨] .

ومذهب ابي ذر الغفاري : ان ما زاد عن حاجة الانسان فهو كنز ، سيكوى به ويعذب يوم القيامة ، حتى وان اخرج عنه الزكاة . وهو ايضا مذهب علي بن ابي طالب ، الذي قرر ان الحد الاقصى لنفقة الانسان اربعة الاف درهم « وما كثر عنه فهو كنز وان اديت زكاته »[٥٩] .

وفي اثبات هذا المذهب يروي أبو ذر عن الرسول،صلى الله عليه وسلم ، قوله :«من جمع دينارا او درهما او تبرا او فضة ولا يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله فهو كنز يكوى به يوم القيامة » [٦٠] . ويروي ثوبان قول الرسول « ما من رجل يموت وعنده احمر او ابيض الا جعل الله له بكل قيراط صفيحة يكون بها من فرقه»ــ (الطريق في شعر الرأس) ــ الى قدمه ، مغفورا له بعد ذلك او معذبا! » [٦١] ، ويروي ابو هريرة : « من ترك عشرة آلاف جعلت صفائح يعذب بها صاحبها يوم القيامة » [٦٢] .

---

(٥٠) المؤمنون : ٦٤ ــ ٦٧ .
(٥١) الواقعة : ٤١ ــ ٤٥ .
(٥٢) الليل : ٨ ــ ١١ .
(٥٣) الكهف : ٣٤ ــ ٣٦ .
(٥٤) الحاقة : ٢٥ ــ ٢٩ .
(٥٥) المسد : ١ ــ ٣ .
(٥٦) الهمزة : ١ ــ ٤ .
(٥٧) رواه البخاري ومسلم والنسائي .
(٥٨) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .
(٥٩) انظر القرطبي ، **الجامع لاحكام القران** جـ٨ ص ١٢٣ . طبعة دار الكتب المصرية .
(٦٠) المصدر السابق . جـ ٨ ص ٣١ .
(٦٢) المصدر السابق : جـ ٨ ص ١٣١ .

ويؤيد هذا المذهب وذلك التفسير لمعنى « الكنز » [٦٣] ، تحديد القرآن الكريم للقدر الواجب انفاقه من المال الذي يحوزه الانسان ، وقوله **ان ما يجب انفاقه هو : العفو ، اي ما زاد وفضل عن حاجة العيال** . فعندما ثارت هذه القضية ، وسأل المسلمون الرسول عنها نزل قول الله سبحانه : (ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) [٦٤] . والجمرة من مفسري القرآن ، من الصحابة والتابعين ، على ان « العفو : هو ما فضل عن العيال ، فالمعنى : انفقوا ما فضل عن حوائجكم ، ولم تؤذوا فيه انفسكم فتكونوا عالة » . ومن هؤلاء المفسرين : عبد الله ابن عباس (٣ ق . هـ ـ ٦٨ هـ ٦١٩ ـ ٦٨٧ م) والحسن البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) وقتادة بن دعامة السدوسي (٦١ ـ ١١٨ هـ ٦٨٠ ـ ٧٣٦ م) وعطاء بن دينار (١٢٦ هـ ٧٤٤ م) . والسدي ، اسماعيل بن عبد الرحمن (١٢٨ هـ ٧٤٥ م) والقرظي محمد بن كعب ، وابن ابي ليلى ومحمد بن عبد الرحمن (٧٤ ـ ١٤٨ هـ ٦٩٣ ـ ٧٦٥م) [٦٥] .

وتأتي السنة النبوية لتدعم من هذا التفسير وهذا المذهب . فأبو سعيد الخدري يروي عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حديثا يقرر فيه انه لا حق لمسلم فيما فضل وزاد عن حاجته ، وان الواجب هو دفع هذا الفضل ـ (الزيادة) ـ الى من لا مال عنده . يقول الرسول : « من كان عنده فضل من ظهر ـ (دابة ركوب) ـ فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له». ويكمل الرواي الحديث بلفظه فيقول : ان الرسول قد « ذكر من اصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا انه لا حق لاحد منا في فضل ! » [٦٦] .

كما يروي ابن عباس ، عن الرسول ، الحديث الذي يقرر « شركة » الناس و « اشتراكهم » في المصادر الاساسية للثروة بمجتمع شبه الجزيرة يومئذ . يقول : « المسلمون شركاء في ثلاث : الماء والكلأ والنار . وثمنه حرام » . وفي رواية أبي هريرة : « ثلاث لا يمنعن : الماء والكلأ والنار » . وفي رواية عائشة انها سألت الرسول : « يا رسول الله ، ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ . فقال : « الماء والملح والنار » [٦٧] .

ومصادر الثروة هذه ، وما شابهها ، يتحدد اختصاص الانسان منها وكسبه فيها بالعمل ، كما سبق وتحددت لحيازته حدود قصوى يكون ما بعدها « كنز » و « فضل » يجب رده الى من لا مال عنده ..

فالارض الميتة لمن احياها ، وداوم على استثمارها ، وسعيد بن زيد يروي عن الرسول قوله : « من احيى ارضا ميتة فهي له ، وليس لعرق ظالم حق » [٦٨] وهذا الحديث الذي يخصص الارض بالعاملين فيها ، يجعل فكر الاسلام الاجتماعي ، لانحيازه الكلي « للعمل » يقف مع الشعار المعاصر : (الارض لمن يفلحها) بل اننا نجد في السنة النبوية احاديث اخرى تدعو الى ذلك صراحة ، وتنهي عن « كراء » الارض وتأجيرها . فتأجير الارض نظام عرفه مجتمع المدينة في عهد الرسول ، ثم نهى عنه الرسول . يروي رافع بن خديج فيقول : « كنا نحاقل الارض على عهد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فنكريها بالثلث والربع والطعام المسمى . فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتي فقال : نهانا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أمر كان لنا نافعا ! وطواعية الله ورسوله انفع لنا ، نهانا ان نحاقل الارض فنكريها على الثلث والربع والطعام المسمى ، وامر رب الارض ان يزرعها (بفتح الياء) ـ او يزرعها ـ (بضم الياء) ـ وكره كراءها وما سوى ذلك» [٦٩] ، ويزيد معنى هذا الحديث الناهي عن كراء الارض وتأجيرها ، وضوحا وحسما ما يرويه جابر بن عبد الله ، عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « من كانت له ارض فليزرعها ، فان لم يستطع ان يزرعها ، وعجز عنها ، فليمنحها أخاه المسلم ، ولا يؤجرها اياه ، ولا يكرها » [٧٠] .

---

(٦٣) يروى عن ابن عمر مذهب آخر في الكنز يرى ان ما أخرجت زكاته لا يعد كنزا . انظرا المصدر السابق . جـ ٨ ص ١٢٣ .

(٦٤) البقرة : ٢١٩ .

(٦٥) **الجامع لاحكام القران** جـ ٣ ص ٦١ .

(٦٦) رواه مسلم وابن حنبل .

(٦٧) روى هذه الاحاديث ابن ماجة وابن حنبل .

(٦٨) رواه الترمذي وابو داود .

(٦٩) رواه مسلم .

(٧٠) رواه البخاري ومسلم وابن ماجة .

ويزيد من اهمية هذه الاحاديث ، التي تقرر « ان الارض لمن يفلحها »، يزيد من اهميتها وخطورتها في فكر الاسلام الاجتماعي انها تتعدى الفكر النظري ، وتقطع بأن مدلولها قد تحول الى ممارسة وتطبيق . فلقد كان المسلمون يكرون الارض ويؤجرونها ، وكان هذا الامر نافعا للمؤجرين ، فنهى عنه الرسول ، فامتثلوا ، ومنحت الارض لفالحها ، لأن طواعية الله ورسوله انفع للمسلمين .

● وفي المدينة عقب هجرة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، اليها شهدت الشهور الاولى من عمر الدولة الوليدة تجربة « المؤاخاة » التي جسدت فلسفة الموقف الاجتماعي للاسلام ودولته . ففي البداية « آخى » الرسول بين المهاجرين بعضهم مع بعض . ثم « آخى » بينهم وبين الانصار . وكان المهاجرون قد اجبروا على الخروج من ديارهم وأموالهم هربا بعقيدتهم وحفاظا على ايمانهم ، بينما كان الانصار يعيشون في وطنهم ومالهم ، « فأشركت » المؤاخاة المهاجرين مع الانصار ، واقام هذا التنظيم الاجتماعي الجديد للمهاجرين في أموال الانصار حقوقا تساوي حقوق الذين تجمعهم معا صلات الارحام والانساب . لقد كانت « المؤاخاة »عقداً اجتماعيا «اشترك» فيه وبه « المتآخون » في ثلاثة اشياء :

١ ــ **في الحق** : ويعني التناصر والتآزر في الجانب الروحي والمعنوي للبناء الجديد الذي مثلته دولة المدينة ، والذي يحدده الدين .

٢ ــ **وفي المؤاساة** : وتعني المساواة والاشتراك في امور المعاش ومصادره .

٣ ــ **وفي التوارث** : كما يتوارث ذوو القربى والارحام .

ثم حدث ان اوحى الله الى رسوله بقوله : (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، **واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله** ، ان الله بكل شيء عليم) (٧١) . فنسخت الآية التي تخصص التوارث في ذوي الارحام بند التوارث من عقد المؤاخاة . **لكن الامرين الآخرين في عقد المؤاخاة ظلا على حالهما دون نسخ ، اي ظلت هذه التجربة الاجتماعية قائمة « يشترك » و « يتشارك » اعضاؤها في « الحق » وفي « المؤاساة » ، اي في جانبي الحياة ، المعنوي والمادي** (٧٢) .

● واشارت آيات القرآن التي حرمت الربا الى « العمل » ، وقرنته ــ على سنة القرآن وطريقته ــ « بالايمان » ، وتحدثت عن أن للناس ، فقط رؤوس أموالهم ، أما ذلك المال ــ الربا ــ الذي يثمره المال دون « عمل»فهو محرم ، يجب اسقاطه وبأثر رجعي. قالت تلك الآيات البينات : (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بانهم قالوا : انما البيع مثل الربا ، واحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ، ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار اثيم . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) (٧٣) .

فتحريم الربا ــ وهو المال الناشىء عن مال دون عمل ــ يقطع بأن الفلسفة الاجتماعية للاسلام تقف مع المذهب القائل **ان العمل هو الذي يعطي الاشياء قيمتها** ، وهو الاساس في الكسب وعليه المعول في التمايز والامتياز ، وهذه الفلسفة هي التي صاغها ، من بعد،ابن خلدون (٧٣٢ ــ ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ ــ ١٤٠٦ م) عندما قال : « اعلم ان ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتحولات ان كان من الصنائع **فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله ، اذ ليس هناك الا العمل** . وقد يكون مع الصنائع في

---

(٧١) الانفال : ٧٤ ، ٧٥ .

(٧٢) انظر : ابن عبد البر،**الدرر في اختصار المغازي والسير** ، ص ٩٦ . تحقيق : د . شوقي ضيف . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

(٧٣) البقرة : ٢٧٥ ــ ٢٨٠ .

بعضها غيرها ، مثل النجارة والحياكة ، معهما الخشب والغزل ، **الا ان العمل فيهما اكثر ، فقيمته اكثر. ان المفادات والمكتسبات كلها ، أو أكثرها ، انما هي قيمة الاعمال الانسانية** » (٧٤) .

* * *

هكذا كانت ثورة الاسلام ، او الاسلام الثورة ، في المسألة الاجتماعية ، وعلى هذا النحو كان المحتوى الاجتماعي الثوري ، الذي جاء به الاسلام في قضايا المال والاقتصاد والثروات .

لقد جعل المال مالا لله ، منه فاض وعنه صدر ، وجعل الناس جميعا مستخلفين فيه . وحدد العمل سبيلا ومعيارا للاختصاص فيه والحيازة منه . ونهى عن حيازة ما زاد عن الاحتياجات التي يحدد العرف والعادة حدودها القصوى . ونبه على وجوب « الاشتراك العمومي » في المصادر الاساسية لثروة الامة والمجتمع .

والمتصفح لحديث المال في القرآن يجد الكثير من الادلة والبراهين على وضوح هذا الموقف الاجتماعي . فكلمة « المال » اذا كانت قد أضيفت ، في القرآن ، الى ضمير « الفرد » سبع مرات ، فانها قد اضيفت الى ضمير « الجمع » سبعا واربعين مرة ! . حتى لقد قال الامام محمد عبده في ذلك : **ان الله ، سبحانه ، اراد ان ينبه بذلك على « تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها ، فكأنه يقول : ان مال كل واحد منكم هو مال امتكم ؟!** » (٧٥)

ولقد كان وراء هذا الموقف الاجتماعي للاسلام مذهبه الذي امتازت وتميزت به حضارته ، والذي يوازن بين النقائض ويتوسط بين قطبي الظاهرة ، فالانحياز للمجموع ، ومعالجة القضية الاجتماعية من منظور الجماعة يرفض تركز الثروة بيد القلة المترفة ، ويتحاشى شيوع الفاقة بين الاغلبية ، وهو ما حذر منه الاسلام وكرهه الى الناس عندما قرن النقص في الأموال بالجوع والخوف ، أي بالعجز والشلل ، المادي والمعنوي ، عن النهوض برسالة الانسان في هذه الحياة (ولنبلونكم بشيء **من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات** ، وبشر الصابرين) (٧٦) .

واخيرا ــ يكشف القرآن الكريم موقفه الاجتماعي المنحاز الى مجموع العاملين ، عندما يعلن ان ارادة الله ، سبحانه ، هي ان تكون القيادة والامامة ووراثة ما بالمجتمع من ثروات وامكانيات هي للمستضعفين في الأرض : (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) ! (٧٧) .

لكن ، ماذا عن التفاضل في الدرجات ؟

غير ان « شبهة » يثيرها الذين لا يفقهون منطق القرآن ولا يعون مدلول مصطلحاته ، ويحاولون بها تبرير المظالم الاجتماعية وتصويرها كما لو كانت التحقيق لارادة الهية أزلية وأبدية . وهذه « الشبهة » تعتمد على ما ورد في القرآن من آيات كثيرة تتحدث عن تفاوت « درجات » الناس ، وارتفاع بعضهم « درجة » عن الآخرين .

لكن الناظر في آيات القرآن ، والباحث في مصادر تفسيره ، لا يجد اية علاقة بين مصطلح « الدرجة » و « الدرجات » ، كما استخدم فيه ، وبين المسألة الاجتماعية والفكر الاجتماعي . **« فالدرجة » ليست هي « الطبقة » بالمعنى الاجتماعي ، بل لا علاقة البتة بين المعنيين والمدلولين . فالطبقة ، بالمعنى الاجتماعي ، شريحة اجتماعية تتميز بمركز مالي واجتماعي خاص ، على حين ترد « الدرجة » و « الدرجات » في القرآن للدلالة على الجزاء في الآخرة ، والتفاوت فيها هو التفاوت في المثوبة والتكريم الأخروي والمعنوي الذي يناله الانسان لقاء ما قدمت يداه من حسنات .**

---

(٧٤) **المقدمة** : ص ٣٠٣ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .
(٧٥) **الاعمال الكاملة للامام محمد عبده** ج ٥ ص ٢٠١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .
(٧٦) البقرة : ١٥٥ .
(٧٧) القصص : ٥ .

* فللرجال على النساء درجة . ولا علاقة لذلك بالنظام الطبقي وتفاوت الطبقات .

* والله قد (فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) [٧٨] اي ارتفاعا في المنزلة عند الله [٧٩] .

* و (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) [٨٠] . أي أعلى مرتبة واكثر كرامة يوم القيامة [٨١] .

* وانبياء الله يتفاوتون ، اذ (منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) [٨٢] . وهي مراتب لا يعقل ان تكون لها علاقة بالاوضاع الطبقية والاجتماعية [٨٣] .

(وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة) [٨٤] . ودرجاتهم هذه هي : منازلهم في الجنة [٨٥] هكذا ، وعلى هذا النحو يورد القرآن مصطلح « الدرجة » في المواطن الأربعة التي ورد فيها ، ومصطلح « الدرجات » في المواطن الاربعة عشر التي ورد فيها ، ويريد به : المثوبة والكرامة في الآخرة ، دون أن تكون لهذه المواطن وآياتها اية صلة بالفكر الاجتماعي وفلسفة الاسلام في الأموال والاقتصاد .

وحتى آيات « الزخرف » التي تقول : (ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وانا به كافرون . وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ . أهم يقسمون رحمة بك ؟ ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة بك خير مما يجمعون) [٨٦] ، حتى هذه الآيات فانها لا تشهد للذين يريدون للمظالم الاجتماعية وللتفاوت الاجتماعي الظالم سندا من القرآن **لانها تتحدث عن منطق المترفين من المشركين ، اولئك الذين استنكروا اصطفاء الله لنبي فقير ، وتساءلوا منكرين : لماذا لم ينزل القرآن على عظيم مكة: الوليد بن المغيرة ؟! او عظيم الطائف: عيسى بن مسعود الثقفي ؟!. فهم، انطلاقا من منطقهم الطبقي يريدون النبوة ، هي الاخرى ، امتيازا طبقيا . لكن الله ، سبحانه ، يسفه من منطقهم ومعيارهم الطبقي هذا ، لانه وليد تنظيم اجتماعي ظالم وفاسد ، ارتفع فيه البعض فوق البعض درجات فسخره وسخر منه . فالقرآن هنا لا « يشرع » ، وانما « يصف » واقعا ظالما اثمر منطقا ظالما مرفوضا ، اذ لا يعقل ،بداهة،ان يقصد شرع الله وتشريعه الى جعل قلة من الناس تسخر الكثرة وتسخر منها . فالمقام هنا مقام الوصف ، بل والادانة ، وليس مقام التحبيذ او التشريع .**

اما التفاوت في « الرزق » والتفاضل فيه ، والذي تتحدث عنه آية : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء ، افبنعمة الله هم يجحدون) [٨٧] ، فان وعي المعنى المراد بمصطلح « الرزق » هنا يجعل الآية متسقة تماما مع الموقف الاجتماعي الذي اتخذه القرآن ، والذي تحدثنا عنه ، **فالمراد « بالرزق » الاحتياجات .** وبديهي ان تتفاوت وتتفاضل احتياجات الناس ، مأكلا وملبسا ومسكنا الخ .. كما وكيفا ، وهذا هو المراد بتفاوت « الرزق » والتفاضل فيه ، اذ لا علاقة لمصطلح « الرزق » بمدلول مصطلحات مثل « الكسب » و « الملكية » و « الحيازة » الخ .. ويشهد لهذا الذي نقول حديث ابن خلدون عن ان : المكاسب ، اذا كانت بمقدار الضرورة والحاجة فهي « معاش » ، اما ان زادت عن الحاجة فهي تسمى « رياشا ومتمولا » ــ اي دخلت في نطاق فضول الاموال التي دعا الاسلام الى ردها على المحتاجين ــ وأن القدر اللازم من « المكاسب » لمصالح الانسان وحاجاته هو الذي يسمى « رزقا » فان لم ينتفع به

---

(٧٨) النساء : ٩٥ .
(٧٩) انظر : **تفسير البيضاوي** ، ص ١٥٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .
(٨٠) التوبة ٢٠ .
(٨١) **تفسير البيضاوي** ص ٢٧٧ .
(٨٢) البقرة : ٢٥٣ .
(٨٣) **تفسير البيضاوي** : ص ٨٠ .
(٨٤) النساء : ٩٥ ، ٩٦ .
(٨٥) **تفسير البيضاوي** : ص ١٥٠ .
(٨٦) الزخرف : ٣٠ ــ ٣٢ .
(٨٧) النحل : ٧١ .

في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة له«رزقا». ثم يورد ابن خلدون للدلالة على هذا التحديد حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « انما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » [٨٨] فهذه الاحتياجات هي « الرزق » ، وفيها ، بداهة ، يقع التفاوت والتفاضل بين الناس ، وهو التفاوت والتفاضل الطبيعي ، ولا علاقة لذلك بالتفاوت الطبقي او الظلم الاجتماعي ، كما يوهم أو يتوهم نفر ممن يشوهون أو يظلسون الفكر الاجتماعي للاسلام .

* * *

هكذا ظهر الاسلام في حياة الانسان العربي ، وفي واقع شبه الجزيرة العربية .

ثورة في الفكر السياسي جعلت الشورى فلسفة نظام الحكم ــ (في دولة الخلافة

وثورة لتحرير ذات الانسان العربي من الجبر والقدر وظواهر الطبيعة والاطار الضيق للتعصب القبلي ...

وثورة لتحرير المرأة والارتقاء بها كي تلحق بالرجل .

وثورة لتحرير الرقيق ، تدريجيا ، ولدمجهم ، « بالولاء » قوميا ، مع العنصر العربي ، في اطار العروبة بمضمون انساني مستنير .

وثورة لتحرير الانسان ، من العوز والاستغلال ، بالانحياز للمجموع ، وتقرير « الاشتراك العمومي » في ثروات الامة وجعل « العمل » معيارا للكسب الحلال وللتفاوض في الارزاق .

ولقد ظل هذا المضمون الثوري لثورة الاسلام العربية محور الصراع في المجتمع العربي بين تيار الثورة ، بفرقها وتياراتها وتنظيماتها وطبقاتها ، وبين اعدائها . فالذين انتكسوا بهذا المحتوى الثوري لثورة الاسلام كانوا هم دائما اعداء « الثورة » كوسيلة من وسائل التغيير . ــ والذين شرعوا « الثورة » سبيلا للتغيير كان الهدف من ثوراتهم ، في الأغلب الأعم ، محاولة العودة بالمجتمع الى تبني المحتوى الثوري لثورة الاسلام ، سواء في الفكر النظري أو الممارسة والتطبيق .

---

(٨٨) المقدمة : ص ٣٠٢ .

التنشئة الاجتماعية والانتماء القومي

الدكتور محجوب عمر

عربي من مصر في الصفوف الفلسطينية له كتابات
حول الكيان الصهيوني وقضايا الوحدة العربية منها كتاب
« حوار في ظل البنادق » و
« قضايا تنظيمية في الطريق الى الوحدة » .

اولا: الوحدة بين العفوية والوعي

يدور الحديث والجدل ، وتتركز الابحاث والدراسات ، وتنعقد الندوات والمؤتمرات ، وتتشكل الاحزاب والجهات ، وتقوم الثورات وتعلن الانقلابات ويحتدم الصراع ويلتهب القتال ، وتنشق الجماعات ، وتتشكل الحلقات ، وتتأسس المجالس والهيئات ، وتستورد النظريات وتبتدع ، وتتحول الانتصارات الى هزائم وانحرافات ، ويختزن الفشل خبرة للجديد من المحاولات . كل هذه النشاطات الانسانية الارادية ــ ولا نقول الواعية ــ تدور داخل وعاء واحد هو حركة القومية العربية المعاصرة ، بعضها يحاول مستكشفا والبعض يحاول مغيرا ومطورا ، والبعض يعارض منكرا والبعض لم ير بعد هذا الوعاء رغم انه يعيش فيه .

ولسنا في مجال اثبات وجود « القومية العربية » ، وان كانت بعض القوى تنكرها بمنطق او آخر ، الا انها ــ اي هذه القوى ــ لا تشكل نسبة تذكر من مجموع الامة العربية ، وانما ستجري المساهمة في الحوار الدائر بين القوى التي تنطلق نشاطاتها من حقيقة وجود الامة العربية ، ومن شعور واعتزاز بالانتماء للقومية العربية ، او من احساس والتزام بضرورة المساهمة وعملية التوحيد السياسية للعرب ، او بقول ادق المساهمة في عملية القضاء على التجزئة السياسية التي فرضها المستعمرون والمتدخلون والطامعون الاجانب على وطننا العربي ، ومن ثم استعادة الوحدة السياسية العربية .

ذلك ان **هناك حقيقتين تغيبان احيانا في غمرة الحوار : الحقيقة الاولى هي ان العرب والعروبة موجودون** خارج وعي المحاورين ، **كما هي موجودة كل مظاهر نشاطهم الاجتماعي المادية والثقافية والمعنوية . وهم موجودون في حالة « تاريخية » بالمعنى العلمي للكلمة ، اي انهم ليسوا « ظاهرة طارئة » ولا بنتيجة « رد فعل » على ظرف طارىء (كالأستعمار الاجنبي مثلا) .**

ان العرب موجودون كجماعة تكونت تاريخيا من اناس لهم لغتهم وارضهم وتجمع بينهم الثقافة المشتركة والعلاقات الاقتصادية الاولية . « هم موجودون ، قبل الاقطاع وبعده ، وقبل الرأسمالية وبعد القضاء عليها ، وقبل الاستعمار وكل اجراءاته التجزيئية ، يتأثرون بكل ذلك ، ويؤثرون ، يتطورون ويتقدمون . هم اذن موجودون ، ومهمة المعنيين المتحاورين **ان يكتشفوا قوانين حركتهم لا ان يكتشفوهم** » .

والحقيقة الثانية هي ان العرب موجودون على الدوام ، بالمشاعر والاحاسيس على الاقل . وقد نجحوا مرارا ، واسبق من غيرهم ، في التعبير عن وحدتهم بشكل سياسي في دول كبيرة ازدهرت ونمت وانهارت وتحطمت وعادت الى الازدهار ثانية ، وعرفت الاقتتال الداخلي بين قواها الحاكمة وصمدت للقتال الخارجي ضد « الاجانب » الطامعين في ثرواتها . اي ان الوحدة بين العرب هي الاصل والقاعدة ، اما التقسيم فهو مؤقت وزائل . ان الوحدة اسبق من التجزئة وابقى بعدها . وهي ليست « رد فعل » للتجزئة الاستعمارية وانما هي ضحية هذه التجزئة كما انها ليست بدافع « توحيد السوق » وانما هي تخلق هذا السوق وتضمن قوته . والفرق بين ان تكون الوحدة « فعلا تاريخيا » وليست « رد فعل » على ظاهرة خارجية،ان تحقيقها كان وسيظل يعكس نفسه في نشاطات القوى والجماعات العربية البشرية ، سواء ادركت هذه القوى او لم تدرك اتجاه نشاطاتها ، وسواء وعت هذه القوى او لم تع ضرورة تحقيقها . اي ان حركة العرب هي الى الوحدة بالضرورة التاريخية ، بالعفوية ، بالحتمية ، وما العقبات التي يزرعها المستعمرون والطامعون في طريقها الا عقبات زائلة لا تغير طبيعة الامة العربية ولا تمنع اتصالها .

من هاتين الحقيقتين نرى انه عندما نناقش قضية الوحدة العربية فاننا ندرس ظاهرة موجودة فعلا ، وتعبر عن نفسها في اشكال عديدة من النشاطات الانسانية . وعندما « نفعل » في سبيل الوحدة السياسية العربية ، فاننا بذلك نساهم ، كل بقدر ، في **الاسراع** بها ، لا في **خلقها** ، وكل فعل يتم في هذا الاتجاه التاريخي هو « فعل » صحيح يساهم في الدفع به . وليس شرطا ان يكون كل « فعل صحيح » فعلا « واعيا » . بل هو فعل « عفوي » في اغلب الاحيان . وهو اثر منطقي طالما ان ظاهرة الوحدة العربية هي ظاهرة اختبار تاريخية ، تتجه في حركتها نحو التعبير عن نفسها في اشكال ارقى وارقى . من هنا يكون دور « الوعي » هو التقليل من تعرج مسارها والدفع به الى الامام في سرعة اكبر ، والتقليل من الجهود المبادرة التي تدخل في سبل مسدودة ومقاومة الجهود المعرقلة التي تحاول وقف التقدم نحو الوحدة .

ان احد اكبر الاخطاء السائدة في مجال القوى المؤثرة في عملية التوحيد السياسية هذه هي انها ، باقتراحها امتلاك « الوعي » ، تظن انها قد ملكت السيطرة على مصير الظاهرة ومسارها ، ويترتب على هذا الظن الخاطىء تبديد جهود كثيرة واحتقار مجمل النشاط الجماعي للجماهير المنتجة ومحاولة فرض حلول وطرق واشكال للوحدة استقر عليها رأي هذه المجموعة او تلك باعتباره الحل او الطريق او الشكل الوحيد الصحيح للوحدة .

وقد لا يكون الحل او الطريق او الشكل المقترح « خاطئا » ولكنه قطعا ليس الوحيد ، كما انه لا يمكن ان يمضي مستقيما حتى وان انفرد بالخطة الصائبة . ولا يؤدي هذا الوقف الا الى الحلقية والجمود العقائدي والصبيانية اليسارية وما يترتب عليها من تعصب **فانشقاقية** تتناقض كليا مع جوهر الظاهرة ألا وهو « الوحدة » .

ان اتساع رقعة الوطن العربي وتفرع ظروفه ومشاكله وواقع التجزئة المفروضة عليه وبقاء اجزاء من ارضه محتلا احتلالا مباشرا ادى الى تنوع القوى الفاعلة من اجل الوحدة ، كما ادى الى تنوع مستويات التعبير عنها اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا وفنيا ، كما ادى الى تنوع مداخل العمل في سبيلها كل حسب مصلحته وموقفه وظروفه وادراكه . ومعنى ذلك انه ما دامت « العفوية » سائدة لا يوجد مدخل واحد محدد يؤدي الى الوحدة ، وانما مئات من المداخل والمساهمات وآلاف من المحاولات الصغيرة والكبيرة الدنيا والعليا ، المحلية والعامة المدركة وغير المدركة ، المنظمة وغير المنظمة الواعية وغير الواعية ايضا .

ويتميز الجهد الواعي الصحيح عن الجهد العفوي ، في هذه المجالات ، بأن الاول هو باستمرار جهد جماعي مدرك ومنظم ومستمر في الاتجاه التاريخي الصحيح بعمقه وبقدمه بينما الجهد العفوي « فعل » تمليه الظروف وتدفع اليه المصالح المحدودة ، فعل غير منظم ، واحيانا غير مدرك ، يصب في

الاتجاه الصحيح وان لم يكن يقصد ذلك ، ثم هو قد يضيع ويتبدد ان لم تجمعه وتلخص خبرته القوى المنظمة الواعية .

من هنا **ضرورة القيام بالجهد « الواعي »** اي ضرورة دراسة وتخطيط الخطوات العملية المطلوبة في طريق الوحدة ، وتنفيذها واختبارها بين الجماهير ، وتطويرها خطوة خطوة ومرحلة بعد مرحلة . مع التنبه المستمر انه في قضية كقضية الوحدة ستلتقي جهود « واعية » كثيرة مع جهود عفوية اكثر ، تماما كما تلتقي روافد الانهار لتشكلها فتستمر بذلك مياهها ولا تضيع ويزداد النهر الرئيسي قوة فلا يقهر .

ثانيا : الانتماء بين الشعور والادراك

لعل السؤال الذي تصعب الاجابة عليه هو « متى عرفت انك عربي ؟ » حتى اولئك المشتغلين بالقضايا العربية لا يمكنهم الاجابة عن هذا السؤال بشكل صحيح ودقيق والبعض يخلط بين « ادراكه » بأنه عربي ، وبين ادراكه بالمشاكل التي تواجه العرب .

والواقع ان العرب ، شأنهم في ذلك شأن اي قومية اخرى ، يولدون كأسلافهم عربا ، وتشكل العروبة بالنسبة لهم الاطار الحضاري العام الذي يتطور بفعل العوامل الداخلية فيه ، وايضا في وجه العوامل الخارجية المحيطة به . لذا فان الاجابة على سؤال « من انت » ؟ تتوقف على طبيعة السائل . فان كان السائل من نفس الاطار الحضاري العربي ، فان الاجابة ستكون تفضيلية مثل مصر او الجزائر او فلسطين او العراق ... الخ . وان كان السائل من البلد نفسه فان الاجابة ستزداد تفصيلا بذكر المحافظة او القرية او القبيلة ، اما اذا كان السائل من خارج الاطار الحضاري العربي ، اجنبي بالمعنى القومي للكلمة ، فان الاجابة ستكون « عربي » .

ولقد راهن المستعمرون طوال ما يقرب من قرن على ان تتطور السمات المحلية والقطرية لكي تحل في وجدان الناس وشعورهم محل السمات الحضارية العربية العامة . فينسب الناس انفسهم لاقطارهم بغض النظر عن طبيعة السائل . ومع ذلك فان تطور الصراع من اجل الاستقلال ومن اجل استعادة الوحدة ، واشتداد الصدام مع الاستعمار ومع ادنى اشكاله واكثرها وحشية ، ألا وهو الكيان الصهيوني العنصري الذي اقتطع ارض فلسطين من الوطن العربي ، قد اثبت انه لا يمكن ابدا القضاء على موقع العروبة من الشعور الانساني العربي ، كما ان المستعمرين والصهاينة انفسهم ، الذين راهنوا على التجزئة الاقليمية ، ظلوا يعاملون العرب بصفتهم **عربا** ، لا بصفتهم ابناء اقطار مختلفة . ويمكن ان نلاحظ انه في المناطق التي يحتدم فيها الصدام ضد الاستعمار تكون « العروبة » في ارقى اشكال حضورها . ان « العرب »الوحيدين الذين كانوا حتى سنوات قليلة مضت لا يحملون صفة قطرية معينة هم من يطلق عليهم « عرب » (اسرائيل) ، اي انهم عرب فقط بينما غيرهم هم عرب غزة او عرب الضفة ، او عرب سوريا او عرب مصر ، او عرب الجزائر ... الخ . ولقد اكتسب « عرب » (اسرائيل) صفة العرب الفلسطينيين عندما استطاع النضال الفلسطيني المسلح ان يفرض مرة اخرى الشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة .

ولا شك ان الانتماء للعروبة هو شعور يملأ كل عربي ، ولكن ادراك هذا الشعور بشكل مجرد يكون في اكمل صوره عند مواجهة النقيض الاجنبي .

الامر نفسه هو مع الطبقات والمراتب والفئات الاجتماعية المختلفة حيث الانتماء الى واحدة منها هو واقع عملي يومي ولكنه يتحول الى **ادراك مجرد** من خلال الصراع المنظم ضد ومع عوامل وقوى محيطة به اي خارجه . والفرق بين حالة الانتماء القومي اي الادراك المجرد بالطابع القومي العام للجماعة البشرية المعنية ، وبين الانتماء الى طبقة او مرتبة او فئة اجتماعية يكمن في ان الانتماء القومي هو الاطار العام لاي انتماء تفصيلي جزئي في داخله ، وهو يحكمه وإن تأثر به ، ثم هو اكثر ثباتا من مجمل الانتماءات الجزئية داخله . للانتماء القومي اذن شكلان : انتماء غير مدرك ، شعور وانتماء مدرك ، تجريد وفعل . **والوعي** ، يفترض الانتماء المدرك **الصحيح** الذي يساهم بنشاط فعلي في عملية تطوير الاشكال السياسية والاجتماعية المعبرة عن « الوحدة » في المرحلة المعينة . كما ان العفوية تفرز

كل يوم ، بل كل ساعة ، قوى كثيرة لانتمائها القومي وان لم تكتشف بشكل صحيح قوانين حركة الوحدة . **ان الانتماء القومي كادراك وفعل** ، هو بالضرورة انعكاس لدرجة التطور السياسي للظاهرة القومية ، وهو في الوقت نفسه يساهم في هذا التطور ويدفعه الى اعلى .

ثالثا : في الهرم الاجتماعي للوحدة العربية

يشكل العرب فيما بينهم هرما اجتماعيا لا تزال تنقصه قمة سياسية واحدة تحكم اوجهه وأطره بشكل مركزي . فالوحدة العربية بالمعنى السياسي هي قيام دولة مركزية واحدة للعرب . تلك هي اقصى الطموحات في هذه المرحلة .

ولكن الطريق الى هذه الدولة المركزية الواحدة تعترضه عقبات كثيرة اهمها واولها ان المستعمر قد اقتطع جزءا عزيزا من الارض هي فلسطين ، مجسدا بذلك خطط التقسيم التي رسمها وفرضها منذ ان وطأت اقدامه اراضي العرب . وبالاضافة الى احتلال فلسطين واستيطانها فان القوى الاجنبية تمارس نشاطها وتأثيرها بهدف استمرار انقسام العرب الى دول ودويلات وكيانات على امل ان تتطور هذه الى وحدات اقتصادية ذات استقلال خاص والى وحدات « قومية » ذات اطار خاص ، وبذلك تتثبت التجزئة كما يظن المستعمرون . وفي مواجهة نمو المد الوحدوي القومي لجأ المستعمرون والصهاينة الى اثارة الاقتتال الطائفي ومحاولة الوقيعة بين العرب وبين عدد من الاقليات العرقية التي تعيش معهم وبينهم منذ قرون ، بل واعلنوا ــ المستعمرون والصهاينة ــ انهم يسعون الى اقامة كيانات طائفية قد يجمعها شكل من اشكال « الكونفدرالية » ، هادفين بذلك الى اعتراض طريق المد الوحدوي العربي بعقبات من داخله .

والى جانب هذا النشاط الاجنبي فان مجمل علاقات الانتاج في البلاد العربية لا يزال يلعب دورا معوقا في طريق تقدم الوحدة ، وان كانت هذه العلاقات ذاتها تلعب في ذات الوقت دورا في دفع عملية الوحدة . ورغم كل هذه العقبات فان حركة الوحدة العربية قد استطاعت ان تسجل تقدما ملحوظا في السنوات الاخيرة ، صحيح انها لم تصل بعد الى شكل الدولة المركزية الواحدة ،ولكنها على اي حال خطت في اتجاه ذلك بضعة خطوات ، تمثلت في اشكال سياسية عديدة ، بعضها حكومي وبعضها غير حكومي ، كلها يتحرك ضمن اطار عربي او في ظل شعارات عربية عامة .

ويمكن القول بأن الهرم الاجتماعي العربي الحالي هو نتاج عضوي لتراكم نشاطات وحدوية جزئية متنوعة ومنتشرة في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والفنية .. الخ . كما ان تطور وسائط النقل والاتصال وبالذات اجهزة الاعلام قد ساعد الى حد كبير في صياغة اطار عام لهذا الهرم ، حتى وان كان اطارا غير منتظم . فهي تستخدم اللغة ، التي هي وعاء الحضارة والتراث ، اي وعاء القومية واطارها المميز لها عن القوميات الاخرى .

وقد لعبت حروب الاستقلال التي شهدها الوطن العربي بشكل متصل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الان دورا كبيرا ، بل هو الدور الاهم في عملية بناء هذا الهرم الاجتماعي وتقويته سواء بترسيخ اسسه المتمثلة في اتساع قاعدة الانتماء القومي جماهيريا خلال الحرب ضد السيطرة والاحتلال الاجنبي ، او بتدعيم عمده وأجهزته واطره واشكاله ، بما افرزته حروب الاستقلال هذه من اشكال سياسية قطرية كانت تنضم من فورها الى الاطر القومية القائمة الحالية والتي تجمع الاطر القطرية بحكم العضوية المباشرة على الاقل .

وعلى هذا فان نظرة عامة الى الهرم الاجتماعي العربي العام ، تبين انه ما يزال هرما غير منتظم ، وغير منظم في معظم اجزائه . بل وهلالي في بعضها حيث تختلط اشكال متقدمة من الانتاج بأشد الاشكال تخلفا في العلاقات ، وحيث تتعدد محاولات بناء مؤسسات نظامية قطرية تتصارع قياداتها بشكل حاد احيانا . كما ان هذا الهرم الاجتماعي العربي العام ثابت النمو قاعديا ، متغير النمو بالنسبة لكافة الاشكال التي تعلو فوق هذه القاعدة . اي ان سمات هذا الهرم الاجتماعي العام

تكون اكثر ثباتا كلما اقتربنا من القاعدة ، واكثر تغييرا بل وتعددا وتنوعا كلما ارتفعنا الى اعلى . ومجمل القول هو ان القاعدة الجماهيرية المنتجة التي تمثل قاعدة هذا الهرم هي القاعدة الثابتة والنامية في كل الظروف والمتجددة ايضا . انها مصدر الهرم الاجتماعي كله بما يحويه من مختلف القوى ، وهي التي تعيش عروبتها في حياتها اليومية ، بل ان كل ما تسميه الدراسات الاجتماعية « **بالطابع القومي** » ما هو الا نتاج خبرتها في كل جوانب الحياة الانتاجية والثقافية والمعنوية والفنية . وهي ـ اي هذه القاعدة الجماهيرية ـ تلعب ، بحكم دورها في الانتاج ووجودها ذاته ، دورا متفاوت التأثير في تحديد موقف وسياسة القوى المنظمة الحاكمة ، كما تتاثر بها . وهي ايضا التي تدفع كل **انحراف** عن طريق الوحدة العربية ، كما تدفع ثمن كل **قوقعة اقليمية** تلجأ اليها قوة قائدة .

نحن اذن امام هرم اجتماعي ذي طابع قومي يتشكل القسم الاكبر فيه من قوى جماهيرية غير منظمة ، تمارس تغذية الطابع القومي والحفاظ عليه من خلال حياتها اليومية ، كما يحوي العديد من القوى المنظمة التي تحاول ، كل حسب رؤيتها ومصلحتها ، قيادة هذه الجماهير او التأثير فيها على الاقل .

ان العلاقة بين هاتين القوتين ضمن الاطار القومي العام هي علاقة الوحدة والصراع ، الوحدة ضمن الهرم الاجتماعي العربي الموجود ، والصراع من اجل استكمال الوحدة ، اي الصراع من اجل افضل الطرق لتحقيق الوحدة السياسية العربية . هذه العلاقة العامة تحكم كل نشاط جماعي منظم في الوطن العربي مهما كان شكله . وكل نشاط او اجراء يضر بقاعدة الوحدة الموجودة يفشل مهما كان مصدره ، وكل نشاط أو اجراء يقوي هذه القاعدة ينجح وان كان صغيرا .

ولا شك ان تقوية قاعدة الوحدة ، تعني اولا تقوية الادراك بالانتماء العربي عند اوسع القطاعات الجماهيرية في الوطن العربي ، اي الانتقال من مستوى الشعور بالعروبة الى مستوى الادراك المنظم لها ، لان ذلك يؤدي الى تدعيم وتثبيت وتقوية قاعدة الهرم الاجتماعي ـ السياسي المأمول بتحقيق الوحدة ، ومن ثم ارسائها على اسس قوية جماهيرية .

رابعا : التنشئة الاجتماعية والانتماء القومي

ويمكن تعريف الانتماء القومي بأنه الوعي ، الخاص والعام ، بطابع حضاري يمثل مجموعة « الانماط المختلفة من السلوك والتفكير والمعاملات التي اصطلحت عليها الجماعة في حياتها ، والتي تناقلتها الاجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي لا عن طريق الوراثة البيولوجية ، هي ما يتعلمه الخلف من السلف عن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها ، وعن طريق الاشارة والرموز . وتندرج تحت ذلك طريقة حصول الانسان على قوته واسلوب تعامله مع غيره من الناس ، وانواع القيم والاتجاهات المادية والاجتماعية والمعنوية التي يحرص المرء على التمسك بها ورعايتها أو على نبذها والتنكر لها [١] .

ولا بد ان يكون هذا الطابع الحضاري « طابعا مشتركا بين مجموعات اجتماعية بارزة ... ويكون نتاجا لخبرتهم » [٢] .

من المسلم به ان هذه العملية كلها ، تتم عبر تفاعل الفرد مع المجتمع المحيط به ، من خلال عملية الانتاج اليومية البسيطة والمركبة بحيث تجمع الخبرة وتنتقل وتؤثر على وحدة المجتمع القاعدية الاجتماعية الا وهي الاسرة والاقران . انها تلك العملية المسماة بالتنشئة الاجتماعية والتي يقول عنها علماء الاجتماع ، انها هي « التي تخلق للمجتمع صورته الموحدة » [٣] . ذلك يعني انها عملية يومية

---

(١) د . حامد عمار ، **بعض مفاهيم علم الاجتماع** ، القاهرة ١٩٥٩ ص٨ ـ عن كتاب مقدمة لعلم النفس الاجتماعي للدكتور مصطفى سويف .

(٢) د . قدري حفني ، **تجسيد الوهم** ، مؤسسة الاهرام القاهرة ١٩٧١ ، ص ٥٦ .

(٣) المصدر السابق .

حياتية « عفوية » ويقوم بها ملايين الناس . وانه مهما اختلف « نمط السلوك او طراز الشخصية » بسبب تغير الظروف المحلية ، فان هذا الاختلاف هو بمثابة عامل جزئي متغير محكوم بالعامل الثابت الذي هو الطابع القومي .

ان هذا « الطابع القومي » المكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية الاولية يتحول من « **شعور وفكرة وقيم مجردة** » الى « **قوة مادية** » في الحياة ، لانه ملتحم التحاما عضويا بالملايين ، وبالتالي يحكم سلوكها الجماعي العام ويوجهها . ان ادراك هذه الحقيقة ، حقيقة ان **الشعور او الطابع القومي** هو قوة مادية هامة في جميع مجالات الحياة ، جعل كافة القوى التي تتصدى لتحقيق هدف اجتماعي معين أو قومي عام ، أو حتى مصلحة خاصة تهتم بكل وسائل تنشيط هذا الشعور او استغلاله او استثارته او تعبئته ، كل حسب الدوافع والمصلحة ، واحيانا يحاول البعض ان « يصنعه » [٤] . وفي سبيل ذلك تسعى كل قوة الى محاولة السيطرة على وسائل التأثير العامة كأجهزة الاعلام والمؤسسات التي تلعب دورا في التنشئة الاجتماعية ، كالمدارس والمؤسسات الثقافية والفنية . ومن المنطقي انه **لا توجد قوة** يمكنها السيطرة على المراحل الاولى من سنوات التنشئة الاجتماعية . فهذه تقوم بها الاسرة والاقران قبل سن المدرسة او العمل ، ويبقى التأثير ــ لا السيطرة ــ قاصرا على استعمال اجهزة الاعلام والتوجيه وتأثيرها على الاسرة (وهو تأثير هام على كل حال) . ولانه لا يمكن السيطرة على عملية التنشئة الاجتماعية ــ فان من المستحيل السيطرة على عملية تكوين الطابع القومي التي تتم خلال سنوات التنشئة الاجتماعية ، وعبر اللغة والعادات والتقاليد بشكل خاص ، كما من المستحيل تعطيلها ابدا . وهناك في تاريخ العرب الحديث تجارب هامة تؤكد لنا ذلك . فالجزائر العربية ظلت مئة واثنين وثلاثين عاما محرومة من استعمال اللغة العربية سواء في الحياة الرسمية او في عمليات التبادل اليومية في المدينة ، فضلا عن الحرمان من المدارس . ومع ذلك فأن الطابع القومي العربي ظل كما هو في جوهره ، بل كان العامل المادي الحاسم الاول في مرحلة الثورة المسلحة وذلك في تعبئة الجماهير واستثارة حماسها . وتجربة العرب الفلسطينيين الموجودين في ظل الحكم والاحتلال الصهيوني تثبت ذلك ايضا .

فان لم يكن من الممكن السيطرة على عملية التنشئة الاجتماعية او تعطيلها فانه من الممكن التأثير فيها . فالعملية يقوم بها كما ذكرنا الاسرة والاقران ، وهؤلاء يتأثرون ، بالاضافة الى ما يكتسبونه من خبرة حياتية ، بما هو سائد بشكل عام في المجتمع ، او بما يوجه لهم بشكل خاص ، كما ان هذه العملية **العفوية** يمكن **تنظيمها** ولو بشكل أولي (تجلت بعض البلاد في تنظيمها بشكل كبير عندما ضمنت التعليم الاولي لكل الاطفال حتى سن معين) وذلك عن طريق التوسع في المدارس الاولية وحضانات الاطفال . **وكلما كانت العلاقة بين هذه المدارس والحضانات وبين الاسرة علاقة تفاعل بناء ، كانت عملية التنشئة الاجتماعية منظمة وفعالة ومثمرة .**

ولكن « الانتماء القومي » لا يتحقق فقط بما تثمره « التنشئة الاجتماعية » في هذا المستوى الادنى من الهرم الاجتماعي والعمري . « فالانتماء القومي » كعامل متغير يعلو وينخفض ضمن اطار الطابع القومي العام (وهو ثابت) ، ويحتاج لكي يتحقق الى عمل ونشاط منظم واع والا ظل عند المستوى الذي تفرزه عملية التنشئة الاجتماعية العفوية ، اي عند مستوى القاعدة الافقية دون اي نمو رأسي .

في هذا المجال ، مجال النشاط المدرك ، او النشاط الواعي لتحقيق وترقية « الانتماء القومي » تتعدد الاتجاهات وتختلف التوجهات ، وتتصارع الافكار بل وتتصادم القوى حول من يسيطر على

---

(٤) تحاول الحركات العنصرية والفاشية صنع الطابع القومي . وذلك بفرض نموذج قومي معين على الجماهير مستخدمة في ذلك كافة الوسائل ، لكنها لم تنجح الا جزئيا ومؤقتا ، هذا ما تبينه تجربة المانيا النازية ، وتجربة العدو الصهيوني ، خصوصا هذا الاخير الذي ظن انه نجح عندما اقام دولة (اسرائيل) باعتبارها الدولة القومية لليهود ، فاذا بالمشكلة التي يواجهها الان هي التناقض المتنامي بين « النموذج الاسرائيلي » وبين اليهودية واليهود خارج فلسطين المحتلة .

ادوات وسائل الانتاج وبالتالي اجهزة التوجيه والاعلام ، ومن يفرض وجهة نظره ــ التي تعكس مصلحته ــ على هذه الاجهزة .

ان تطور وسائط التأثير وتعقد تقنيتها ، وارتفاع تكاليفها يكاد يجعل القطاعات الواسعة من الجماهير عزلاء من السلاح في وجه القوى التي يمكنها ماديا السيطرة على هذه الوسائط . كما ان التوجه العام السائد الان ــ في بلادنا على الاقل ــ نحو التخصص ، ومزيد من التخصص ، برغم وجود قاعدة امية واسعة ، يخلق فجوة كبيرة بين قمة الهرم التعليمي وبين قاعدته مما ينعكس بدوره على التربية ، التي هي التنشئة الاجتماعية المنظمة ، فتنتشر الانماط الغريبة عن طابعنا القومي ، وتتشوه صورة المجتمع الموحدة .

وفي مواجهة هذه الاخطار الواقعية ولأهمية الحفاظ على الطابع القومي في وجه عمليات الاذابة والتقسيم الصهيونية الاستعمارية ، ولضرورة الارتقاء بمستوى الانتماء القومي في وجه عمليات الاستنزاف المستمرة لامكاناتنا المادية والبشرية ، بالهجرة حينا وبالاغتراب حينا آخر ، وبالاستغلال الاستعماري لثرواتنا الطبيعية ، في مواجهة الاستغلال والاستعمار وللسيطرة لا بد للقوى الوحدوية الواعية من ان تتوجه في كل نشاطاتها باستمرار الى التأثير على عملية « التنشئة الاجتماعية » وتنشيط عملية « الانتماء القومي » بحيث تضمن زيادة دور الجماهير الواعي والمنظم .

والسبيل الى ذلك ، يبدأ برفض المناهج والاساليب الفوقية التي تدير ظهرها الى قدرة الجماهير ــ التي لا بديل لها ــ في عملية التنشئة الاجتماعية ، ثم ان يشجع تنظيم هذه العملية الاولية بتشجيع مختلف اشكال التنظيم في كافة مجالات النشاط الانساني بحيث تزداد درجة التفاعل اليومي بين الناس ، وبحيث تقل ــ الى ادنى درجة ــ الاثار السلبية المترتبة على التفتت الانتاجي والعلاقات الانتاجية المتخلفة . ثم ان تتولى هذه القوى الوحدوية الواعية ، عبر نشاط منظم تغذيه نشاط الجماهير العفوي بنشاط منظم يقدم له القدرة والمثل ، ويستقطب منه المزيد .

ففي الصراع الذي يدور بين القوى المختلفة من اجل التأثير على عملية صياغة الانتماء القومي ، تتعدد كما ذكرنا الاجتهادات والاتجاهات حسب تعدد المصالح وتنوع الظروف ، لذا لن يكون سهلا على اي قوة ان « تخترع» نموذجا قوميا من عندها ولا من الكتب والنظريات ، وانما لا بد ان تكتشف القوى الواعية « نموذجها القومي » من بين الجماهير ثم تقدمه لها في الممارسة .

ولا شك ان كل النماذج التي تقدمها كل القوى هي نماذج عربية ، بالاسم على الاقل ، ولكن النموذج الصحيح هو ذلك الذي يجمع بين جوهر الطابع القومي الا وهو العروبة وبين مظهر هذا الطابع الذي لا بد وان ينبع من الواقع الجماهيري لا من الاحلام والامال . ولا سبيل الى الوصول الصحيح لهذا النموذج الصحيح ، بدون التحليل الصحيح للاوضاع والظروف التي يمر فيها وطننا العربي ، بحيث نتحاشى الهروب الى الامام والقفز عن المراحل ، كما نتجنب الوقوع في حمأة الاقليمية أو العصبوية الضيقة .

وفي المرحلة الحالية من نضال امتنا العربية ، حيث تواجه الامة العربية كلها مهمة استكمال استقلال وتحرير اراضيها ، حتى يمكنها ان تحقق الوحدة السياسية ، يكون النموذج المطلوب ــ بل الموجود الان في الواقع ــ هو نموذج المقاتل الصلب البسيط المنتظم في نضال مسلح واع والذي يواجه عدو الامة الاول ألا وهو الكيان الصهيوني والاستعمار ، من اجل تحرير الارض ، اي من اجل تحرير فلسطين .

هذا النموذج القدوة لا يمكن ان يتحقق مجسدا امام الجماهير الا بالممارسة وحدها . اي بالانتظام في الثورة المسلحة وممارستها . ويمكن القول بأن مثل هذا التوجه هو التوجه الانسب والاصح فيما يخص عملية التنشئة الاجتماعية ، وتنمية الانتماء القومي .

فممارسة النضال المسلح ضد الاستعمار ، هي عملية ممكنة بالنسبة للجماهير وهي في نفس

الوقت تساهم في تغيير العلاقات فيما بينها الى الافضل ، كما تساهم في تغيير واقعها النفسي دامغة الى اقصى حد بروح الهجوم والمبادرة والعزة والكرامة .

ثم ان ممارسة الثورة المسلحة ضد الاستعمار، هي ايضا عملية لا يمكن احتواؤها ضمن حدود قطرية اقليمية ، بل ساحة قومية واسعة تساهم فيها قوى من كل الامة العربية ، فتخلق بذلك في واقع الممارسة وحدة نضالية بين حملة السلاح وتقدم لمجموع الامة العربية نموذجا راقيا للوحدة المنشودة .

كما ان ممارسة الثورة المسلحة ضد الاستعمار ، تتطلب تعبئة الامكانات البشرية والاقتصادية والثقافية وغيرها ، وهي بهذا تؤثر على شكل علاقات الانتاج القائمة وهذه بالتالي تؤثر في العادات السائدة فتنمي الايجابي منها وتقضي على السلبي المترتب على تفتت الانتاج وسيادة العلاقات الحرفية .

ان الحرب الثورية بكونها موقفا عمليا سياسيا ثقافيا مكثفا ، من شأنها الهاب الشعور القومي وما يترتب عليه من اتساع قاعدة الانتماء القومي الفعال في الامة ، وما يترتب على ذلك بدوره من تأثير مباشر على عملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة للاجيال الناشئة . وفي الوقت ذاته ، فان الحرب الثورية بصفتها الممارسة الاكثر صدقا وفعالية واثرا ستكون هي وحدها الصوت المسموع والكلمة المؤثرة ، بحيث تتضاءل بجوارها كل جهود اعلامية او توجيهية مغايرة . بل هي تغير منحى هذه الجهود وتجعله ضمن خطط القتال .

واخيرا ، فان ممارسة القتال ضد الاستعمار ستؤدي بالضرورة الى مزيد من تنظيم الجماهير وتنمية حبها للنظام والجماعية ، مما يعمق من اثر التفاعل الاجتماعي في عملية التنشئة القومية الصحيحة .

لذلك ، يمكن القول ، دون تبسيط مخل ، بان ممارسة الثورة المسلحة هي ، في ذات الوقت ، ممارسة للتربية التي هي تنظيم لعملية التنشئة الاجتماعية ، العفوية . كما هي تجسيد للانتماء القومي الايجابي في ارقى صيغه واكمل صوره .

ساطع الحصري : المفكر والداعية والنموذج

الياس سحاب

كاتب في القضايا الفكرية والثقافية والسياسية . عمل مسؤولا عن تحرير « الحوادث » و « المحرر » و « بيروت المساء » و « شؤون فلسطينية » . ويعمل حاليا كاتبا في « السفير » (تصدر كلها في بيروت) .

نقل عن لسان ساطع الحصري [١] انه عندما كان يسأل في الستينات عن خشيته من ان يكون الزمن قد تجاوز كتبه والأفكار الواردة فيها ، كان يرد دائما بانه سيكون اسعد الناس لو تحقق ذلك ، لان معناه ان الوعي العربي بضرورة الوحدة العربية قد نضج الى درجة كبيرة ، وهذا اهم ــ بالنسبة اليه ــ من استمرار الحاجة الى كتبه ، والى الأفكار الواردة فيها .

والحقيقة هي ان تقييم ساطع الحصري وكتبه يكون مبتورا وغير منصف ، بل وغير دقيق علميا ، اذا بقي محصورا بالمعايير الفكرية الأكاديمية المحضة المجردة (بغض النظر عن نتيجة التقييم بهذه المعايير) لأن الحصري كان مفكرا ، وداعية ، ونموذجا حيا لفكره ودعوته ، بل ان صفته الدعاوية هي العنصر المحوري في فكره وكتاباته وحياته . ولعل في العبارة المنسوبة اليه في مطلع هذا المقال تحديداقاطعالموقفه من هذه المسألة ، فالذي يهم ساطع الحصري في النهاية هو وصول دعوته الى هدفها ، او اقترابها من هذا الهدف ، وليس اهتمامه بعمر كتبه وعمر افكاره واجتهاداته ، او قيمتها الأكاديمية المحضة .

وعلى اية حال ، فان « العقيدة القومية » ثم الدعوة لهذه العقيدة ، هي التي دفعت ساطع الحصري الى معترك البحث الفكري ، والكتابة الفكرية ، بل والعراك الفكري . فساطع الحصري لم يات الى الفكر السياسي من العمل السياسي ، ولا من الدراسات الأكاديمية السياسية او الاجتماعية او الانثروبولوجية ، بل ان نشاطه العملي الأساسي ، والوحيد ، بقي مجاله التربية ، بشقيها النظري والعملي ، سواء في الادارة العثمانية (حتى انهيار الامبراطورية عام ١٩١٨) حيث كان اول من ادخل علم النفس وعلم التربية الى دار المعلمين في اسطنبول ، حتى بلغ نشاطه في هذا المجال حدا دفعه الى حمل لقب « ابو علم التربية التركي » [٢] ، او في حكومة الملك فيصل الاول في دمشق ، او في حكومة

---

(١) اعتمد هذا المقال بشكل اساسي على دراسة صدرت عام ١٩٧١ عن جامعة برنستون الاميركية بعنوان
The Making of an Arab Nationalist, Othomanism and Arabism in the life and thought of Sati' Al -Husri by William L. Cleveland - Princeton University Press.
ويبدو ان هذا الكتاب هو اشمل وادق دراسة صدرت حتى الآن ، بأية لغة ، عن حياة ساطع الحصري وفكره ، فقد اعتمد مؤلفها على المؤلفات الاساسية للحصري ، بالتركية والعربية ، ثم على عشرات المراجع (اكثر من مائة وثلاثين) مؤلفا بالعربية والتركية والانجليزية والفرنسية ، عن الحصري وعصره ، بالاضافة الى مقابلة شخصية مع ساطع الحصري شخصيا (عام ١٩٦٦) ، واربع مقابلات مع ولده خلدون الحصري (عام ١٩٦٧) .

(٢) نيازي بيركس ، تطور العلمانية في تركيا(بالانجليزية). *The Development of Secularism in Turkey* ,Me Gill University Press ,1964 ,P .405وحلمي ضيا اولكن ، **التاريخ الثقافي المعاصر لتركيا ــ بالتركية** (المجلد الاول ــ صفحة ٢٧٠) .

الملك فيصل بعد انتقاله الى بغداد . ولعل اكثر مناصبه العملية اقترابا مباشرا من السياسة (وان كان هذا الاقتراب نسبيا) ، هما منصباه العمليان الاخيران في القاهرة ، كمستشار للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية ، من ١٩٤٧ حتى ١٩٥٣ ، ثم كرئيس لمعهد الدراسات العربية العليا من ١٩٥٣ حتى تقاعده عن العمل عام ١٩٥٧ .

واذا كانت ظاهرة صحية في الحياة العربية المعاصرة ، ان يمارس مفكر كل هذا النشاط السياسي في جوهره ، وكل هذا التأثير الفكري ـ السياسي على اجيال متعاقبة من بني امته ، انطلاقا من مقعده في الحقل التربوي ، فان هذه الظاهرة كانت طريقا حتمياً ، بل لعلها طريقا اوحد امام طبيعة التزام ساطع الحصري بفكرة القومية العربية والدعوة ، تلك الطبيعة التي اتخذت شكلا من اشكال التصوف والترهب ، قولا وممارسة .

واذا كنت قد افردت مقدمة المقال للحقائق الاساسية في حياة ساطع الحصري وفكره ، قبل الدخول في التفاصيل ، فلعل الحقيقة الأقل ذيوعا وانتشارا هي ان ساطع الحصري ، وان كان يحتل ، في رأي الكثيرين ، مركز الصدارة في قائمة مفكري ودعاة الوحدة العربية والفكرة القومية العربية المعاصرة ، سواء في مثابرته ، او غزارة انتاجه او طول فترة نشاطه ، فان ساطع الحصري لا يحتل مركز الصدارة حتماً بمعيار التسلسل الزمني . بل انه ـ اكثر من ذلك ـ لم ينتقل الى الايمان بالقومية العربية والوحدة العربية والدعوة لهما ، الا منذ عام ١٩١٩ ، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، وبعد ان شارف على الاربعين من عمره . ففي الوقت الذي كانت فيه الدعوة للعروبة تتصاعد في اواخر القرن التاسع عشر ، وتشكل لها الجمعيات العلنية والسرية ، كان ساطع الحصري يخوض معركة فكرية ـ سياسية اخرى ، هي معركة « العثمانية » ، وسط التيارات المتلاطمة التي اندفعت لمحاولة انقاذ الامبراطورية العثمانية من الانهيار بسلسلة من التحركات والانتفاضات الاصلاحية ، بين ١٨٨٠ و ١٩٠٨ : ولكن لهذا التبدل الجذري في توجهات ساطع الحصري قصة معقدة نتركها للتفاصيل .

بقي ان نشير الى الحقيقة الأساسية الاخيرة في هذه المقدمة الموجزة والمركزة عن ساطع الحصري ، هي انه كان ، وهو المسلم المؤمن ، احد اشد المفكرين العرب تعصبا لعلمانية القومية العربية . ولهذا الموقف جذور في خلفية تربية ساطع الحصري وتكون شخصيته وفكره ، سنطلع عليها لاحقاً .

لمحة عن حياته (١٨٨٠ ـ ١٩٦٨)

ولد محمد هلال ابن السيد مصطفى الحصري (والد ساطع الحصري) في حلب ، عام ١٨٤٠ ، ابنا لعائلة تعمل في التجارة ، وتحتل فيها مركزا مرموقاً ، وتلقى علوم اللغة العربية والشريعة في المدرسة الاسماعيلية في حلب ، ثم تابع دراساته في جامعة الأزهر بالقاهرة ، وعاد منها ليعمل في منصب من مناصب القضاء في عدة مدن من ولاية حلب ، ثم تزوج فاطمة بنت عبد الرحمن الحنيفي ، من حلب ايضا . ثم تدرج في سلك القضاء حتى عين رئيسا لمحكمة الاستئناف الجنائي ، في صنعاء ، عاصمة ولاية اليمن ، وفيها ولد ابنه مصطفى ساطع ابن محمد هلال الحصري (ساطع الحصري) عام ١٨٨٠ . (وقد ثبت خطأ الرواية التي تقول انه ولد في حلب عام ١٨٧٩) . وقضى ساطع السنوات الثلاث عشرة الأولى من حياته منتقلا مع اسرته في عدد من ولايات الامبراطورية العثمانية : أضنه ، انقره ، طرابلس الغرب ، اليمن (ثانية) ثم قونية . وبسبب هذا التنقل والتعدد في مواقع الاقامة ، لم يتح لساطع الحصري ان يتلقى العلوم المدرسية التقليدية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، والتي كانت ترتكز اساسا الى حفظ القرآن ، ودراسات اسلامية اخرى . فكان ان تلقى تعليمه في البيت ، حيث كانت اللغة المحكية هي اللغة التركية التي يتكلمها ابناء الطبقة العثمانية المثقفة ـ بالاضافة الى اللغة العربية ـ التي لم يستعملها الحصري كلغة اولى ، الا بعد ١٩١٩ . كما انه درس الفرنسية على اخويه الكبيرين بشير مجدي ، وبديع نوري . وقد كان لهذا التعليم ، غير التقليدي بالنسبة لذلك العصر ، اثر كبير في احتفاظ ساطع الحصري ، طول عمره ، بموقف مبني اساسا على العلمانية .

المرحلة العثمانية

انخرطت اسرة الحصري (محمد هلال وأبناؤه) في خدمة الامبراطورية العثمانية . فكان الابن الأكبر بشير مجدي مدعياً عاماً في حمص وبنغازي . اما الابن الثاني ، بديع نوري (اكبر من ساطع بأربع سنوات) فقد تدرج في المناصب ليصبح رئيساً للادارة البلدية لعاصمة السلطنة العثمانية (ما يوازي منصب محافظ العاصمة في ايامنا) ، ثم اصبح متصرفاً (المنصب الذي يلي مباشرة منصب الوالي) لمتصرفية الناصرية ، في ولاية البصرة ، حيث اغتيل مع قائد حامية البصرة ، فريد بك ، على يد رجال السيد طالب النقيب .

فكان طبيعياً ان يسير ساطع على طريق اسرته في سلم الادارة العثمانية . وقد بدأ محمد هلال الحصري اعداد ابنه ساطع اعدادا مباشرا لذلك عام ١٨٩٣ ، عندما انتقلت العائلة الى طرابلس الغرب ، ليلتحق ساطع بمعهد « ملكية مكتبي » في اسطنبول ، وهو المعهد العلماني الذي تأسس عام ١٨٥٩ ، ثم خضع للتحديث عام ١٨٧٧ ، والذي كان يتولى اعداد الموظفين للسلك الاداري العثماني . وقد تحول هذا المعهد ، حتى تحت حكم عبد الحميد الثاني ، الى مركز اختمار ثقافي ، حتى ان عددا من قادة « تركيا الفتاة » فتحوا عيونهم على تعاليم الحرية والوطنية ، على يد بعض اساتذة هذا المعهد .

الا ان ساطع الحصري ــ برغم هذا الجو ــ اتجه في البداية الى استغلال معرفته بلغة اجنبية ــ الفرنسية ــ لاكتشاف اسرار الرياضيات والعلوم الطبيعية الغربية ، بدلا من الفقه الدستوري والتعاليم الوطنية . وقد غز السير في هذا الطريق ، حتى تابع دراساته في العلوم الطبيعية والرياضيات في الكلية الحربية وكلية الهندسة ، وحتى استحق لقب « ارخميدس » ، الذي كان زملاؤه ينادونه به . وتخرج عام ١٩٠٠ ، بعد ان بذل جهدا خاصاً للتعمق في دراسة الطبيعيات واللغة الفرنسية .

وقد يبدو غريباً ان نعرف الآن ، ان الرسالة الأولى التي ندب ساطع الحصري نفسه لها بعد تخرجه هي تكريس حياته لنشر المعرفة بالعلوم الطبيعية ، على طريقة العلامة الفرنسي الذائع الصيت في تلك الفترة لويس فيغييه [٣] . وقد اقتنعت وزارة المعارف بمجهوداته هذه ، لدرجة تعيينه استاذا للعلوم الطبيعية في مدرسة ثانوية بولاية « يانيا » ، على الحدود الحالية بين اليونان والبانيا ، حيث مكث ثماني سنوات متتالية ، وحيث فتح عينيه للمرة الأولى على التطلعات القومية لأبناء البلقان ، بين « يانيا » و « منستير » ، وقد كانت الثانية مقرا لضباط جيش « تركيا الفتاة » ،وحيث تعاون ساطع مع « جمعية الاتحاد والترقي » ، ولكنه اصطدم بالمناورات السياسية ، فاستقال وعاد الى اسطنبول ، حيث اسس مجلة « انوار العلوم » ، وتابع نشاطه التربوي ، مع الاحتفاظ بعلاقاته الحسنة مع الجمعيات الاصلاحية التركية ، التي اصبحت لها كلمة عليا في شؤون الامبراطورية بعد ١٩٠٨ ، الأمر الذي جعل ساطع الحصري واحدا من اكثر المربين والمثقفين نفوذا في الامبراطورية العثمانية ، في الفترة التي تميزت باعادة الحياة الدستورية .

في ظل هذه الفترة الخصبة والمضطربة ، التي شهدت خلع السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٨) وتنصيب مرشح « تركيا الفتاة » محمد الخامس مكانه ، ثم تسلم « جمعية الاتحاد والترقي » السلطة مباشرة عام ١٩١٣ ، وراء واجهة دكتاتورية عسكرية ثلاثية القيادة ، نشب صراع القيادات الفكرية التي كانت تحاول الاجابة عن السؤال الأهم : « كيف نخلص الامبراطورية » ؟

عن هذا السؤال انبثقت ثلاثة تيارات فكرية اساسية : التيار العثماني ، الذي كان ينادي بدولة عثمانية علمانية ، يكون فيها ولاء الجميع للامبراطورية العثمانية ، بغض النظر عن القومية او الدين ، وكان ابرز وجوه هذا التيار ، الشاعر الكبير توفيق فكرت ، وكان ساطع الحصري احد ابرز دعاة هذا التيار . والتيار الاسلامي . وأخيرا ، التيار التركي ، الذي بدأ ينادي بضرورة ابقاء الوطنية التركية محورا قيادياً للامبراطورية العثمانية ، وكان ابرز دعاة هذا التيار « ضياء غوكلب » .

---

(٣) Louis Figuier (١٨١٤ ــ ١٨٩٤) كان أحد اعلام التبسيط الشعبي للعلوم الطبيعية ، ومن اوائل الذين كتبوا زاوية علمية في الصحافة الفرنسية اليومية .

وعلى الرغم من مناظرات عنيفة قامت بين الحصري وغوكلب ، فقد عاد الحصري ، بعد انهيار الامبراطورية العثمانية ، وانضمامه الى تيار القومية العربية ، يستعيد الكثير من افكار وحجج خصمه القديم ، عندما كان يستحث الهمم حول دعوة القومية التركية ، (وهذا ما سنتابعه في موقع لاحق من المقال) .

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان التيار العثماني الذي كان الحصري من كبار دعاته ومنظريه ، كان يسمى بـ « تيار الغربنة » او « التغرب » Westernization لأنه كان يستعيد الكثير من مفاهيم العلمنة والحرية والمساواة من الغرب . وقد كانت آثار ثقافة ساطع الحصري الفرنسية شديدة البروز في المعارك الفكرية والدعاوية التي كان يخوضها في هذا المجال .

في تلك الأثناء ، كان ساطع الحصري قد تولى منصب مدير دار المعلمين (١٩٠٩ ـ ١٩١٢) ، التي ادخل الى برامجها علم التربية وعلم النفس ، فأحدث ثورة في الأنظمة التربوية التركية جلبت له احترام اخصامه الفكريين .

بقي عنصر هام في الرحلة العثمانية من حياة ساطع الحصري وفكره ونشاطه ، لا بد من استجلاء امرها ، قبل الانتقال الى المرحلة العربية ، وهو موقفه من الحركات والدعوات القومية العربية التي كانت ناشطة في تلك الأثناء .

بدأ التململ العربي ضمن اطار الامبراطورية العثمانية يتجسد في عدة اندية وجمعيات كان اهمها : المنتدى الأدبي (في اسطنبول) ، حزب اللامركزية الادارية العثماني (في القاهرة) ، « العهد » (جمعية سرية مؤلفة من عناصر عسكرية في اسطنبول) ، و « الفتاة » (جمعية سرية تأسست في باريس) .

ومع اختلاف مناهج هذه الجمعيات وبرامجها ، كانت كلها تلتقي على طلب الاصلاح والتطوير ، ضمن اطار الامبراطورية العثمانية . ويبدو ذلك واضحاً على كل حال ، في مقررات المؤتمر العربي الذي عقد في باريس عام ١٩١٣ ، التي اقترنت فيها المطالب باعلان الولاء للامبراطورية العثمانية . الا ان ذلك لم يمنع تحول اثر نشاط هذه الجمعيات الى ايقاظ حاد لمشاعر قومية عربية . وكانت تربط ساطع الحصري صداقة شخصية بعبد الكريم الخليل (احد شهداء ١٩١٦) ، وامين المؤتمر العربي في باريس ، الا ان ذلك لم يمنع ساطع الحصري من الامتناع عن المشاركة النشيطة في الحركات العربية . ومع ان الحصري قبل دعوة عبد الكريم الخليل ، لالقاء خطاب في « المنتدى الأدبي » الا انه رفض الاقتراح الذي قدمه الخليل ، ووافقت عليه السلطة العثمانية ، بأن يعين ساطع الحصري مستشارا عربياً لوزارة المعارف ، وهو احد المناصب التي استحدثت لامتصاص نقمة التطلعات العربية بعد مؤتمر باريس ، وقد كان رفض الحصري فورياً وحاسماً . الا ان القسوة التي عامل بها جمال باشا الوطنيين العرب في لبنان وسورية (وبالذات اعدام صديقه عبد الكريم الخليل) هز ساطع الحصري ... ثم بدأت الأمور تتوضح وتحسم مع انهيار الامبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الاولى .

المرحلة العربية

مع ان تركيا امضت فترة غير قصيرة من الحيرة وعدم وضوح الصورة ، بين انهيار الامبراطورية العثمانية وظهور شخصية الدولة التركية الوطنية (الذي توج باعلان كمال اتاتورك الغاء الخلافة) ، وضع ساطع الحصري امام الخيار الصعب منذ الأيام الأولى لانهيار الامبراطورية ، بين صداقاته وذكريات حياته الحافلة في اسطنبول ، وبين الوضع العربي الجديد الذي بدأ مخاضاً حافلا بالاحتمالات مع دخول الملك فيصل الأول الى دمشق .

يقول محمد كرد علي انه وجه دعوة الى ساطع الحصري للقدوم الى دمشق وتسلم منصب مدير دار المعلمين . ومع ان الحصري لم يرد على الدعوة ـ يقول كرد علي ـ فان تلاميذه الكثر في دمشق نشروا

اخبارا كثيفة عن قرب قدومه ، الأمر الذي اضطر رضا الركابي ، الحاكم العسكري لدمشق ، الى الموافقة على تعيين ساطع الحصري مديراً عاماً للمعارف في سورية ، وهو موقع اكثر نفوذاً من الذي عرضه عليه محمد كرد علي [٤] .

واذا كان من غير الواضح ـ في المراجع المتوافرة ـ الاطلاع بدقة على طريقة تفكير ساطع الحصري وتصرفه في تلك الفترة الانتقالية الصعبة والدقيقة بالنسبة له ، فقد عبر عن ذلك بنفسه في مقابلة اجراها معه وليام كليفلاند عام ١٩٦٦ ، فقال : « انا عربي ، وعندما انفصل العرب عن الامبراطورية العثمانية ، لم يكن امامي خيار سوى الانضمام اليهم » [٥] . ومن التفاصيل التي تجدر الاشارة اليها عن الضغوط التي بذلها اصدقاء الحصري الأتراك من اجل استبقائه في اسطنبول ، خروج صحيفة « يخت » يوم سفره بعنوان قالت فيه : « لقد انفصلت سوريا عنا » [٦] . وعلى اي حال ، يبدو ان تلك الفترة التي اصبح فيها واضحاً امام العرب العاملين في تركيا ان ولاءهم للامبراطورية العثمانية قد اصبح ولاء لشيء غير موجود بعد انحسار غبار الحرب العالمية الأولى ، فقد رحل الوف منهم عائدا كل الى البلد العربي الذي ولد فيه او جاء منه .

كان واضحاً في تلك الفترة ان الحركة العربية ، بكل روافدها السابقة ، قد علقت حول زعامة الملك فيصل الأول الذي دخل الى دمشق عام ١٩١٨ ، محاولا الاستفادة من الوعد الذي قطعته بريطانيا لوالده الشريف حسين عام ١٩١٦ ، بمساعدته على انشاء الدولة العربية الواحدة المستقلة ، اذا ساندها في الحرب ضد العثمانيين ، الا ان كل الأمور كانت تسير باتجاه معاكس . واتضح بعد ذلك ان كل الأحداث انطلقت من نقطة اخرى غير الاتفاق البريطاني مع الشريف حسين ، هي اتفاقية سايكس ـ بيكو بين بريطانيا وفرنسا . من هنا كان الصدام حتمياً بين القوات الفرنسية والقوات العربية الملتفة حول حكومة الملك فيصل في دمشق .

في هذه الفترة ، نشأت صداقة شخصية قوية بين الملك فيصل الأول وساطع الحصري ، الأمر الذي دفع بالحصري الى خضم العمل السياسي العربي ، في قمة مواقع القرار (بالنسبة لتلك الفترة) . ومع ان محمد عزت دروزة يقول في المجلد الأول من « حول الحركة العربية الحديثة » (صفحة ٧٧) ان ساطع الحصري قد انضم الى جمعية « الفتاة » ، الا ان الحصري نفى ذلك في مقابلة مع كليفلاند ، مؤكدا انه على الرغم من مشاركته في بعض مؤتمرات الحركات العربية ، الا انه لم ينضم لأحد منها .

ولم تقتصر مهمة الحصري في تلك الفترة على مديرية دار المعلمين ، وعلى منصب وزير المعارف في الحكومتين اللتين سبقتا معركة « ميسلون » ، فقد اختاره الملك فيصل (لعدة اسباب ربما كان منها المامه الرفيع باللغة الفرنسية) رسولا الى الجنرال غورو في « عاليه » ، للتفاهم معه لوقف زحف قواته الى دمشق . الا ان ما رسم كان قد رسم ، وفشلت مهمة الحصري فشلا ذريعاً ، ودخل غورو الى دمشق بعد يوم « ميسلون » الذي استشهد فيه يوسف العظمة .

ويبدو ان ارتباط ساطع الحصري بالقيادة السياسية للملك فيصل الأول كان الاطار الذي اختاره ـ في تلك الفترة ـ للعمل من اجل الفكرة العربية . فقد رفض في الفترة الانتقالية بين دمشق وبغداد عرضاً للانضمام الى المناضلين العرب الذين اتخذوا من شرقي الأردن قاعدة لهم ، وعرضاً آخر من مجموعة من المناضلين اختاروا نضال المنفى في باريس ، فآثر الالتحاق بالملك فيصل الأول عندما استقر في بغداد ، بعد ان كانت علاقاتهما الشخصية قد توطدت الى حد بعيد .

وفي بغداد ، واصل الحصري نشاطه في الاطار الذي كان قد اختاره لنفسه ، اطار العمل

---

(٤) محمد كرد علي ، **المذكرات** ، دمشق ١٩٤٨ (صفحة ٢٧٧) .

(٥) William Cleveland , The Making of an Arab Nationalist -1971 ,P .45 .

(٦) خلاصة ترجمة حال ساطع الحصري (غير منشور) .

التربوي . وكان ساطع الحصري يفسر رأيه في ذلك بالتمييز بين « السياسة الهامشية » ، وكان يعني بهذه العبارة العمل السياسي المباشر ، و « السياسة العليا » ، وكان يعني بها التبشير بالفكرة القومية وبالوحدة [٧] . وانسجاما مع هذا الرأي ، وحتى يبقى نشاطه بمنأى عن التقلبات السياسية العابرة ، تعمد الملك فيصل الأول عدم تعيينه وزيراً للمعارف ، بل مديراً عاماً للوزارة . فكان الوزراء يتبدلون ، وهو يمارس السلطة الأولى والثانية في مجال خلق سياسة تربوية قومية وعصرية في العراق .

ولكن ما ان حل عام ١٩٢٧ ، حتى كان الحصري قد الب من حوله كثيراً من العداوات لعدة اسباب اهمها تطرفه وتشدده في صيغ مناهج التعليم العراقية بصيغة القومية العربية والعصرية ، من منطلقات ثقافته العلمانية . فاذا اضفنا الى ذلك طغيان شخصيته ومركزه على موقع وزير المعارف ، وعزلته الاجتماعية بسبب شخصيته المتزمتة ، تجمعت امامنا ابرز الأسباب التي جعلت استمراره في مديرية دار المعلمين في بغداد مستحيلة عام ١٩٢٧ . فاستقال ، ليشغل طوال السنوات الأربع التالية (١٩٢٧ ــ ١٩٣١) مقعد التدريس في دار المعلمين نفسها ، ولكن مع بقائه ذا اثر اساسي في مناهج التعليم العراقية ،وبسبب نشاطه السابق ، وبسبب مؤلفاته الكثيرة في هذا المجال .

وبعد مرور سريع بمنصب « مفتش وزارة المعارف » عام ١٩٣١ ، انتقل الحصري الى منصب عميد كلية الحقوق ، الذي استمر فيه حتى ١٩٣٥ . وبعد عام عاصف جمع فيه بين منصبي عمادة كلية الحقوق ومديرية الآثار ، تفرغ لمنصب مديرية الآثار من ١٩٣٦ حتى ١٩٤١ . وكان ملفتاً للنظر انه تمكن في هذا المنصب الجديد عليه ، ليس فقط من خلق اهتمام وطني عام بالآثار ، بل تعمق في الاجتهاد في هذا الحقل حتى عينته عصبة الأمم عضواً في اللجنة الاستشارية لشؤون الفن والآثار وعلم الأجناس ، فلم يترك المنصب الا بعد ان اسس المتحف العراقي ، ونشر على اوسع مدى شعور الاعتزاز بالتاريخ العربي .

ففي عام ١٩٤١ ، كان المخاض السياسي والقومي في العراق وسائر بلاد المشرق العربي قد وصل الى احدى ذرواته الساخنة.ولم يستطيع ايمان الحصري بالتمييز بين « السياسية العليا » و « السياسة الهامشية » ان يعصمه عن الانخراط في خضم الصراعات السياسية الساخنة .

ففي رسالة بعث بها خلدون ساطع الحصري ، الى وليام كليفلاند بتاريخ اول اغسطس (آب) ١٩٦٩ ، ان خلاف الحصري مع مجموعة السياسيين العراقيين المعتمدين على بريطانيا ،قد وصل الى حد التصادم مع نوري السعيد عندما عارض هذا الأخير ارسال اسلحة للمقاتلين في فلسطين ، بسبب خوف نوري السعيد من استعمال هذه الأسلحة ضد القوات البريطانية . وكان ساطع الحصري يصف موقف نوري السعيد هذا بالولاء المطلق لبريطانيا [٨] .

وفي عام ١٩٤١ ، وعندما قامت وفشلت ثورة رشيد عالي الكيلاني ، قامت حكومة عبد الاله بطرد عدد من الشخصيات الوطنية ، بعد تجريدها من الجنسية العراقية ، ومن هؤلاء طه الهاشمي وساطع الحصري . وقد كتب الحصري معلقاً على هذه الخطوة وموجزاً عقدين من نشاطه هناك ، فقال ان احد اهدافه الأساسية في العراق كان نشر الايمان بوحدة الامة العربية ، ثم اضاف : « ولقد عملت لهذا الهدف ، بطرق مباشرة احياناً ، وبطرق غير مباشرة احياناً اخرى ، وضمن اطار مهماتي الرسمية وخارج اطارها ... وباختصار ، لقد انتهزت كل فرصة ، واستعملت جميع الوسائل للعمل من اجل هذه القضية . ويؤلمني القول بأن هذا هو السبب الذي دفع حكومة عبد الاله لابعادي عن العراق وتجريدي من الجنسية العراقية عام ١٩٤١ » [٩] .

وكانت حلب ، مدينة عائلته ، هي النقطة التي ابعد اليها من العراق ، الا انه سرعان ما انتقل

---

(٧) ساطع الحصري ، **آراء واحاديث في التربية والتعليم** القاهرة ، ١٩٤٤ ، (صفحة ١٤٨) .

(٨) *The Making of an Arab Nationalist* P .75

(٩) ساطع الحصري ، **مذكراتي في العراق** ، دار الطليعة ، بيروت،المجلد الأول (ص ١٠) .

الى بيروت ، حيث امض ثلاث سنوات . ثم استدعته الحكومة السورية الحديثة الاستقلال عام ١٩٤٤ ليعمل كمستشار في الشؤون التربوية . وكانت تقاريره الستة عشر التي وضعها حول هذا الموضوع هي اساس تعريب التعليم في سورية . ومع ان البرلمان السوري وصف قانون المعارف الجديد (المعتمد الى حد بعيد على تقارير الحصري واقتراحاته) بمثابة « اعلان الاستقلال الثقافي » ، فان النزعة العلمانية التي تميزت بها اقتراحات الحصري قد دفعت بعض العناصر الطلابية المدفوعة من بعض القوى المتزمتة الى الخروج في تظاهرة في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٦ ، تهتف في شوارع دمشق « لا اله الا الله ، الحصري عدو الله » ، ومرة اخرى ، اضطر ساطع الحصري للاستقالة ، والعودة الى بيروت ، الا ان الحكومة السورية صمدت امام الضغوط ، واحتفظت بقوانين الاصلاح التعليمي التي صممت بناء على اقتراحات الحصري .

ثم انتقل ساطع الحصري الى القاهرة عام ١٩٤٧ ليستقر فيها حتى عام ١٩٥٧ متنقلا بين مناصبه كمستشار للجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية ، ومحاضر في جامعة القاهرة ، ثم كأول مدير لمعهد الدراسات العربية العليا (١٩٥٣) ، الذي استقال منه عام ١٩٥٧ ، وتقاعد نهائياً في سن السابعة والسبعين ، بعد ان خاض معارك عديدة مع بعض الأساتذة الذين حاولوا صبغ المعهد ذي الاتجاه القومي ، بصيغة دينية ، لم يأل الحصري جهداً بمقاومتها ، باتجاهه العلماني الذي تميزت به جميع كتاباته .

ومع ان ساطع الحصري كان متقاعدا في سنواته الاحدى عشرة الاخيرة ، فقد ظل يكتب من بانسيون « فينواز » في القاهرة ، وبيروت ، وبغداد (التي توفي فيها في كانون الاول/ديسمبر عام ١٩٦٨) بهمة وغزارة مواصلا الدعوة للوحدة العربية ، خائضا المعارك على جميع الجبهات دفاعا عنها .

ملامح فكرية

يمكن القول من غير مبالغة ، ان ساطع الحصري قد انفق نصف القرن الأخير من حياته في جهد يومي متواصل للدعوة للفكرة العربية ، ثم لمحاولة نحت صيغ حديثة لها ، قادرة على مجابهة تحديات العصر ، فهو العربي العلماني ، الذي وان كان يعتز بالتراث العربي ، بل ويجتهد لنشر الاعتزاز به ، فانه يصر على ان يكون العربي ابن عصره ، لا عربي العصور الغابرة . وقد كان التاريخ هو المادة الأساسية التي اعتمد عليها الحصري ، سواء في مجال الدعوة للعروبة ، او في مجال نحت صيغ فكرية حديثة لها ، حتى ان البعض يأخذ عليه انه كان يستقرىء احداث التاريخ ، ليس بالتجريد الفكري الأكاديمي ، بل بحرارة الداعية ، وغرضه الواضح المحدد . ولعل من اشد الأمثلة صراحة في هذا المجال ، انه في الوقت الذي كان فيه الحصري يخوض المعارك الفكرية مع « غوكالب » ، داعية القومية التركية ، دفاعاً عن فكرة الانتماء للامبراطورية العثمانية ، كان يرفض اتخاذ التجربة الوحدوية الالمانية كنموذج ، لأن وحدة اللغة كانت عنصراً اساسياً فيها ، بينما الفكرة العثمانية مبنية على تكامل شعوب ذات لغات مختلفة . الا ان الحصري ، بعد ان التزم بالفكرة العربية ، اصبح يجد في الوحدة الالمانية التجربة التاريخية النموذجية التي يمكن ان يقتضي العرب بها ، والتي تتطابق بعناصرها المتعددة الى حد بعيد مع التجربة العربية .

وليس هذا الكلام لينتقص من القيمة الفكرية لمقولات الحصري واجتهاداته بل لوضعها في اطارها الموضوعي الذي لا يستقيم الحكم عليها بدونه . ولكن هذا الاطار لا يكتمل الا اذا اشرنا الى العنصر الثاني المهم فيه ، وهو المساجلات . فقد طرح الحصري العديد من آرائه الأساسية ، في سياق المعارك الكلامية الكتابية التي كان يخوضها مع اعداء الوحدة العربية ، او ضعيفي الايمان بها ، او انصار الاقليميات المتعددة (خاصة في مصر ، سواء ضد انصار الفرعونية او انصار الالتحاق بالغرب) . وهنا ايضاً نجد انفسنا امام اطار يضطرنا ، حتى لا نظلم الحصري في الحكم على صلاحية افكاره وعمقها، ان لا نعامل نصوصه بشكل متفرق مجتزأ ، بل ان نقرأها قراءة شاملة متكاملة ، ونستخلص منها السياق الفكري العام ، والروحية العامة . وهذه جولة سريعة مع اهم

الملامح العامة للطروحات الفكرية المتشعبة التي طرحها الحصري ، داعياً للقومية العربية ، مجتهداً في محاولة نحت اطاراتها التاريخية والفكرية ، نعرض خلالها آراءه الرئيسية بالنسبة لأهم المشكلات التي عالجها ، او القواعد الأساسية التي حاول أرساءها :

العنصرية والمركز الممتاز بين الشعوب

يقول ساطع الحصري معلقاً على طروحات « آرنت » حول ملامح القومية الالمانية [١٠] انه يرى الأمة كائناً معنوياً ، مشدداً على العناصر الطبيعية في تكوين الأمة . ولكن في الوقت الذي يقول فيه آرنت ان المانيا على بقية الامم في اللغة وفي المزايا العرقية السلالية ، وانها تمتلك بالتالي تفوقاً خلاقاً على تلك الأمم ، فقد كان الحصري يقصر دعوته على مفهوم اضيق ، فيدعو للاعتزاز بالحضارة العربية ، ولكن من غير التعبير عن شعور مقارن بالتفوق العرقي ، كما انه ميز دعوته عن الرومنطيقيين الالمان فلم يدع العرب للقيام بمهمة حضارية على مدى العالم باسره ، كما انه لم يكن يؤمن بتقسيم الاجناس البشرية الى درجات في سلم التقدم ، حتى انه وصف مفاهيم « فيخته » في هذا الصدد بـ : الصوفية [١١]

بين الوطنية والقومية

من مساهمات ساطع الحصري القيمة ، اجتهاده في توضيح مفردات الفكر القومي وتحديد معالم هذه المفردات والمفاهيم الكامنة وراءها . من ذلك تحديده للفارق بين « الوطنية » و « القومية » . فالوطنية هي الارتباط بأرض الوطن ، والقومية هي الارتباط بالأمة . والأمة هي مجموعة من البشر ترتبط بعلائق محددة من اللغة والتاريخ ، اما الوطن فأرض تسكنها مجموعة خاصة من هذه الأمة [١٢] .وهو احياناً يميز بين الوطن الخاص (الوطن) والوطن العام (وطن الأمة) .

بين الوطن والدولة

وفي محاولة لتعميق وتحديد دقة مفهوم الوطن والوطنية ، انتقل ساطع الحصري ، الى مناقشة الفارق بين الوطن والدولة . فيعرف الدولة بانها وحدة سياسية ، ومجموعة مستقلة من الناس ، تعيش على أرض واحدة لها حدود معينة [١٣] . ثم ينتقل الى التشديد على عدم الخلط بين الدولة (بهذا المفهوم) وبين الوطن . والا ـ يقول الحصري ـ فان علينا ان نعتبر ان سكان كل من برلين وفرانكفورت كانوا يعيشون في اوطان مختلفة ، قبل توحيد المانيا ، بينما هم في الحقيقة كانوا يعيشون في دول مختلفة . ثم يطرح مثالا معكوساً فيقول ان سكان بودابست وفيينا كانوا يعتبرون ابناء وطن واحد ـ خطأ ـ لأنهم كانوا يعيشون في دولة واحدة (قبل انفصال المجر عن الامبراطورية النمساوية) . ويضيف الحصري في هذا المجال ، ان المفكرين الفرنسيين تأخروا في التفريق الدقيق بين مفهومي الوطن والدولة ، لانهم حققوا وحدتهم القومية في وقت مبكر ، بينما كان الالمان انشط منهم في هذا المجال ، لأنهم كانوا يعانون مشكلة التجزئة القومية ، فهم يحتاجون بالتالي الى خلق مفاهيم محددة وواضحة في هذا الصدد . [١٤]

اللغة والتاريخ

ظل ساطع الحصري يكرر في كتابات متعددة انه يعتبر اللغة والتاريخ ، العنصرين الوحيدين

---

(١٠) Hans -Kohn,Arndt and the Character of German Nationalism,*The American Historical Review* المجلد ٥٤ ، العدد الرابع (١٩٤٩) (صفحة ٧٩١) .

(١١) ساطع الحصري ، **نشوء الفكرة القومية** ، (صفحة ٣٦) .

(١٢) ساطع الحصري ، **ابحاث مختارة في القومية العربية** ، دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٤٦ (صفحة ٢٨ و٣٢) .

(١٣) المرجع السابق (صفحة ٢٨) .

(١٤) ساطع الحصري ، **ما هي القومية** ، دار العلم للملايين،بيروت ـ (صفحة ٣٥ ـ ٣٨) .

الأساسيين ، اللذين يفرقان أمة عن الأخرى ، فهو يرى : [١٥] ان أسس تكوين أمة وبناء قومية هي وحدة اللغة والتاريخ . ذلك لأن الوحدة في هذين المجالين تؤدي الى وحدة المشاعر والميول ، وحدة الآمال والآلام ، ووحدة الثقافة ، الأمر الذي يجعل الناس يشعرون انهم ابناء أمة واحدة ، مختلفة عن الأمم الأخرى .

وبين هذين العاملين ، يضع الحصري عنصر اللغة في المرتبة الأولى ، ويضرب مثلا بـ «بولونيا» التي زال كيانها السياسي تماما بعد تقسيمها ، ولكن كيانها كأمة بقي بسبب محافظة الشعب البولوني على لغته .

الدين والقومية

كان ساطع الحصري احد اكثر المكافحين في سبيل ربط القومية العربية بالمفاهيم العلمانية . فمع اعترافه بالقوة الروحية التي يمنحها الدين ، إلا انه كان يرى ان الأديان السماوية ، مثل الاسلام والمسيحية ، ذات الرسالة العالمية المنفتحة على جميع البشر ، من مختلف الجنسيات والقوميات ، لا يمكن ان تكون مرادفة للمفهوم القومي، ويستخدم الحصري — كعادته ، امثلة تاريخية لدعم وجهة نظره هذه . فيتحدث عن التاريخ العربي قبل الاسلام ، كما يضرب مثلا بـ « بلغاريا » التي كافحت ، في سبيل استقلالها الوطني والقومي ، ضد هيمنة الكنيسة الارثوذكسية اليونانية ، تماما مثلما كافحت ضد الهيمنة العثمانية ، كما يضرب مثلا بـ « بافاريا » الكاثوليكية و « بروسيا » البروتستانتية ، اللتين لم يمنعهما فارق المذهب الديني من استكمال وحدتهما القومية الالمانية . [١٦]

الأصول العرقية والقومية

وكما رأينا نفى الحصري ، في مقطع سابق ، للمفهوم الالماني للتفوق العرقي (برغم تأثره الشديد بالتجربة القومية الالمانية) فان فكر ساطع الحصري قد تميز — على وضوح وحدة التزامه بالقومية العربية — برفض الأصول العرقية كعامل من عوامل القومية ، وهو يرد على اصحاب نظرية « الأصول العرقية الواحدة في الأمة الواحدة » بقوله : ان كل الدراسات العلمية المبنية على وقائع التاريخ ، واكتشافات علم الاجناس لا تدع مجالا للشك في عدم وجود اية أمة على وجه الأرض متحدرة من اصل واحد ، او ذات دم صاف [١٧] ويضيف الحصري الى ذلك ان تعدد الاجناس لا يمنع انتظامها في قومية واحدة . ويضرب مثلا على ذلك في فرنسا ، أول القوميات الاوروبية اكتمالا ، برغم تحدرها من اصول عرقية مختلفة واضحة المعالم في تكوينها البشري الحديث .

عن الاشتراكية والشيوعية

ومع ان المآخذ التي تسجل حديثا من قبل مراجعي فكر ساطع الحصري ، خلو دعوته القومية الوحدوية من الالتفات الجدي للاوضاع الاجتماعية للأمة العربية ككل ، ولكل شعب عربي على حدة ، واثر هذه الأوضاع في المسيرة القومية الوحدوية ، إلا اننا يجب ان نكون شديدي الحذر والدقة في هذا الموضوع ، فلا نندفع — مع البعض — الى تفسير ذلك بانه عداء من الحصري للاشتراكية ، او عقدة قومية من الشيوعية أو الماركسية .

فعلى قلة أدبيات الحصري في هذا المجال ، إلا انه يلمس هذا الموضوع لمساً سريعاً يظهر مفاهيمه

---

(١٥) ساطع الحصري — **ابحاث مختارة**(صفحة ٢٤٩) .

(١٦) ساطع الحصري ، **ما هي القومية** (صفحة ٤٥ — ٤٩) .

(١٧) ساطع الحصري ، **ابحاث مختارة** (صفحة ٣٩) .

العامة التي لا يمكن اعتبارها مناقضة للاشتراكية ، او معقدة من الشيوعية عقدة « عداء قوي شوفيني مستحكم » .

ففي مقالة نشرها في مجلة « الرسالة » المصرية (عام ١٩٣٨) بعنوان « بين الوطنية والأممية » (المجلد الرابع ، الاعداد ٢٤٢ ــ ٢٤٤) ، يقول : انه من الضروري بذل كل جهد لتطوير الأوضاع الحالية ولالغاء الظلم باسرع ما يمكن ، شرط ان لاننحرف في عملنا ووسائلنا عن متطلبات الوطنية .

كذلك ، فان الحصري لم ينغمس مرة في تحديد شكل النظام الأقدر على تحقيق التغيير المطلوب . ولكنه كان من وقت لآخر ، يعطي آراء في هذا النظام السياسي أو ذاك ، من باب تحديد علاقته بالقومية ، فيتطرق في مجلة « الرسالة » (المرجع المذكور اعلاه) الى موضوع الشيوعية فيبدي اعتراضه عليها وعلى اي شكل من اشكال الأممية ، من زاوية تعارضها مع الروابط القومية . ومع اعترافه بفضل الاتحاد السوفيتي في دعم العرب في نضالهم ضد الامبريالية ، إلا انه يرفض حل الروابط القومية لتحل محلها اممية الروابط الطبقية ، ولكنه سرعان ما يوضح انه ليس لديه اعتراض على الشيوعية أو الاشتراكية كشكل من اشكال النظم السياسية ، ولكنه يطالب هذه الحركات بان لا تجعل دعواتها معادية للقومية . ويضيف موضحاً ان الأمة العربية افاقت من نوم طويل ، وان روابطها الوطنية والقومية ما زالت ضعيفة ، وان أي انجذاب منها نحو الأممية مؤذ ، ولا يمكن التغاضي عنه . (المصدر المذكور اعلاه) .

عن مصر ودروها القومي

كانت اولى تجارب ساطع الحصري العملية بعد انضمامه النهائي الى العروبة ، معايشته لثورة عام ١٩١٩ في مصر . وكان يأمل ان تؤدي هذه الثورة الى دفع مصر للانخراط في خضم النضال العربي الذي كان قد بدأ يستعر عملياً بعد طول مخاض فكري وحركي . إلا ان خيبة امل ساطع الحصري كانت كبيرة في هذا المجال ، بعد ان انكفأت مصر على نفسها ، وانكفأ العرب عنها ، طوال الفترة الفاصلة بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ .

وكان لساطع الحصري رأي قاطع في مسألة عروبة مصر ، كان يحدده بثلاثة عناصر :

أ ــ ان مصر بلد عربي .

ب ــ ان مصر يجب ان تكون ، عملياً ، زعيمة العالم العربي .

ج ــ ان من غير المقبول للمصريين ان يكون لهم أي ارتباط أو ولاء أو التزام بعقيدة غير العروبة .

وبالفعل،فان الحصري لم يكن ينظر الى مصر كبلد عربي فقط،بل اهم البلدان العربية [١٨] وقد نشر عام١٩٣٦بحثا بعنوان«دور مصر في النهضة القومية العربية»، يقول فيه:لقد حبا الله مصر بكل المقومات والمزايا التي تجعل واجباً عليها الاضطلاع بدور قيادي في يقظة القومية العربية . فهي تقع في قلب البلاد العربية ، وهي اغناها واكثرها تقدماً ، وهي تضم اكبر كتلة بشرية عربية وأطول تاريخ تكوين دولة سياسية حديثة . كل ذلك يجعل مصر الزعيم الطبيعي ، للقومية العربية . ثم يوضح الحصري كلامه هذا باضافة اخرى فيقول : أنا من الذين يؤمنون بأن لمصر موقعاً خاصاً في العالم العربي ، واتمنى من كل قلبي ، ان تعمل مصر لتحقيق الوحدة العربية ، كما عملت « بروسيا » للوحدة الالمانية ، وكما عملت « بيدمونت » للوحدة الايطالية .

عن التراث والحداثة

حتى في هذه المسألة البالغة الحساسية والاهمية لم يشذ ساطع الحصري عن قاعدته الذهبية

---

(١٨) William Cleveland , *The Making of an Arab Nationalist* ,P 134

بالنظر الى كل المسائل من منظار الوحدة العربية ، فيؤيد كل ما يدعم التوجه نحو الوحدة ، ويعارض كل ما يعرقل هذا التوجه . من هنا فان نظرة الحصري الى التراث العربي نظرة مركبة ، فهو ينظر الى التراث نظرة اكبار واعتزاز كعنصر اساسي من عناصر تماسك الأمة عبر الحقب ، ولكنه يرفض كل ما من شأنه ، في هذا التراث ، ان يعوق تحديث الأمة العربية ووقوفها على قدم المساواة مع بقية الأمم في هذا العصر . فالتراث بالنسبة له قاعدة انطلاق لبناء مستقبل عربي ، وليس لاعادة بناء الماضي ، وقد كتب في بحث بعنوان « بين الماضي والمستقبل » يقول : يصبح الماضي مؤذياً ، اذا بدأ يصبح قوة جذب تدعونا للعودة الى الوراء . فليس بامكاننا اعتبار الماضي هدفاً علينا ان نتوجه نحوه . ولكن من الضروري ان نجعل من الماضي قاعدة اساسية نستند عليها في انطلاقنا الى الأمام ، فنخلق منه قوة محركة تدفعنا نحو مستقبل جديد ، باختصار ، يجب ان يكون شعارنا في هذا الصدد هو تذكر الماضي مع تطلع دائم الى المستقبل .

عن التربية والتوعية القومية

مثلما رأى المفكر الالماني « فيخته » ان خلاص « بروسيا » بعد هزيمتها امام « نابليون » ، يكمن في اعادة تكوين مجتمعها عبر وسائل واساليب تربوية جديدة ، فان الحصري لم يؤمن بذلك فقط ، بل جعل حياته كلها تعبيراً عن هذا الايمان ، سواء في ذلك نشاطه في المرحلة العثمانية ، أو في المرحلة العربية ، بين سوريا والعراق ومصر ، فقد وضع الحصري كل آماله بالمستقبل ، في تنشئة الأجيال العربية الجديدة وفقاً لاساليب تربوية حديثة ، ليس للمحافظة على المجتمع القديم مثلما وجد ، بل لخلق مجتمع جديد [١٩].

خاتمة

ليس هنالك شك في ان ساطع الحصري هو واحد من ابرز الاسماء التي ارتبطت بمسيرة الفكرة القومية العربية المعاصرة ، ودعوة الوحدة العربية ، ارتباطاً بلغ حد التطابق بشكل من الاشكال ، مع كل انتصار لفكرة الوحدة العربية ، ومع كل انتكاسة لها .

فقد كان من أول الخطوات العملية التي تمت يوم قيام اول وحدة عربية في التاريخ المعاصر بين مصر وسورية ، قيام اكرم الحوراني ، رئيس مجلس الشعب السوري سنة ١٩٥٨ ، بتوجيه برقية تهنئة الى ساطع الحصري .

وعندما وقع الانفصال بين مصر وسورية في ٢٨ سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ ، شعر افراد عائلة ساطع الحصري انه في حالة خطر صحي تقتضي العناية الخاصة به ، وقد استمرت هذه العناية اياماً ، لحين تمكن الحصري من استيعاب صدمة الانفصال .

كان ساطع الحصري ــ من غير مبالغة ــ اشبه بالرائد الذي يحمل العلم امام الكتيبة ، لذلك لم يكن غريباً ان يلتفت العرب اليه عند كل حدث طارىء ، للأطمئنان على الراية . ففي الوقت الذي كانت فيه الآراء غير نهائية في تقييم وتحديد هوية وابعاد الانقلاب العسكري الذي وقع في مصر عام ١٩٥٢ ، كان للعبارة الشهيرة التي اطلقها ساطع الحصري في هذا الصدد أثر قاطع على الصعيد القومي ، عندما قال بعد ان قرأ الدستور الجديد الذي ينص على ان مصر جزء لا يتجزأ من الأمة العربية ، ما معناه ان قلبه اطمأن الآن الى مستقبل الثورة .

واذا كان فكر ساطع الحصري مادة تخضع للغربلة الفكرية والسياسية الدائمة ، واذا كان الحصري قد وفر علينا الكثير من المشقة في هذا المجال باقراره بانه أول من يتمنى ان تتجاوز الأمة العربية الحاجة الى افكاره وكتبه ، فالشيء الذي اصبح ثابتاً ونهائياً ومحسوماً ، هو ان التاريخ

---

(١٩) ساطع الحصري ، **آراء واحاديث في التربية والتعليم** ، القاهرة ، ١٩٤٤ (صفحة ١٤٤) .

العربي المعاصر قد سجل اسم ساطع الحصري على رأس قائمة المبشرين بالوحدة العربية ، المترهبين في سبيلها ، المصرين على طرحها معياراً سياسياً فاصلا ، نحكم به على أي حدث سياسي يتعلق بنا .

ترى ، ونحن نمر اليوم بالذكرى العاشرة لرحيله ،متى يمكننا ان نقول اننا قد استوفينا حاجتنا من ساطع الحصري المفكر ، وساطع الحصري الداعية ، وخاصة ساطع الحصري النموذج ؟

قائمة ببليوجرافية كاملة بكتابات ساطع الحصري باللغة العربية

١) المؤلفات :

ابحاث مختارة في القومية العربية (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٤) .

احاديث في التربية والاجتماع (بيروت ، دار العلم للملايين،١٩٦٢) .

الاحصاء (بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٣٩) .

آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع (بيروت ، دار العلم للملايين،١٩٦٠) .

آراء واحاديث في التربية والتعليم (القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٤٤) .

آراء وأحاديث في العلم والاخلاق والثقافة (القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٥١) .

آراء واحاديث في القومية العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٤) .

آراء واحاديث في اللغة والأدب وعلاقاتها بالقومية (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٦) .

آراء واحاديث في الوطنية والقومية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١) .

الاقليمية : جذورها وبذورها (بيروت،دار العلم للملايين،١٩٦٤) .

البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥) .

تقرير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لاصلاحها (دمشق ، دار الهلال،١٩٤٤) .

ثقافتنا في جامعة الدول العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٢) .

حول القومية العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١) .

حول الوحدة الثقافية العربية (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٩) .

دراسات عن مقدمة ابن خلدون (القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٦١) .

دروس في اصول التدريس (بيروت ، دار الكشاف ، ١٩٤٨) .

دفاع عن العروبة (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٥٦) .

رسالة في الاتحاد (بيروت ، دار الحياة ، ١٩٥٤) .

صفحات من الماضي القريب (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٤٨) .

العروبة اولا (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥) .

العروبة بين دعاتها ومعارضيها (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١) .

ما هي القومية ؟ ابحاث ودراسات على ضوء الاحداث والنظريات (بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٣) .

محاضرات في نشوء الفكرة القومية (القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٥١) .
المحاضرة الافتتاحية (القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٤) .
مذكراتي في العراق ١٩٢١ ـ ١٩٤١ ، جزآن (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) .
نقد تقرير لجنة مونرو (بغداد ، مطبعة النجاح ، ١٩٣٣) .
يوم ميسلون : صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت ، دار الاتحاد،؟) .

٢) مقالات في مجلة الرسالة (القاهرة) :

الاستعمار والتعليم (مجلد ٤ عدد ١٣٧ سنة ١٩٣٦) .
بقايا التركية في لغة مصر الرسمية (مجلد ٥ عدد ١٨٩ سنة ١٩٣٧) .
بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية (مجلد ٧ عدد ٣٢٨ سنة ١٩٣٩) .
بين الوطنية والاممية (مجلد ٦ عدد ٢٤٢ ـ ٢٤٤ سنة ١٩٣٨) .
التعليم الالزامي في مصر (مجلد ٦ عدد ٢٦١ سنة ١٩٣٨) .
حول استقلال الكلمات في المعاجم (مجلد ٨ عدد ٣٤٥ سنة ١٩٤٠) .
حول كتاب مستقبل الثقافة في مصر (مجلد ٧ عدد ٣١٦ ـ ٣٢١ سنة ١٩٣٩) .
حول الوحدة العربية (مجلد ٧ عدد ٣١٥ سنة ١٩٣٩) .
حياة الأمة العربية بين الماضي والمستقبل (مجلد ٥ عدد ٢٣٣ سنة ١٩٣٧) .
شمال افريقية والعروبة (مجلد ٨ عدد ٣٣٩ سنة ١٩٤٠) .
العلم للعلم أم العلم للوطن ؟ (مجلد ٥ عدد ٢٠٦ سنة ١٩٣٧) .
العلم والوطنية (مجلد ٥ عدد ٢٠٦ سنة ١٩٣٧) .
قصة سامرّا (مجلد ٨ عدد ٣٤٤ سنة ١٩٤٠) .
مصر والعروبة (مجلد ٦ عدد ٢٨٥ سنة ١٩٣٨) .
معارف مصر في حولية المعارف الأممية (مجلد ٨ عدد ٣٤٦ سنة ١٩٤٠) .
ملاحظات انتقادية على قواعد اللغة العربية (مجلد ٦ عدد ٢٧٢ ـ ٢٧٤ سنة ١٩٣٨) .
نقد نظام التعليم في مصر (مجلد ٥ عدد ١٨٧ سنة ١٩٣٧) .

٣) دوريات وحوليات :

حولية الثقافة العربية (٥ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٧) .
مجلة التربية والتعليم (٥ مجلدات ، بغداد ، ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢) .

في مفهوم الكيانات الاستيطانية

الدكتور علي الدين هلال

مدرس في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة
واستاذ في معهد البحوث والدراسات العربية ، ورئيس وحدة
المنظمة السياسية في مركز الدراسات السياسية
والاستراتيجية في جريدة الاهرام .

تمثل قضية الوجود الاستيطاني الاسرائيلي في فلسطين احد محاور الحركة العربية الرئيسية منذ نصف قرن من الزمان على الأقل ، ولا تقتصر المواجهة العربية لهذا النمط من التجمعات على اسرائيل ولكن وجد نموذج « الكولون » في الجزائر ومحاولات الاستيطان في الخليج العربي . ومن هنا جاء اهتمام الفكر العربي بمفهوم الكيانات الاستيطانية ، تاريخها وتطورها ومآلها . وتهدف هذه الدراسة الى ابراز عدد من السمات السياسية والاجتماعية والنفسية التي ترتبط بديناميكية التكوينات الاستيطانية مركزين بالذات على النموذج الاسرائيلي وذلك من الناحية النظرية دون الدخول في العديد من التفاصيل التطبيقية . فهدف هذه الدراسة هو « التنظير » لمفهوم الكيانات الاستيطانية ومحاولة استخلاص السمات العامة لها والاقتراب منها باعتبارها نموذجا من نماذج التجمع البشري ذات الخصائص الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتميزة وتحديد هذه الخصائص على ضوء التجارب التاريخية المختلفة .

واذا كانت الفترة السابقة على عام ١٩٦٧ قد اتسمت بضآلة الاهتمام العربي بدراسة الكيان الاسرائيلي ، فقد اتصفت المرحلة التالية لهذا العام بثورة في الدراسات الاسرائيلية في البلاد العربية تضمنت انشاء العديد من مراكز البحوث لدراسة اسرائيل من كافة جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية[١] ، وصدور العشرات من الكتب المؤلفة والمترجمة ، عن الموضوع حتى لا يكاد يوجد جانب من جوانب الحياة الاسرائيلية يخلو من مؤلف عنه باللغة العربية .

على ان هذا الاتجاه تعرض بدوره الى نوع من المراجعة ، ذلك أنه لا يكفي فقط معرفة كل جزئية من جزئيات الكيان الاسرائيلي او دراسة كل جانب من جوانبه على حدة بل تتطلب الدراسة العلمية كذلك النظرة الشاملة للموضوع ، وبحث الخصائص العامة او السمات الكلية التي ينبغي أن ينظر الى الجزئيات في اطارها ، فعلى سبيل المثال فان تفسير نشأة المزارع الجماعية (الكيبوتز) في اسرائيل كنمط من أنماط التنظيم الزراعي الجماعي ذات السمات العسكرية، او تحليل الاحزاب السياسية الاسرائيلية وكيف ان جميع الاحزاب الرئيسية تتفق على عدد من المبادىء والقيم الصهيونية ومن ثم فان التعدد الظاهري لهذه الاحزاب يخفي وراءه وحدة فكرية حقيقية ، او محاولة فهم السمات الشاذة

---

(١) من أهم هذه المراكز مركز الابحاث (بيروت) ، ومؤسسة الدراسات الفلسطينية (بيروت) ، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية (القاهرة) ، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة) ، ومركز الدراسات الفلسطينية (بغداد) .

للاتحاد العام للعمال اليهود في اسرائيل (الهستدروت) وكيف يجمع بين سمات صاحب العمل والنقابة العمالية في آن واحد ، وأخيرا كيف يمكن فهم تلك العلاقة الغريبة بين الجيش والسياسة في اسرائيل،فمن ناحية تبدو الدولة وكأنها « ثكنة » ضخمة تتدخل الاعتبارات العسكرية في كل دقيقة من دقائقها ، ومن ناحية أخرى فان السلوك السياسي الاسرائيلي يتسم بخضوع العسكريينللمدنيين. وباستثناء لحظات محدودة من تاريخها فان اسرائيل لم تتهدد باحتمال انقلاب عسكري . أضف الى ذلك صعوبة التمييز بين العسكريين والمدنيين واختلاط الصفتين لدى عديد من اعضاء النخبة الاسرائيلية . كل هذه القضايا والموضوعات لا يمكن فهمها حق الفهم بدون الانطلاق من تصور شامل ونموذج نظري عام للكيان الاسرائيلي وتحديد السمات العامة له من واقع خصائصه الذاتية وظروف نشأته واحتمالات تطوره على ضوء العوامل الداخلية والاقليمية والدولية المختلفة .

ان هذا المنطلق يطرح قضية منهجية هامة وهي مفهوم الخصوصية *specificity* عند تناول الظواهر الاجتماعية والسياسية ، ويقصد بذلك أن على الباحث تحديد السمات والخصائص المتميزة للظاهرة موضع البحث والتي تفصل بينها وبين الظواهر الاخرى التي قد ترتبط بها او تختلط معها .

ولعل ذلك هو جوهر المنهج العلمي اي ضرورة التمييز عند دراسة اي ظاهرة بين ما هو عام وما هو خاص . بعبارة اخرى فان وظيفة الباحث هي الكشف عما هو عام (أي الخصائص العامة التي تشترك فيها الظاهرة موضوع الدراسة مع الظواهر الاخرى المماثلة) ، وعما هو خاص (أي الخصائص المتميزة التي تتسم بها الظاهرة على وجه التحديد) . وتلك هي نقطة البدء في أية محاولة للتفسير ، فالظواهر الاجتماعية لا تبيح اسرارها الا لأولئك الباحثين الذين يتخطون أسوار العمومية ويسبرون اغوارها في أناة وصبر حتى يكشفوا عن دقائق وجودها ومقومات تكوينها .

السؤال الذي يواجهنا اذن : ما هي الخصائص المتميزة للكيان الاسرائيلي التي تكسبه ذاتية مستقلة وتعطيه صفاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ او ما هي التفاعلات الخاصة التي تعطي للظواهر الاجتماعية والسياسية في اسرائيل شكلها المتميز وذاتيتها المستقلة ؟ [٢] .

الصفة الاساسية للكيان الاسرائيلي والتي يمكن اعتبارها مفتاحا لفهم العديد من اوضاعه الاجتماعية وتفاعلاته السياسية هي انه تكوين استيطاني كولونيالي *(Settler Colonial Formation)* [٣] ويقصد بذلك انه تكون عن طريق هجرة جماعات بشرية متعددة عبر مدة من الزمان من مناطق جغرافية مختلفة الى ارض فلسطين ثم السيطرة السياسية عليها بالقوة ، وليس عن طريق التطور الطبيعي أو النشأة التاريخية التي تميز الغالبية العظمى من مجتمعات العالم المعاصر . ويصف أحد الباحثين العرب هذه الظاهرة بأنها تقترن « بقيام جماعات بشرية أجنبية باستيطان ارض معينة ، وحدوث هذا الاستيطان بتأييد ضمني او علني من النظم والقوى السياسية الاوروبية ، ثم ممارسة المستوطنين بعد استيطانهم السلطة فوق تلك الارض على من كان ولا يزال فيها من السكان الاصليين ، سواء ممارسة منفردة او في شكل مختلط او بالاشتراك مع دولة استعمارية كبرى » [٤] .

واسرائيل في ذلك ليست نموذجا فريدا بل تشبه من حيث النشأة عدة تكوينات اخرى مثل الولايات المتحدة الامريكية وكندا واستراليا ونيوزيلندا وزمبابوي (روديسيا) وجنوب افريقيا وبعض

---

(٢) يطرح ايزنشتادت ـ عالم الاجتماع الاسرائيلي ـ اسئلة مثل اي نوع من المجتمعات يبرز في اسرائيل ؟ هل يختلف عن المجتمعات اليهودية الاخرى في العالم ؟ ما هي اتجاهاته الثقافية ؟ هل يعبر عن استمرارية مع المجتمعات اليهودية الاخرى ؟ S. N Eisenstadt, *The Israel Society* (New York: Basic Books, 1967), P. 4 وان كان يلاحظ انه انعكاس لوجهة النظر الصهيونية لم يعط اهمية للطابع الاستيطاني لاسرائيل .

(٣) من الدراسات الرائدة في هذا المضمار :

G. Jabbour, *Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East* (Beirut: PLO Research Center, 1970), and I. Abu Lughod and B. Abu-Laban, eds., *Settler Regimes in Africa and the Arab World* (Wilmetter-Illinois: The Medina University Press International, 1974).

(٤) د . جورج جبور : الطبيعة العنصرية للاستعمار الاستيطاني والمسائل القانونية الناجمة عنها . بحث القي في المؤتمر الثالث عشر لاتحاد المعلمين العرب (القاهرة : دار مأمون للطباعة ، ١٩٧٦) ، ص ٨ .

بلاد امريكا اللاتينية وجزر الهند الغربية [٥] . وجدير بالذكر ان هذه المشابهة التاريخية كانت حاضرة في الفكر الصهيوني . فبن جوريون قارن بين الاستيطان اليهودي في فلسطين والاستيطان الابيض في العالم الجديد [٦] ، ووايزمان عرض لنماذج الكولون في تونس والمستوطنين في كندا واستراليا [٧] .

وتوجد بالطبع عدة اختلافات بين هذه النماذج بعضها وبعض تتحدد بعدة عوامل مثل :

أ ــ عدد المستوطنين ودرجة تقدمهم الاجتماعي والحضاري بالمقارنة مع السكان الاصليين .

ب ــ ظروف المواجهة بين المستوطنين والسكان الاصليين ، وطبيعة التفاعلات وأنماط الصراعات التي تحدث بينهم ، ويدخل في هذه السياسة التي تتبعها الجماعات الاستيطانية وأنماط ردود فعل ومقاومة السكان الاصليين .

ج ــ الاطار الدولي للصراع بين الجماعة الاستيطانية والمجتمع الأصيل ومواقف القوى الدولية المختلفة التي قد تتدخل لتأييد طرف ضد آخر .

ويؤدي الاختلاف في هذه العوامل من تكوين استيطاني لآخر الى تباينات في شكل الجماعة الاستيطانية وعلاقتها بالمجتمع الاصيل وشكل ارتباطاتها الدولية .

ومع الاعتراف بهذه الاختلافات فان التكوينات الاستيطانية تمتلك عددا من الخصائص والسمات العامة نتيجة الأصل المشترك والنشأة التاريخة المتشابهة أي سمات تنبع من طبيعتها الاستيطانية وتسمح بالحديث عن نموذج نظري عام للكيان الاستيطاني . ومن هنا برزت ضرورة الاهتمام بالدراسة المقارنة للتكوينات الاستيطانية ، وكيفية تطورها وطبيعة التفاعلات الاجتماعية والسياسية التي تتم في داخلها ، كما برزت في هذا الاطار ايضا اهمية دراسة العلاقات بين التكوينات الاستيطانية بعضها وبعض وأنماط التعاون والتحالفات التي تتم بينها [٨] وصولا الى تحديد معالم هذا النموذج النظري العام .

وبصفة عامة فان الدراسات والبحوث التي تصدت لهذا الموضوع ركزت على واحد من ثلاثة جوانب : **اولها** ميكانزمات تكوين الكيان الاستيطاني ومرحلة ما قبل السيطرة السياسية وانشاء الدولة ويدخل في هذا عملية الهجرة المنظمة في ظل ضمان دولي وحماية لها ، وطرد السكان الاصليين والاستيلاء على الأرض من خلال الشراء او الغزو وبناء مؤسسات الدولة وردود فعل المجتمع الأصيل لكل هذه التطورات ، **وثانيها** يركز على التفاعلات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للكيان الاستيطاني بعد انشاء الدولة ويكشف عن السمات الخاصة لهذه التفاعلات ، **وثالثها** يدرس مستقبل الكيانات الاستيطانية اما من خلال دراسة النماذج التاريخية التي انتهت كالمجتمع الصليبي او الكولون في الجزائر لبحث اسباب فشلها وانهيارها ، واما من خلال التنبؤ بمسار الكيانات الاستيطانية القائمة على ضوء ظروفها الداخلية ومدى استعداد البيئة المحيطة بها لقبولها وكذا الظروف الدولية [٩] .

---

(٥) من اهم علماء الاجتماع الامريكيين الذين درسوا هذا النوع من التكوينات تحت اسم المجتمعات المهاجرة Societies Immigrant الاستاذ Louis Hartz وله عدة دراسات في الموضوع من اهمها : The Liberal Society in America The Founding of New Socities

(٦) D. Ben Gurion, *Rebirth and Destiny of Israel* (New York: Philosophical library, 1954), P. 9.

(٧) Chaim Weizman, *Trial and Error* (New York: Harper and Row, 1949), P. 191.

(٨) انظر في هذا الموضوع ابحاث ودراسات ريتشارد ستيفنز :

Richard P. Stevens, *Weizman and Smuts. A Study in Zionist South Africa Relations* (Beirut: The Institute for Palestine Studies, 1975), and R. Stevens and A. El Messiri, *Israel and South Africa* (New York: New World Press, 1977).

وباللغة العربية انظر بحث اسرائيل وجنوب افريقيا . دراسة مقارنة حول الصهيونية والاستعمار الاستيطاني . من ابحاث المؤتمر الفكري حول الصهيونية الذي عقد في بغداد ٨ ــ ١٣ نوفمبر ١٩٧٦ .

(٩) انظر محاولة شاملة لدراسة الكيان الاسرائيلي من جوانبه الثلاثة : السيد يسن ود . علي الدين هلال (محرران) **الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين** . (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية) ١٩٧٥ مجلدان .

في هذا الاطار يسعى البحث الى دراسة الكيان الاسرائيلي كنموذج للاستعمار الاستيطاني وابراز اهم الخصائص التي يتسم بها هذا الكيان انطلاقا من هذا التكييف العام له . **ولعل نقطة البدء الاساسية في هذا الصدد هي ان الطبيعة الاستيطانية تضع هذه الكيانات في تناقض اساسي مباشر وصريح مع المجتمع الاصيل بحيث يصبح التناقض بين المستوطنين والسكان الاصليين هو التناقض الرئيسي الذي يحكم مجمل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية للجماعة الاستيطانية وبحيث ينبغي النظر الى كل التناقضات والمشاكل الاخرى في اطار هذا التناقض الاساسي .**

وقد خبرت هذا التناقض كل الكيانات الاستيطانية بأشكال مختلفة وتم حله بأكثر من صورة . ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال ونتيجة لتفوق المستوطنين العددي والنوعي أمكن القضاء فعليا على النسبة الكبرى من السكان الاصليين عبر فترة طويلة من الحروب ، وحصر ما تبقى منهم في معازل *Reserves* ، وفي الجزائر ـ وهو النموذج المضاد ـ انتهى التناقض باستقلال الاغلبية الجزائرية وتصفية التكوين الاستيطاني ، وما زال التناقض ناشئا بين الاغلبية الافريقية في زيمبابوي وجنوب افريقيا والأقلية البيضاء المسيطرة على هذين البلدين .

هذا التناقض يرتب عددا من النتائج مثل تدعيم الصفة العسكرية لهذه التكوينات من ناحية ، وخلق مناخ نفسي يتميز بالاحساس بالحصار من ناحية اخرى وبالذات عندما يكون المستوطنون اقلية عددية بالنسبة للسكان الاصليين . ويرتبط بذلك التباين والازدواج بين اوضاع الجماعة الاستيطانية والمجتمع الأصيل ، وقدرة المستوطنين على تبرير ذلك في اطار مفاهيم الديمقراطية الليبرالية الغربية ، ولعل ابرز أشكال التباين هي تلك المرتبطة بالحقوق السياسية والحريات العامة مثل حق التنظيم والرأي والاجتماع الى غير ذلك من حقوق ، فبينما تعرف اسرائيل او جنوب افريقيا على سبيل المثال نظاما ديمقراطيا ليبراليا بين اعضاء الجماعة الاستيطانية ذاتها ، فانهما تفضحان عو وجه قبيح وغير ديمقراطي ازاء ابناء المجتمع الاصيل . هذا الازدواج ما بين احترام الحريات الديمقراطية على مستوى ، واهدارها على مستوى آخر بواسطة نفس القيادات السياسية وفي اطار نفس الرقعة الجغرافية ، والقبول العام بذلك هو احد خصائص النظام السياسي في الكيانات الاستيطانية .

هكذا تجد اسرائيل نفسها محكومة بالتناقض الاساسي المتمثل في علاقاتها مع الشعب الفلسطيني والامة العربية والذي نشأ نتيجة لطبيعة الكيان الاسرائيلي ، باعتباره تكوينا استيطانيا كولونياليا نشأ على أنقاض المجتمع الاصيل ، وهو المجتمع الفلسطيني ، بل ويرى البعض ـ مثل فاين ـ ان النظام السياسي الاسرائيلي يستمد شكله الاساسي من حقيقة الرفض العربي ، كما أن جزءا كبيرا من موارده يتجه لمواجهة هذا الوضع . يدعم ذلك حالة العزلة التي تعيش فيها اسرائيل بشكل يندر وجوده في العالم المعاصر.فهي تعيش في محيط اقليمي يلفظها ويعاديها سياسيا وثقافيا وحضاريا ، وتتحدث لغة لا يشاركها فيها شعب آخر ، وليس لها في ثقافتها او تاريخها او دينها ما يدفعها الى الارتباط بشعب آخر او بمنطقة جغرافية اخرى [١٠] . هذا الشعور بالعزلة ـ بل بالحصار ـ يلحظه الباحث في المؤلفات الاسرائيلية العلمية والادبية ، وفي الدراسات المتعلقة بالسياسة الخارجية وادراك النخبة الحاكمة للعالم [١١] ، ويعبر عن ذلك شيمون بيريز بقوله : « طابع دولة اسرائيل فريد في نوعه ولعلها الدولة الوحيدة في العالم ذات الديانة الواحدة .. وهي الدولة الوحيدة التي تمتاز لغتها الحية بكونها لغة مقدسة هي اللغة العبرية .. هكذا ليس لدولة اسرائيل دولة شقيقة لا من حيث المصالح الايدولوجية ولا العرقية ولا السياسية ولا العسكرية ولا الاقتصادية .. من وجهة النظر هذه ينطبق على اسرائيل التحديد التوراتي للشعب الذي يقيم وحيدا » [١٢] ، وبغض النظر عما تتضمنه هذه الكلمات من مبالغات أو أخطاء فانها تعكس الشعور بالعزلة والوحدة .

---

(١٠) LEONARD Fein, *Politics in Israel* (Boston: Little, Brown and Co., 1976), P. 1

(١١) Michael Brecher, Israel Foreign Policy: Chal enge of the 1970's, *International Journal*, Vol. XXVIII, no. 4 (Autumn 1973), PP. 748, 751.

(١٢) شيمون بيريز: يوم قريب ويوم بعيد ، في كتاب **من الفكر الصهيوني المعاصر** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٨) ص ١٣٧ ـ ١٣٨

ولتبرير التناقض بين الكيان الاستيطاني والمجتمع الاصيل يطور سكان هذه الكيانات مجموعة من المفاهيم والاسلطير حول السكان الاصليين تنطلق من اعتقادات استعلائية وعنصرية ومن عدد من الانماط الجامدة ، لعل افضل ما يعبر عنها التعبير الاسرائيلي عند تقييم عمل فاشل ما أو لوصف منتهى القصور والعجز ، بأن هذا « عمل عربي » [١٣] . ويرتبط بذلك ان النظرة الى السكان الاصليين ـ رغم اغلبيتهم العددية ـ عادة ما تتسم بالتجاهل واحيانا بانكار الوجود اصلاوتمتلىء الكتابات الصهيونية بذلك [١٤] . من ذلك الشعار الصهيوني الذي اعتمد على عبارة وردت في كتاب الدولة اليهودية لهرتزل وهو « شعب بلا ارض الى ارض بلا شعب » ، ومن ذلك ايضا ما كتبه هرتزل من ان الدولة اليهودية بعد انشائها سوف تمثل جزءا من سور الدفاع الاوروبي في آسيا وقاعدة للحضارة ضد البربرية [١٥] .

ويترتب على هذه الحقيقة الرئيسية عدد من السمات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية التي يمكن عرضها بايجاز فيما يلي :

اولا : من ناحية البناء الاجتماعي :

أ ـ العلاقة بين الاجيال :

تـلك مشكلة تعرفها كل المجتمعات الانسانية حيث تثور مشكلة انماط العلاقات بين الاجيال المختلفة وبالذات في فترات التغير السياسي والاجتماعي والعلمي السريع فتزداد الهوة بين الآباء والأبناء . ولكن هذه المشكلة تأخذ شكلا مميزا في الكيانات الاستيطانية ، والتي تبدو في العلاقة بين اولئك الذين هاجروا من اوطانهم التي ولدوا فيها الى وطن جديد ، وأولئك الذين ولدوا على ارض الكيان الاستيطاني بعد ذلك . اذ يثور بين هاتين الفئتين العديد من الاختلافات المتعلقة بالنظرة الى الذات (قضية الهوية او الاجابة على السؤال من نحن ؟) والنظرة الى آخرين (السكان الأصليين او البيئة المحيطة بالكيان الاستيطاني والعالم الخارجي) وحول هذه الاختلافات تبرز العديد من انماط الصراع والتعاون بين الجماعتين .

فالاجيال المهاجرة والتي تملك مقاليد السلطة والتوجيه في الكيان الاستيطاني ، وبالذات في المراحل الاولى من وجوده ، تعمل على تنشئة الاجيال المولودة في الدولة الجديدة تبعا لاطار القيم الذي تعتقده ، والذي اسس الكيان الاستيطاني وفقا له ، والمولودون في الكيان الاستيطاني يسعون ، من ناحية اخرى، الى تطوير سمات اجتماعية وثقافية خاصة بهم تتفق مع طبيعة المشاكل الجديدة في المجتمع والتي لا يعبر عنها بالضرورة نمط قيم الاجيال المهاجرة .

ويتضح ذلك في النموذج الاسرائيلي في العلاقة بين المهاجرين والصابرا *، والتي تتضح في كثير من جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية وتثير قضايا اساسية تتعلق بالوجود الاسرائيلي وتطوره مثل مفهوم الصهيونية بعد انشاء اسرائيل ، والاهداف التي تسعى لها كحركة ، وعلاقة اسرائيل بيهود العالم ، ومدى وجود هوية او وطنية اسرائيلية منفصلة عن الصهيونية ، والعلاقة بين الاسرائيلية والصهيونية [١٦] .

---

(١٣) Arthur Hertzberg, ed., *The Zionist Idea* (Greenwood, 1959), P 22

(١٤) Elia T Zureik, Arab Youth in Israel, Their Situation and Status Perceptions, *Journal of Palestine Studies*, Vol. 111, no. 3 (Spring, 1974), PP. 99-100.

(١٥) Edward Said, Arabs and Jews, *Journal of Palestine Studies*, Vol.111, no.2 (Winter 1974), PP. 8-9.

(١٦) انظر في هذا الموضوع كتابي **تكوين اسرائيل** (القاهرة : دار الهلال ، ١٩٦٩) ، د . اسعد رزوق : **في المجتمع الاسرائيلي** (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧١) ابراهيم كروان : **الصابرا والنظام السياسي في اسرائيل** ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، ١٩٧٧ .

* هم اليهود الذين ولدوا في فلسطين قبل قيام دولة اسرائيل ١٩٤٨ .

ب ـ الايديولوجية او الروح العقيدية والتطلعات الريادية :

تلعب هذه الاعتبارات دورا متميزا في التكوينات الاستيطانية بمعنى ان هذه التكوينات لم تتطور طبيعيا عبر فترة تاريخية طويلة ، بل نشأت نتيجة انتقال جماعات بشرية من بقعة او بقاع جغرافية كانت تعيش فيها الى بقعة جديدة بقصد استيطانها . ولا يتم ذلك عادة في غياب باعث ايديولوجي او اجتماعي . فالذين يهجرون مجتمعهم الاصلي الى مجتمع آخر لا يفعلون ذلك ـ في الغالب ـ بدون محرك او دافع ذاتي او خارجي . قد تكون روح المخاطرة والبحث عن المجهول ، وقد يكون الرغبة في الثراء السريع وجمع المال ، وقد يكون البحث عن الامان ، وقد يكون نتيجة لاسباب ايديولوجية وعقيدية . النموذج الصهيوني يقدم مثلا لذلك في سيادة الروح الايديولوجية التي تمثلت في الصهيونية ، وبالذات بالنسبة لاعضاء الهجرتين الثانية والثالثة ، ثم الرغبة في الامان ، وبالذات بعد وصول هتلر الى الحكم عام ١٩٣٣ .

فخلال الهجرتين الثانية والثالثة هاجر عشرات من الشباب اليهودي الى فلسطين مدفوعين بالرغبة في تحقيق « الحلم الصهيوني » ، اما في الثلاثينات فلم تكن الهجرة تحقيقا لالتزام عقيدي او ايديولوجي ولكن هروبا من النظام النازي .

وهكذا فان دراسة الصهيونية باعتبارها البناء الايديولوجي للتكوين الاستيطاني تصبح امرا هاما خاصة عندما ندخل في الاعتبار الرأي الصهيوني بأن اسرائيل ليست « انشاء لدولة جديدة » ، ولكن « احياء للدولة اليهودية القديمة » ويرتبط ذلك بفكرتي «الشتات» و «العودة». ومن ثم لا يمكن الفصل بين دراسة التركيب الاقتصادي الاجتماعي لاسرائيل ككيان استيطاني والبناء الفكري الصهيوني، الذي ما زال يقدم لاسرائيل تبريرها وسبب وجودها وما زال يؤثر على الاطار الفكري والادراكي لمواطنيها ويحدد اختياراتهم الفكرية والعملية الى حد كبير .

واستمرت الايديولوجية تلعب دورا هاما في الحياة الاسرائيلية ، حتى ان بعض الباحثين شبهوا اسرائيل بمدن اليونان القديمة [١٧] . وان كان التطور التاريخي لهذه الكيانات يميل بالعامل الايديولوجي الى التقلص باستمرار ، والتحول من ايديولوجية ومفاهيم الريادة الى مفاهيم الاستهلاك والاستقرار ، وهي ما يشار اليها بتعبير « ازمة ايديولوجية الريادة » ، والتي تتمثل في اهتزاز وزن المؤسسات التي جسدت تاريخيا هذه الايديولوجية مثل الكيبوتز ، واهتزاز النموذج السلوكي للانسان الافضل الذي قدمته الصهيونية وهو نموذج « الحالوتز »(الرائد) الذي ارتبط بالارض ومارس العمل اليدوي واتسم بالتقشف والتضحية بذاته من أجل المثل الاعلى ، الى جانب ازدياد حدة التمايز الطبقي والاجتماعي ، وازدياد اتجاه الشباب الى قيم المهنية والفردية والنفعية الذاتية والوظائف التي تدر دخلا مرتفعا [١٨] .

ج ـ التعدد السلالي والحضاري :

نتيجة النشأة الاستيطانية لهذه التكوينات تتكون شعوبها عادة من خليط متنوع من الاصول الحضارية والاجتماعية والسلالية والثقافية والجغرافية ، الامر الذي يخلق مشكلة تكامل حادة ويقصد بذلك عملية ايجاد هوية مشتركة وشعور بالتضامن الاجتماعي وايجاد رموز وقيم مشتركة بين هذه العناصر المختلفة . وتعرف اسرائيل هذه المشكلة في عدة صور لعل ابرزها مشكلة عدم التكامل بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين والتي تتمثل في عديد من صور التباين والتمييز بين الفئتين وفي عديد من اشكال السلوك الاجتماعي . كما تبرز بشكل حاد في العلاقة بين الاجيال والتي يشار اليها عادة بالصراع بين المهاجرين والصابرا ، وتدور حول اختلاف مكانة ودور العامل العقيدي بين الجيلين ، وعدم استمرارية التنشئة السياسية .

---

(١٧) د . حامد ربيع : **دراسات اساسية حول الصهيونية واسرائيل** (دمشق ، ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي لجيش التحرير الفلسطيني ، ١٩٧٣) ص ٢٧ .

(١٨) انظر في هذه التطورات السيد يسن : التغييرات الاجتماعية داخل اسرائيل ، **السياسة الدولية** ، السنة العاشرة ، العدد ٣٥ ، يناير ١٩٧٤ ص ٩١ ـ ١٠٣ .

ثانيا : من الناحية النفسية :

أ ـ الاتجاه نحو العنف والمغامرة :

ان طبيعة التكوينات الاستيطانية والمزاج النفسي لابنائها تجعلها في الاطوار الاولى من وجودها اكثر استعدادا للجوء الى الحركة العنيفة والمغامرة واكثر تقبلا لاسلوب العنف. مبعث ذلك الاحساس بالتناقض بين الجماعة الاستيطانية والسكان الاصليين ، والتأرجح بين الشعور بعدم الامان ، من ناحية ، والرغبة في اثبات السيطرة والقوة من ناحية اخرى .

وتعبر اسرائيل عن ذلك في استمرار حالة من التأهب العسكري والعدوان على الاقطار العربية المجاورة لها منذ عام ١٩٤٨ . فهي دولة لا حدود واضحة لها واقليمها في حالة تغير مستمر عبر اعوام ١٩٤٧ (قرار التقسيم) ، ١٩٤٩ (اتفاقيات الهدنة) ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي) ١٩٦٧ (احتلال اقاليم تبلغ ثلاثة امثال مساحة اسرائيل في حرب يونيو) . ويلعب العنف دورا وظيفيا هاما من وجهة النظر الصهيونية من حيث احياء الشخصية اليهودية وصهر التناقضات المختلفة في داخل اسرائيل ، هذه الحقيقة دفعت بعض الباحثين الى تسمية اسرائيل بالدولة المعسكر او الدولة الحركة، التي تعرف عقيدة الحركة الدائمة الى الامام والنمو المستمرة . وتعبر الدبلوماسية الاسرائيلية عن هذه الحقيقة بمبدأ « اللاتراجع » عن اي « حق » اكتسبته عن طريق المساعي الدبلوماسية او انتزعته من خلال فرض امر واقع جديد بقوة السلاح الا عندما يكون للقوى المناوئة من القوة ما يمكنها من فرض التراجع عليها ، وفي هذه الحالة يكون القرار بالتراجع بعد صراع عنيف ، وتردد وتذبذب طويلين داخل الكيان الاستيطاني ويقترن بمحاولة تقصير مسافة التراجع والتعويض عنه بمغانم اخرى [١٩] .

ب ـ الانفصام والتأرجح :

ويرتبط بذلك من حيث المزاج النفسي السائد في التكوينات الاستيطانية وجود نوع من الانفصام والتأرجح [٢٠] ، فهي من ناحية تشعر باحساس عميق بعدم الامان نتيجة التناقض مع السكان الاصليين ، بل وتنمي الشعور بالخطر بين ابنائها كأحد ادوات تحقيق التكامل والوحدة الداخلية . ومن ناحية اخرى تلجأ الى التوسع والعدوان لاثبات الذات في مواجهة اية مقاومة او تحد من جانب السكان الاصليين ، ومن ناحية ثالثة فان المواطن العادي فيها ، وبالذات بعد مرور فترة من قيام الدولة ، يشعر بالسأم والارهاق من استمرار حالة التأهب العسكري ، ومن ثم تبرز رغبة صادقة لدى العديد من المواطنين البسطاء في هذه التكوينات في تحقيق السلام ، دون ان يدركوا ان طبيعة الكيان الذي ينتمون اليه هي المصدر التاريخي لحالة الصراع وغياب السلم .

ج ـ الارتباط بدولة ام :

ففي كل التكوينات الاستيطانية يسود الشعور بالذات لدى الاجيال الاولى ـ بصفة خاصة تجاه دولة ام ، ففي النموذج الاسترالي ـ الكندي مثلا تعتبر بريطانيا بمثابة دولة ام ، وأساس هذه العلاقة ان اغلبية المهاجرين كانوا ينتمون الى أصول انجليزية أو أسكتلندية. نفس الوضع تعرفه الولايات المتحدة الامريكية .

وتقدم اسرائيل نموذجا مغايرا لذلك. فالدولة الام في حالة اسرائيل لا ترتبط بجنسية اغلبية المهاجرين ، ولكنها ذات طبيعة سياسيّة ، فمع ان الهجرات الاولى في فلسطين كانت تنتمي اساسا الى اصول من دول شرق اوروبية ، نجد ان الدولة الام ـ حتى انعقاد مؤتمر بلتيمور عام ١٩٤٢ ـ كانت هي بريطانيا ثم اصبحت الولايات المتحدة . وهكذا فان العلاقة مع الدولة الام في النموذج الاسرائيلي لا ترجع الى الانتماء السلالي او الارتباط الديني او الروحي ، ولكن التحالف السياسي واعتبارات

---

(١٩) انظر نماذج متعددة لذلك في د . فايز صايغ : **الدبلوماسية الصهيونية** (بيروت : مركز الابحاث ، ١٩٦٧) ص ٩٦ ـ ١٢٣ .

(٢٠) د . سعد الدين ابراهيم : في سوسيولوجية الصراع العربي الاسرائيلي (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٣) ص ١٠٧ .

المصحلة . ويمكن القول ان الطبقة الحاكمة الاسرائيلية تربط ذاتها دائما بالدولة المسيطرة في المنطقة العربية [٢١] .

ثالثا : من الناحية الاقتصادية :

أ ـ اولوية التناقض الخارجي على التناقضات الداخلية :

تشهد الجماعات الاستيطانية ، شأنها في ذلك شأن كل المجتمعات الاخرى ، تناقضات اقتصادية بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، ولكن هذه التناقضات تأخذ اشكالا متميزة بحكم الطبيعة الاستيطانية للكيان ، والتي تضع التناقض مع السكان الاصليين بمثابة التناقض الرئيسي الذي تتوارى امامه سائر التناقضات الاخرى ، ويصبح لهذه التناقضات قيمة ثانوية بالنظر الى التناقض الاساسي مع السكان الاصليين .

ب ـ عدم تبلور الوعي الطبقي :

في المراحل الاولى من الجماعات الاستيطانية تكون الطبقات ما زالت في مرحلة جنينية من حيث تكوينها ، ويتسم الوعي الطبقي بالتخلف ، نتيجة وجود التناقض الرئيسي مع السكان الاصليين . اضف الى ذلك طبيعة نفسية « المستوطن » الذي يواجه مشاكل التكيف مع اطار اجتماعي جديد ، وعادة ما ينظر الى المهنة او العمل الذي يقوم به على انه مؤقت. يترتب على ذلك شيوع نظرة تؤكد على الترقي الفردي وامكانية تحسين الفرد لفرصه وانتقاله من وضع الى آخر ، وليس على النضال الاجتماعي لتغيير شكل النظام الاقتصادي .

ج ـ اختلاط التفاوت الاقتصادي بالوضع السلالي :

بمعنى ان الانتماء الى اصل سلالي معين تترتب عليه اوضاع اجتماعية واقتصادية ، فعلى سبيل المثال فان معظم الطبقات الدنيا من المهاجرين الشرقيين من آسيا وافريقيا .وقد دفع ذلك القطاع الاكبر من هذه الفئات ، الى محاولة انكار « شرقيتهم » والنظر الى اصلهم السلالي على انه سبب النظرة الدونية لهم . بعبارة اخرى لقد ارادوا التخلص من اصلهم وربطوا انفسهم باكثر الاحزاب الاسرائيلية شوفينية وعنصرية وتعصبا ، وهو « حيروت » ، وهو ما يشابه سلوك البيض الفقراء في الولايات المتحدة .

لقد حاولت في هذه الصفحات ـ من وجهة نظر تركيبية ـ ابراز بعض سمات حركة الكيان الاستيطاني ، ان الاضافة المتواضعة التي تقدمها هذه الدراسة هي انه بينما ركزت الابحاث السابقة في مجملها على خصائص وديناميكية تأسيس ونشأة الكيانات الاستيطانية ، فان هذه الدراسة تبرز خصائص حركة الكيان الاستيطاني بعد قيامه ، وان الامر يستدعي المزيد من الدراسات المتعمقة في كل هذه الجزئيات ، وهو ما يتطلب المزيد من جهد علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد والنفس العرب لكي يضعونا على ارضية اكثر علمية عندما نتناول قضايا مثل : ما هي الطريقة المثلى للتعامل مع هذه الكيانات عبر مراحل تطورها المختلفة ؟ كيف يمكن من خلال استراتيجية عربية التأثير على او توجيه العمليات الاجتماعية والنفسية في داخل هذه الكيانات ؟ما هو مستقبل هذه الكيانات وما هي المتغيرات الرئيسية التي تؤثر على هذا المستقبل ؟ وما هي التطورات المحتملة لها في ظل التسوية او السلام ؟ وعلى ضوء ذلك كله ما هي الاستراتيجية العربية اللازمة لادارة الصراع وحله بما يخدم الاماني القومية العربية والمستقبل العربي ؟

---

(٢١) حول ردود فعل الدول الغربية للكيانات الاستيطانية انظر :

Richard P. Stevens, Settler States and Western Response: Israel and South Africa, in A. Jabara and J. Terry, eds., *The Arab World from Nationalism to Revolution* (Wilmette-Illinois: The Medina University Press International, 1971), PP. 163-175.

نحو استراتيجية عربية للتنمية

الدكتور محمد سيد محمد

مدرس الصحافة في كلية الاعلام في جامعة القاهرة . له عدة مؤلفات عن الحركة العمالية والاعلام والتنمية وادارة الصحف ، اما رسالتاه للماجستر والدكتوراه فقد تناولتا تاريخ مجلتي « الرسالة » و « السياسة الاسبوعية » .

بعيداً عن كل فنون الخطابة والحماسة ، وبعيداً عن الأحلام وخيالات الترف والأماني القومية ، نطرح سؤالا : هل يستطيع العرب اللحاق بقطار التقدم وكسر طوق التخلف ؟

إن الطريق الى تقدم العرب ينبع من الفهم السليم لمعنى استراتيجية عربية للتنمية الشاملة ، ومن واجبنا عند النظر إلى مفهوم الاستراتيجية أن ننظر اليها بمفهومها الشامل وهو المفهوم المعاصر . وهو أن الاستراتيجية هي اختيار أفضل الخطط وانسبها لتحقيق الأهداف المطلوبة .

وبذلك يمكن القول بأن الاستراتيجية العربية للتنمية هي فن السيطرة على جميع موارد الأمة وطاقاتها واستخدامها الاستخدام الأمثل الى اقصى حد ممكن لصالح أبناء الأمة العربية .

التجارب التاريخية

والحديث المعاصر على ابواب الربع الأخير من القرن العشرين حول استراتيجية عربية للتنمية لا ينبع من ظروف طارئة ، وانما يعتمد على تجارب تاريخية قريبة العهد . وحتى اذا عبرنا الظروف التي كانت فيها المنطقة العربية منطقة واحدة وبدأنا الحديث من العصر الذي تم فيه تمزيق الوطن العربي فاننا نجد ان اشكالا عدة من التعاون الاقتصادي والثقافي قد لبعضها النجاح واخفق البعض الآخر .

ويمكن القول بصفة عامة انه منذ انشاء الجامعة العربية عام ١٩٤٥ ، ثم عقد معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي في ابريل (نيسان) عام ١٩٥٠ ، ثم انشاء المجلس الاقتصادي العربي ، وما تبعه من الاتفاقيات المنظمة للتبادل التجاري ، ثم تطور اشكال التعاون بانشاء المنظمة العربية للعلوم الادارية ، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ومنظمة العمل العربية ثم انشاء الشركات والمؤسسات العربية ، منذ بداية هذا النشاط حتى اليوم كان العائق الأول امام الاتجاه نحو التكامل الاقتصادي العربي هو صدور القرارات التي لا تجد طريقها للتنفيذ .

التنمية

ان التنمية هي اساس التكامل والوحدة الاقتصادية لأن التكامل والوحدة الاقتصادية لا يتم بغير حركة ديناميكية . هذه الحركة تتمثل في التنمية . ان التكامل الاقتصادي العربي والوحدة الاقتصادية العربية لا يمكن ان يتم بغير حركة للأمام تشبه التقاء الروافد في مجرى النهر العظيم عند نقطة متقدمة من جريان هذه الروافد جميعاً . أما الماء الآسن والراكد فسواء كان بركاً منفصلة او

بركة واسعة كبيرة لا ينتج غير مشاكل الماء الآسن ومشاكل البرك .

سواء كان التكتل فرعياً أو رئيسياً بمعنى انه سواء كان التكتل يشمل جميع البلدان العربية او يشمل عدداً منها مثل المغرب العربي أو وادي النيـــل او سورية والعراق وهكذا ... فانه خطوة الى الأمام . ان الشرط الوحيد للتكتل الصحيح الا يكون تشرذماً بمعنى أن السؤال المطروح دائماً امام التكتلات الفرعية هو هل سيؤدي ذلك الى نوع من الاستقطاب ويعوق التكتل الرئيسي أم انه يعد خطوة متقدمة نحو التكتل الرئيسي الذي يضم العرب جميعاً . وفي رأيي أن أي خطوة عربية بغير هدف التشرذم لا بد وأن تقود الى خطوة اخرى متقدمة نحو التكامل والوحدة .

الجانب الثقافي

والى جانب الجهود المبذولة في المجال الاقتصادي ، تقف جهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عملاقة في وضع استراتيجية عربية لتطوير التربية وفي شتى مجالات الثقافة والعلوم . ولعل ميثاق الوحدة الثقافية العربية يلقي لنا ضوءاً باهراً لتصور الجانب الثقافي في الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة .

العرب وفرص التنمية

من الواضح تماماً ان العرب قطعوا اشواطاً في طريق التبادل والتعاون والتكامل الاقتصادي والثقافي خلال ثلاثين عاماً منذ انشاء الجامعة العربية التي اصبحت بدورها منظمة(١) تستطيع لو نفخت فيها روح التوثب وأزيلت من اروقتها الحساسيات ولم تقم السدود والحواجز أمام تنفيذ قراراتها تستطيع أن تؤدي دوراً رائداً في مجال الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة .

ومن الواضح أيضاً أن العرب الذين يسمونهم القوة السادسة في العالم بعد أكتوبر ١٩٧٣ ليسوا في آخر قائمة التخلف . وأن هذا الكيان البشري الذي يمثل ٥٪ من مجموع سكان البلدان النامية يملك اكبر فرص التقدم وكسر حاجز التخلف في العالم الثالث . لماذا ؟ للأسباب الآتية : ــ

١ ــ **الوضع الجغرافي** : ان النظرة المتفحصة لموقع ومناخ وثروات الوطن العربي تجعل الانسان مذهولا أمام واقع الثراء الجغرافي بكل ابعاده وواقع التخلف الذي يعيشه أبناء هذه الوحدة الجغرافية من الكرة الأرضية . ولعل عنصراً واحداً ــ غير البترول ــ من عناصر الثراء الجغرافي يضرب لنا مثلا صارخاً لذلك . ان مساحة الأرض المنزرعة في السودان حوالي ٦ ملايين فدان ، أما مساحة الأراضي الصالحة للزراعة وتنتظر رأس المال العربي والأيدي العاملة العربية فهي ١٢٠ مليون فدان ، والأراضي الصالحة للرعي تبلغ ٨٠ مليون فدان .

٢ ــ **الطاقة البشرية** : وأهمها في نظري ايجابيات الشخصية العربية القادرة على التقدم والتطور ، والقادرة على التفاعل مع العالم . انها ليست الشخصية المنغلقة أو الشخصية المعتنقة

---

(١) تضم الجامعة العربية منظمات ومجالس ومكاتب ولجان عديدة اهمها : منظمة العمـل العربيـة ، مجلس الوحـدة الاقتصادي ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مجلس الطيران المدني للدول العربية ، المنظمـة العربيـة للتنميـة الزراعية ، المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ، المنظمة العربية للعلوم الادارية ، المنظمة الدولية العربيـة للدفـاع الاجتماعي ضد الجريمة ، الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية ، الاتحاد البريدي العربي ، اتحاد اذاعات الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، مركز التنمية الصناعية ، المركز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار . والى جانب المنظمات التابعة للجامعة العربية تبرز منظمات شعبية ومهنية للعرب مثل اتحاد الصحفيين العرب والاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب واتحاد الأطباء العرب واتحاد الصيادلة العرب واتحاد المهندسين وغير ذلك . كما ان الاتحادات النوعية العربية تشمل الصناعات الغذائية ، الورقية ، التأمين ، غرف التجارة والصناعة والزراعة ، الحديد والصلب ، المصارف ، الأسمدة الكيماوية ، الصناعات الهندسيـة ، الأسمـاك ، الصناعات النسيجية .

لأفكار الجنس الأسمى . ان الطاقة البشرية العربية التي ادارت قناة السويس عقب التأميم في ظل ظروف استعمارية معوقة ومعادية ، والتي أدارت عمليات استخراج البترول عقب تأميم بعض شركاته في بعض الأوطان العربية بمهارة وكفاءة أكبر من خبرات الشركات الاحتكارية . هذه الطاقة البشرية العربية المكبلة والمهاجرة والمترددة تستطيع يوم تزال من امامها الحواجز ، وتوضع موضع المسؤولية أن تقود التقدم وتصنع المعجزات .

٣ ـ **الثروة** : وقد يتبادر الى الذهن ان فوائض الأموال العربية الهائمة على وجهها في بنوك أوروبا وأمريكا هي كل مفهوم الثروة . ولكن الحقيقة انها جزء من الثروة الوفيرة للوطن العربي ، وهي جزء حيوي لأنه يستطيع أن يعجل بدوران العجلة ، وأن يتخطى حواجز التمويل .

٤ ـ **الوضع الحضاري المعاصر** : الذي هو امتداد لحضارات قديمة وعريقة . ولو بحثنا في الجوانب المعنوية للعرب حالياً ـ وليس تاريخياً فقط ـ لوجدناهم على درجة كبيرة من البناء المعنوي الذي يمكنهم من احراز التقدم ، ولوجدناهم في طليعة العالم الثالث من هذه الزاوية .

ضرورة الاستراتيجية العربية للتنمية

هل الاستراتيجية العربية للتنمية ضرورة ؟ أم هل هي حتمية ؟ ولماذا ؟

ان الاستراتيجية العربية للتنمية الشاملة ضرورة لاحراز التقدم وكسر طوق التخلف ، فبغير هذه الاستراتيجية تستطيع كل دولة على حدة ان تنمي نفسها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ـ كما يحدث الآن ـ ولكن محصلة كل ذلك هو أن تصبح البلدان العربية حلقات متفرقة منها القوي ومنها الأقل قوة ومنها الضعيف ولكنها على أية حال حلقات منفصلة .

وفي ظل التكتلات العالمية من الدول الرأسمالية الغنية المتقدمة ، والدول الاشتراكية المتقدمة ، وحتى الصين تمثل بمفردها كتلة بشرية واقتصادية وجغرافية هائلة ، في ظل هذه الكيانات العملاقة لا امل للأفراد في احراز تنمية هائلة . ومهما قويت عضلات القزم ، اي مهما اشتدت الحلقة فان السلسلة شيء مختلف في عالم التنمية. من اجل ذلك تتضح حتمية الاستراتيجية العربية للتنمية كطريق فرضه الواقع العالمي المعاصر ، وفرضته ظروف العرب وامكاناتهم المعاصرة . والكيانات الكبيرة العملاقة تتكاتف بشتى الطرق ليشد بعضها بعضا . ويصل مدى التكاتف بينها الى ما هو ابعد من السوق المشتركة او الانتاج المشترك ، فيبدو أحياناً كأنه من الأمور التلقائية لمواجهة مشكلة حلقة في السلسلة او اقالتها من عثرة اعترضتها . انه نوع من العلاقات شبه الخفية بين الدول الغنية . لقد مر الاسترليني مثلا بفترات عصيبة منذ مارس (آذار) ١٩٧٦ عندما هبط سعره الى أقل من دولارين ثم توالى الهبوط ووصل الى ١,٥٥٥ دولار في اكتوبر (تشرين الأول) من نفس العام . واضطرت الحكومة البريطانية الى اتخاذ اجراءات نقدية شديدة ، فرفعت سعر الخصم من ١١ ونصف في المائة الى ١٥ في المائة . وحصلت على قرض من صندوق النقد الدولي يبلغ ٣,٩ مليار دولار . وفاوضت الحكومة البريطانية الدول العشر الغنية للحصول على تسهيلات من البنوك المركزية فيها بلغت ٥,٣ مليار دولار . وفي نوفمبر (تشرين الثاني) من نفس العام بدأ التحسن وفي مطلع عام ١٩٧٧ أصبح الاسترليني ١,٧ دولار ثم قفز الى ١,٨٤ دولار في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٧ ، وذلك بتكتف جهود الدول الغنية والبنك الدولي مع اصحاب المشكلة .

عناصر النجاح ومعوقاته

ان اقوى ما تملكه الأمة العربية ، بل وأكبر وأقيم ما تملكه هو وحدة ثقافتها . وهذا هو أقوى وأهم عناصر نجاح الاستراتيجية العربية للتنمية . أما أخطر معوقات هذه الاستراتيجية فهو عدم النضج السياسي المتمثل في بعض الحكام . ومن ثم نجد وحدة الثقافة العربية هي عامل المد ونجد السياسة عامل الجذر . وفي المساحة المشتركة بين عاملي المد والجذر يمكننا ان نصنف عناصر النجاح ، ونبين كيف يمكن دعمها وتقويتها ، وأن نصنف

المعوقات وأن نبحث سبل ازالتها او تقليصها او تخفيف أثرها . وسنجد أن عوامل الجذر عالقة ومتداخلة في عوامل المد أحياناً . كما نجدها تقف خارجها متربصة بها في أحيان أخرى ، أو تلتف حولها مطوقة كالشرنقة .

وقبل ان نعرض للعناصر التقليدية للتنمية والمتمثلة في الانسان والمال والثروة الطبيعية ينبغي أن نشير الى حقيقة تاريخية مذهلة هي : أن ما توفر للعرب في هذا الربع الأخير من القرن العشرين من عناصر التنمية لم يتوفر لبشر من قبلهم . ان ظروف العرب الآن في احراز التنمية الشاملة أقوى كثيراً من ظروف البلدان الرأسمالية المتقدمة التي صنعت تنميتها خلال قرون وكانت لها مستعمرات لا تغيب عنها الشمس . وكذلك تتفوق الامكانات العربية الآن عن الامكانات التي بدأ بها الاتحاد السوفييتي تنميته بعد ثورة ١٩١٧ ، او اليابان بعد الحرب العالمية الثانية .

الانسان

يمثل العرب ٤٪ من سكان العالم و ٥٪ من العالم الثالث وهم يزيدون قليلا عن ١٥٠ مليون نسمة . ومن هذا الرقم يصبح التجمع البشري العربي خامس تجمع في العالم اذ تحتل الصين (٨٠٠ مليون) المركز الأول ، ثم تليها الهند (٦٠٠ مليون) ويحتل الأتحاد السوفييتي (٢٥٠ مليونا) المركز الثالث ثم تحتل الولايات المتحدة الأمريكية (٢١٥ مليونا) المركز الرابع .

وبرغم أنه لا توجد احصائيات دقيقة لعدد العرب المهاجرين خارج الوطن العربي فانني اعتقد أنهم في حدود ثلاثة ملايين ، ما بين عمال وخبراء وعلماء .

واقبال العرب على التعليم ظاهرة اجتماعية بارزة في كافة الأقاليم العربية ومقدرة الانسان العربي على استيعاب تكنولوجيا العصر تؤكدها مواقفه اللامعة في الحرب والسلم ــ وان قلت ــ الا انها نموذج يؤكد صلاحية قدراته الحضارية .

ان هذا التجمع البشري يتحدث لغة واحدة وينتمي الى أصل واحد ، ويدين في معظمه بدين واحد ، ويندمج مع الأقلية الدينية اندماجاً عاطفياً ووطنياً وقومياً لا يقل عن اندماجه بأبناء دينه في الأغلب الأعم . وهذا التجمع البشري بحكم وحدة الثقافة توحدت مشاعره بل ومعظم جوانب سلوكه .

هذا الانسان العربي قادر على احراز التنمية لو حصل على العدل الاجتماعي وأتيحت له الديمقراطية الحقيقية ، ولو تخلص من رواسب عصور الضعف ومنها غيبة المرأة عن ساحة العمل فيما يلائمها من اعمال وانتاج . وهكذا نجد ان العامل السياسي ــ بجانبيه الحرية الاجتماعية والحرية السياسية ــ يمثل معوقاً للتنمية اذا قيد الانسان صانع التنمية .

المال

نقصد بالمال بصفة خاصة الفوائض البترولية العربية المودعة في بنوك أوربا وأمريكا ، لأنها تفوق قدرة اصحابها على الانفاق وعلى الاستثمار في أقاليمهم .

لقد قدرت ايرادات دول الأوبك من البترول في عام ١٩٧٥ بأكثر من ٩٤ ألف مليون دولار كانت على الوجه التالي :

السعودية	:	٢٤,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار	ليبيا	: ٥,٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار
ايران	:	١٩,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار	اندونيسيا	: ٣,٩٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار
العراق	:	٨,٣٥٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار	الجزائر	: ٣,٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار
فنزويلا	:	٦,٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار	قطر	: ١,٥٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار
الكويت	:	٦,٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار	جابون	: ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار
نيجيريا	:	٦,٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار	اكوادور	: ٧٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار
الامارات	:	٦,٠٥٠,٠٠٠,٠٠٠	دولار	المجموع	: ٩٤,٠٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار

وهذه الأرقام التي تصور لنا حجم الفوائض العربية التي بدأت تقفز بعد أكتوبر ١٩٧٣[٢] محققة السعر العادل للبترول من جانب ، وفاتحة نافذة واسعة لآمال التقدم في بلدانها من جانب آخر .

ولقد صاحب تراكم الموارد المالية العربية الكثير من الضجيج الاعلامي المتعمد . وقدمت وسائل اعلام الاستعمار الجديد صورة سادها التهويل لفوائض الدول العربية البترولية لتوهم بضرورة تحولها الى الغرب الغني القادر على استيعابها ودفع أرباح عالية على ودائعها . ولكن البحث البسيط المتأني يثبت أن كل الفوائض البترولية العربية التي وصلت الى ٣٣,٥ بليون دولار عام ١٩٧٥ و ٣٩,٤ بليون دولار عام ١٩٧٦ يمكن استثمارها بل واستثمار أضعافها في التنمية العربية الشاملة،وتقول دراسة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية[٣]: ان البلاد العربية بصفة عامة على قدر من التخلف بحيث أنه اذا أردنا الوصول بمتوسط الدخل الفردي للمواطن العربي في عام ١٩٩٥ الى المستوى الذي هو عليه في الدول الصناعية في سنة ١٩٧٢ لكان ضروريا استثمار ١٤٠ بليون دولار سنوياً في المنطقة » .

وتبرز دراسة مجلس الوحدة الاقتصادية العربية العقبات التي تقف ازاء تدفق الأموال العربية الى المنطقة فيما يلي :

ـ وجود قيود عديدة على تحويل رأس المال والاجراءات النقدية .

ـ وهناك آثار سلبية للعلاقات السياسية على العلاقات الاقتصادية بحيث تستعمل القروض حالياً ـ شبيهاً بامبريالية القرن التاسع عشر ـ في فرض شروط سياسية أو تدخل في السياسات الداخلية .

ـ عدم توفر المشروعات المدروسة التي يمكن أن تجتذب التمويل الانمائي .

ـ عدم نشوء سوق مالية عربية .

ـ محدودية موارد كل من الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ، والمؤسسة العربية لضمان الاستثمار .

ـ ومع ذلك فقد أمكن قيام عدد من الشركات العربية المشتركة برؤوس أموال قد تصل الى ٦ بلايين دولار لا يتهدد رؤوس أموالها شيء،وتشير كل الدراسات المسبقة لقيامها واللاحقة لمباشرة البعض منها نشاطه أنها سوف تلاقي نجاحاً طيباً سواء في مجالات نشاطها أو في تدعيم الرابطة الانتاجية العربية .

وبعد استعراض هذه الحقائق يطرح خبراء التخطيط بمجلس الوحدة الاقتصادية امكانيات الحل في اتجاهين رئيسيين هما : ـ

● قيادة وتوجيه وتنسيق الدراسات حول المشروعات الانمائية العربية التي تساعد على تحقيق التنمية والتكامل الاقتصادي .

● انشاء هيئة أو جهاز أو مستوى يقوم بالتنسيق بين جهود المؤسسات المالية والاستثمارية العربية .

---

(٢) يبين الجدول التالي تطور سعر البرميل الواحد من البترول بالدولار

من	١٩٦٠/١/١	:	١,٨٠	
من	١٩٧١/٢/١٥	:	٢,١٨	
من	١٩٧١/٦/١	:	٢,٢٨	
من	١٩٧٣/١/١	:	٢,٥٩	
من	١٩٧٣/٦/١	:	٣,٩٠	
من	١٩٧٣/٨/١	:	٣,٠٧	
من	٧٣/١٠/١٦	:	٥,١٢	
من	١٩٧٤/١/١	:	١٠,٥٦	
من	١٩٧٥/٩/١	:	١١,٥١	
من	١٩٧٧/١/١	:	١٢,٧٠	
من	١٩٧٧/٧/١	:	١٣,٣٠	

(٣) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ـ اللجنة الفرعية للتخطيط ـ **استراتيجية التنمية العربية** ـ دراسة موسعة ، أكتوبر سنة ١٩٧٧ .

وبذلك يمكن تحقيق الآتي : ـ

١ ـ اجتذاباً أكثر لرؤوس الأموال .

٢ ـ تحقيق معدلات ربح اعلى من مواقع الاستثمار المعتمدة حتى الآن .

٣ ـ تحقيق ضمان لرؤوس الأموال ضد الأخطار المختلفة .

٤ ـ نفي انتشار التبعية الاقتصادية الذي يتهددنا حالياً .

٥ ـ دفع النشاط العربي المشترك في اتجاهات تخدم دفع النشاط المحلي في الأقطار المختلفة .

٦ ـ ارساء خطوات على طريق التكامل .

ومنذ البداية أقامت الرأسمالية العالمية الغنية والمتقدمة شباكها لاصطياد رأس المال العربي في شكل ديون بفوائد عالية ، وفي شكل أسهم وسندات لشركات صناعية تحقق ارباحاً مرتفعة ، وحتى في شكل عقارات في مدن الغرب . غير أن هناك مخاطر حقيقية(٤) تواجه رأس المال العربي المتجه للاستثمار في الدول الأجنبية ، وهي :

اولا : تمثل الضرائب بأشكالها الشتى في البلاد المتقدمة صناعياً في الوقت الحاضر نسباً عالية وبالتالي فان العائد الصافي أقل اغراء بكثير من عائد الاستثمار الاجمالي .

ثانياً : مجموعة القواعد التي اصدرتها البلاد المتقدمة صناعياً في الأشهر القليلة الماضية والتي كان من نتيجتها ان وضعت عراقيل أمام حرية تحرك رأس المال من بلد الى بلد آخر . فمن تقييد وقتي لحرية المودع الأجنبي لتمويل جزء من حسابه الى عملة أجنبية الى تقييد كامل بمنع اضافة أي أرصدة جديدة لحساب المودع الأجنبي كما اتبع في ألمانيا وسويسرا وبلجيكا وهولندا . هناك أيضاً قواعد تحد من قدرة الاقتراض الخارجي وضعتها تلك البلاد المتقدمة صناعياً .. فمثلا استخدمت المانيا وسيلة معينة وهي اجبار المقترض الالماني بأن يودع في البنك نسبة نقدية مما يزمع اقتراضه من الخارج وبذلك تستطيع الدولة ان تمنع الاقتراض الخارجي كلية اذا ما رفعت تلك النسبة الى مائة في المائة .

ثالثاً : القيد السياسي وهو قيد هام للغاية في تاريخنا العربي الحديث . فاذا حزمت البلاد العربية المصدرة للبترول أمرها واتبعت القواعد الاقتصادية للاستثمار فقط فان معظم رؤوس الأموال العربية ستستثمر في الولايات المتحدة الأمريكية حيث أنها ما زالت تمثل السوق الحرة المفتوحة التي تتسم بحجمها الكبير وبقيود أقل بكثير من مثيلاتها في الدول الأخرى الصناعية .

مثل هذا الاستثمار اذا لم توضع له قواعد اقتصادية سياسية حكيمة فانه قد يعرض الأموال العربية لما أطلق عليه ظاهرة « رأس المال الرهين » . ففي الوقت الذي ستنهال رؤوس الأموال العربية للاستثمار في الولايات المتحدة سوف لا يقابلها رأس مال أمريكي كبير يسعى للاستثمار في تلك البلاد العربية المصدرة للبترول وبالتالي فانه بعد سنوات قليلة سنجد أن حجم رؤوس الأموال الأمريكية المستثمرة في تلك المنطقة العربية لن تمثل الا نسبة ضئيلة من حجم رؤوس الأموال العربية المستثمرة في الولايات المتحدة .. نتيجة عدم التوازن هنا. أن التهديدات التي ستوجه ضد رؤوس الأموال العربية في أمريكا اكبر وأخطر بكثير من التهديدات التي يمكن أن توجه ضد رؤوس الأموال الأمريكية المستثمرة في البلاد العربية المنتجة للبترول .

ولا شك أن دعوة زراعة المال العربي في أرض عربية هي الطريق الوحيد والصحيح للمحافظة عليه ودوام بقائه بعيداً عن أزمات النقد العالمية وأزمات الاقتصاد الرأسمالي بصفة عامة .

---

(٤) د . ابراهيم محمد عويس ـ أستاذ الاقتصاد بجامعة جورج تاون الأمريكية ـ مخاطر تدفق رأس المالي العربي على الدول الصناعية ـ جريدة الاهرام بتاريخ ١٠/١/١٩٧٥ .

الثروة الطبيعية

وهي غير معروفة على وجه الدقة ، ولا على وجه التقريب . ولكن المعروف منها فقط يدير الرؤوس . ويجعل القارىء يعجب لعدم الاستفادة من هذه الثروة الهائلة . ولعل الأراضي الزراعية تقدم لنا دليلا شامخاً على ضخامة الموارد . فمساحة الوطن العربي ٣٥٠٠ مليون فدان منها ألف مليون فدان صالحة للزراعة (محاصيل ومراع وغابات) . من هذه الألف مليون فدان يزرع فعلا ١٢٦ مليون فدان والباقي ينتظر الاستثمار الأمثل او مجرد الزراعة .

ولو استخدمت تكنولوجيا الزراعة لأصبح الفرد في الوطن العربي عام ألفين يحصل على نصيب من الأرض الزراعية أعلى من نصيب الفرد في الولايات المتحدة الأمريكية وهي الدولة المنتجة لأكبر فائض غذائي في العالم .

وثروة العرب من البترول على كل لسان . ووفق احصائيات عام ١٩٧٥ بلغ انتاج العالم ما متوسطه ٥٣,٤ مليون برميل يومياً . ومن هذه الكمية بلغ انتاج الأوبك ٢٧,١ مليون برميل أو ما يعادل ٥٠,٩٪ من كل الانتاج العالمي . وكان توزيع الانتاج على الدول الأعضاء في الأوبك على الوجه التالي محسوبة على أساس متوسط الانتاج في اليوم الواحد بالبرميل

١ ـ السعودية	:	٧,٠٥٤,٤٠٠	٨ ـ ليبيا	:	١,٤٧٩,٨٠٠
٢ ـ ايران	:	٥,٣٥٠,١٠٠	٩ ـ اندونيسيا	:	١,٣٠٦,٥٠٠
٣ ـ فنزويلا	:	٢,٣٤٦,٢٠٠	١٠ ـ الجزائر	:	١,٠٢٠,٣٠٠
٤ ـ العراق	:	٢,٢٦١,٧٠٠	١١ ـ قطر	:	٤٣٧,٦٠٠
٥ ـ الكويت	:	٢,٠٨٤,٢٠٠	١٢ ـ جابون	:	٢٢٣,٠٠٠
٦ ـ نيجيريا	:	١,٧٨٣,٢٠٠	١٣ ـ أكوادور	:	١٦٠,٩٠٠
٧ ـ الامارات	:	١,٦٦٣,٣٠٠			

فاذا أضفنا الى هذه الاحصائية تقديرات احتياطي البترول العربي التي تؤكد أن احتياطي البترول العربي أكثر من نصف احتياطي العالم لتبين لنا قيمة هذا المورد .

ولا يمكننا ان نتخيل أن البترول أهم ثروات العرب ، وهو ثروة قصيرة الأجل . ان الماء العربية بالأمطار في كثير من المواقع ، والأنهار العربية التي تضم النيل والفرات ودجلة ،)بل والمناخ والآثار التي تعد كنوزا سياحية يمكن أن يجني منها العرب آلاف الملايين من الجنيهات . والصحراوات التي لم يتم اكتشاف ما فيها من معادن وكنوز ، وشواطىء العرب ومواقع موانيهم التي تؤهلهم لأن يصبحوا بحارة العالم وصيادي اسماكه . كل هذه الثروة تحتاج الى المال وهو موجود والى الطاقة البشرية وأساسها موجود ويمكن تطويرها ودعمها ، والى التكنولوجيا ويمكن استيرادها وتوطينها .

آفاق المستقبل

ماذا حدث للذين فاتهم عصر البخار وعصر الكهرباء ؟ وماذا حدث للذين أدركوا العصرين ولحقوا بعصر الذرة ؟ ان ما حدث هو الواقع المعاصر للتخلف والتقدم وللهوة التي تزداد اتساعاً في كل ساعة بين المتقدمين والمتخلفين . وهذا ما نرى منه آفاق المستقبل العربي .ان شروط التنمية لم تتيسر لبلد واحد من بلدان الوطن العربي . فالذين يملكون الطاقة البشرية تنقصهم الثروة الطبيعية وينقصهم التمويل ، والذين يملكون المال تنقصهم الموارد الطبيعية والطاقة البشرية ، والذين يملكون الموارد الطبيعية تنقصهم الطاقة البشرية ، والتمويل . والعرب جميعاً يملكون شروط التنمية جميعها وبصورة لم يحظ بها من قبل تجمع بشري . ولكن الصورة المعاصرة للأمة العربية تكاد تكون صورة نادرة لم يحظ بها مسرح في مأساة أو ملهاة . العرب يصدرون بصفة عامة المواد الخام للبلدان المتقدمة الغنية ويودعون اموالهم في بنوكها وتهاجر العقول والايادي العاملة العربية الى هذه البلدان المتقدمة الغنية . ثم يستورد

العرب من هذه البلدان التي صدروا اليها المادة الخام والمال والبشر ، المواد المصنعة ليأكل العرب ويشربون ويرتعون .

ماذا يمكن أن يحدث لو استمر هذا الوضع ؟ ببساطة شديدة وأليمة سوف تزداد الزوايا انفراجاً ، فتزداد هجرة العقول والأيدي العاملة العربية الى البلدان الغنية المتقدمة وتتضاعف ، وسوف يستمر تصدير المواد الخام والأولية للبلدان الغنية وسوف تتوطن الأموال العربية في الغرب . ويبقى بعد ذلك ان تبدأ صفحة جديدة في تاريخ العرب بعد انتهاء الدور التاريخي للبترول وهو ما يقدر في اكبر التفاؤلات بأقل من نصف قرن من الزمان .

ببساطة شديدة وأكيدة سوف تتغير خريطة المجتمع الدولي ، ويصبح هذا الكيان الكبير الواهن أصبى عمالقة القرن الحادي والعشرين في عالم الكيانات العملاقة . وكافة الدعاوى لعدم امكان ذلك كاذبة وكافة العوائق التي تبدو مانعاً لحدوث ذلك مصطنعة . ومشكلة العرب تتركز في نقطة واحدة هي ألا يفوتهم القطار .

أين يبدأ التكامل العربي ؟
في مجال الصناعة أم في مجال الزراعة

نادية مصطفى الشيشيني

باحثة بمجلس الوحدة الاقتصادية العربية منذ ١٩٧٤ ، وكانت قبلا معيدة بمعهد التخطيط القومي بالقاهرة ، حيث شاركت في دراسة العمالة في القطاع العام في جمهورية مصر العربية (١٩٧٣ ـ ١٩٧٤) .

ان فلسفة التكامل كأسلوب للتنمية الاقليمية تتمثل اساسا في خلق كيان اقتصادي واجتماعي كبير يجمع بين عدد من الكيانات الاصغر . وتقوم هذه الفلسفة على أساس ايجاد شعور قوي ومتزايد بالانتماء لهذا الكيان الأكبر نتيجة لايجاد مصالح اقتصادية جماعية مشتركة ومتشابكة تتسم بالدوام والاستقرار وتوثق الروابط بين الأعضاء . وانطلاقا من هذه الفلسفة ، تتمثل أهم اهداف التكامل في : حشد جهود وامكانات الدول الأعضاء في سبيل زيادة كفاءة استغلال الموارد المتاحة ، اتاحة فرص أكبر لتحقيق التنمية يمكن لجميع الأعضاء الاستفادة منها بدرجات متكافئة عن طريق تنسيق السياسات الوطنية ، والتقريب بين المستويات الانمائية للدول الأعضاء .

وان كانت محاولات التكامل لا تختلف كثيرا عن بعضها من حيث فلسفتها وأهدافها الأساسية ، الا انها تختلف عادة من حيث مجالات انطلاقها وأساليبها ، كما تختلف من حيث تدرجها ومراحلها . ويلاحظ ان أغلبية محاولات التكامل الاقتصادي بين الدول النامية ، ومنها محاولة التكامل العربي ، بدأت في مراحلها الأولى ـ وتشبها بمحاولة التكامل بين دول اوربا الغربية ـ بالتركيز على تحرير التبادل التجاري بين الدول الأعضاء . ولكن سرعان ما أتضح ان هذا الاسلوب يعني الاعتماد على فعالية قوى السوق كأساس للتوازن الاقتصادي ، وكأداة لحفز النشاط الإنتاجي على المستويات الوطنية . هذا في حين ان قوى السوق لا تعمل في الدول النامية بنفس الكفاءة التي تعمل بها في الاقطار المتقدمة اقتصاديا والتي تملك قواعد انتاجية قوية واحجام انتاج كبيرة . بل اثبتت التجارب العملية للتكامل بين الدول النامية ان اسلوب تحرير التبادل التجاري عاجز عن انجاز الاصلاحات الهيكلية المستهدفة في اقتصاديات هذه الدول ، وعن خلق فوائض انتاجية تكون اساسا للتجارة الاقليمية . وأصبح من الواضح وجود ضرورة لاستبدال ـ او استكمال ـ اجراءات التكامل في مجال التجارة باجراءات للتكامل في مجالات الانتاج السلعي ، خاصة في مجالي الصناعة والزراعة .

ويمكن القول ـ اضافة لما سبق ـ ان اغلبية محاولاث التكامل الاقتصادي بين الدول النامية ، ومنها محاولة التكامل العربي ، شهدت في هذه المرحلة تحولا نحو الاهتمام بالتكامل في مجال الصناعة ، حيث خصته بالنصيب الأكبر من الاجراءات التكاملية ، متأثرة في ذلك باتجاه سياسات التنمية الوطنية الى اعتبار التصنيع مرادفا للنمو ، لما يوفره من فرص للاسراع بمعدلات زيادة الانتاج والانتاجية . من هنا ساد الاعتقاد بأن التكامل في مجال الانشطة الصناعية يمثل ركيزة الانطلاق الاقوى نحو تحقيق التكامل الاقليمي والتنمية الاقليمية في المناطق الأقل نموا . وصاحب هذا الاعتقاد اتجاه نحو اهمال نسبي للتكامل في مجال الانشطة الزراعية ، ايمانا بأن هذه الأنشطة لا تملك نفس

المزايا التي تتمتع بها الأنشطة الصناعية كمجالات للتكامل ، فيما يتعلق بوفورات الحجم وبفرض التخصص الانتاجي ، خاصة في نطاق دول متجاورة ، تتشابه ظروفها المناخية والطبيعية .

وقد حان الوقت لمراجعة الاتجاه نحو اهمال الزراعة كمجال للتكامل العربي ، والى ابراز مزايا هذا القطاع كركيزة أكثر ملاءمة للانطلاق نحو تكامل اشمل وأعمق بين الدول العربية . والرأي ان تتم هذه المراجعة بمقارنة مقومات وأساليب ونتائج التكامل الصناعي والتكامل الزراعي في ضوء الظروف السائدة في المنطقة العربية ، على ان يكون من الواضح ان الهدف من مثل هذه المقارنة ليس اختيار مجال وحيد للتكامل واستبعاد المجال الآخر تماماً ، ولكن الهدف هو اختيار المجال الذي يوفر فرصاً اكبر لتقوية امكانات التكامل في بقية المجالات الاقتصادية والاجتماعية . فمحاولات التكامل الاقليمي لا يمكن ان تتركز في مجال اقتصادي أو اجتماعي وحيد مع اهمال بقية المجالات ، نتيجة لتشابك هذه المجالات وترابطها ، كما لا يمكن ان تنطلق من جميع مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية دفعة واحدة على نفس المستوى من الفعالية . ولكن المعتاد والأسلم ان تنطلق محاولات التكامل من مجال يحتل استراتيجية خاصة في اقتصاديات الدول الساعية الى التكامل ، لتمتد آثاره وخطواته تدريجياً الى بقية المجالات ، وقد انطلقت محاولات التكامل بين دول اوربا الغربية في بدايتها من مجال صناعات « الحديد والصلب » باعتبارها قطاعاً استراتيجياً في اقتصاديات الدول المعنية ، لتصل الى انشاء « السوق الاوربية المشتركة » و « منظمة الطاقة النووية الاوربية » .

التكامل الصناعي بين الدول العربية

ما زالت نسبة مساهمة القطاع الصناعي ـ لا سيما التحويلي ـ في الناتج المحلي ضئيلة في اغلبية الدول العربية ، حيث تراوحت في عام ١٩٧٥ ، بين أقل من ١٪ ، وحوالي ٢٠٪ . وقد اتجه الفكر الاقتصادي العربي في الستينات وأوائل السبعينات الى اعتبار التنسيق والتكامل الصناعي ضرورة تاريخية ، لا يمكن بدونها للاقطار العربية فرادى من تحقيق اهدافها المنشودة في النمو الاقتصادي والتقدم التكنولوجي . من هنا احتلت محاولات تحقيق التعاون والتنسيق في المجالات الصناعية اهمية خاصة في نطاق الاطار العام لمحاولات التكامل الاقتصادي العربي .[١]

يقوم الاتجاه السابق للفكر الاقتصادي العربي على أساس ادراك عميق لمقومات ومقتضيات التكامل في مجال الصناعة في المنطقة العربية . وتتلخص أهم هذه المقومات فيما يلي :

* الاستفادة من وفورات الحجم التي تتمتع بها المشروعات الصناعية الحديثة ذات الطاقات الانتاجية الكبيرة ، التي تفوق الطاقات الاستيعابية للأسواق المحلية في اغلبية الدول العربية . هذا علماً بأن انشاء قاعدة صناعية قوية تتسم بالتنوع والتكامل يتطلب توافر قاعدة استهلاكية لا يقل قوامها عن ٤٠ الى ٥٠ مليون نسمة ، مع ارتفاع مستوى الدخل الفردي . وهذان الشرطان لا يتوافران لأية دولة عربية على انفراد ، حيث تراوح حجم سكان الدول العربية في عام ١٩٧٤ من حوالي ١٤٠ ألف نسمة في قطر الى حوالي ٣٧ مليون نسمة في مصر ، مع ارتفاع مستويات الدخول للفردية في الدول الأقل سكاناً وانخفاضها في الدول الأكثر سكاناً في أغلب الحالات .

* التغلب على مشكلات ضخامة التمويل اللازم لانشاء وحدات صناعية كبيرة الحجم تستخدم تكنولوجيات حديثة . وتجدر الاشارة هنا الى ان التقدم التكنولوجي في القرن العشرين حدث في اتجاهات أدت الى ارتفاع الحجم الاقتصادي الأمثل للمشروعات الصناعية ، من جهة ، والى ازدياد كثافة رأس المال ، من جهة أخرى . من هنا أصبحت مشكلة تمويل مشروعات التصنيع من اكبر المشكلات التي تواجهها الدول العربية التي تعاني من وجود عجز في موازين مدفوعاتها .

---

(١) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، **التقرير النهائي لندوة التنسيق الصناعي العربي** ، الاسكندرية ـ جمهورية مصر العربية ، ٢٢ ـ ٢٦ يونيو (حزيران) ١٩٧٦ (ص ٧ ـ ٨) .

* زيادة كفاءة استغلال الموارد الطبيعية (الزراعية والتعدينية) المتوافرة في المنطقة العربية ، والتي لا يزال أغلبها ـ حتى النفط ـ يصدر خاماً أو نصف مصنّع ، لتتمتع الدول المستوردة بالقيمة المضافة المتولدة عن اتمام تصنيعه .

* الاسراع بأحداث التغيرات الهيكلية الملائمة في اقتصاديات الدول العربية ، والتي اصبح من الواضح ان سياسات التصنيع العربية الوطنية عاجزة عن تحقيقها ، نتيجة للعوائق المحلية التي تختلف من دولة عربية لأخرى ، والتي تقف في سبيل اقامة قواعد صناعية وطنية قوية تتسم بالتنوع وبالاستقلال الاقتصادي والتكنولوجي .

أساليب التكامل الصناعي بين الدول العربية :

رغم الادراك القوي لضرورة تحقيق نوع من التكامل الصناعي العربي ، ورغم الوعي بالمقتضيات السابق عرضها للاسراع بخطى هذا التكامل على المستويات السياسية والفكرية والفنية على السواء ، لم تتوصل الدول العربية حتى الآن الى اتفاق بشأن اسلوب مناسب وفعال لاقرار هذا التكامل على النحو الذي يحقق الطموحات المعقودة عليه . وقد طرحت الامانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية على لجنتها الفرعية للتنسيق الصناعي المنعقدة خلال عام ١٩٧٦ ، فكرة تحقيق التكامل الصناعي العربي عن طريق « **التنسيق المسبق** » بين الدول العربية فيما يتعلق بانشاء وتشغيل المشروعات الصناعية الاساسية ، وبتسويق منتجاتها داخل المنطقة العربية وخارجها ، الا ان اللجنة رأت ان الفكرة لا زالت تحتاج الى دراسة حتى يمكن بلورتها في شكل اسلوب عملي يناسب ظروف الدول العربية .

والأساليب التي تأخذ بها الدول العربية حتى الآن لتحقيق التكامل الصناعي بينها تتمثل أساساً في انشاء مشروعات مشتركة وفي اقامة اتحادات صناعية نوعية :

١ ـ المشروعات العربية المشتركة : لجأت الدول العربية ـ في غياب اطار عام للتنسيق الصناعي ـ الى التعاون فيما بينها في سبيل انشاء مشروعات صناعية مشتركة في بعض مجالات الصناعات التحويلية والتعدينية والانشطة النفطية . وقد تم انشاء بعض هذه المشروعات في نطاق المنظمات الاقليمية العربية ، خاصة جامعة الدول العربية ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية ومنظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط ، وتم انشاء بعضها بجهود فردية او بمقتضى اتفاقات ثنائية او متعددة الأطراف بين الدول المعنية .

ويرد على أسلوب انشاء مشروعات عربية مشتركة عدد من المآخذ ، اهمها انه ليس الا نوعاً من أنواع التعاون المحدود ، خاصة من الناحية التمويلية ، ولا يرقى لمصاف التنسيق الصناعي بمعناه الصحيح ، بالاضافة الى أن توجه انتاج العديد من هذه المشروعات المشتركة الى اسواق غير عربية يؤدي الى احداث انفصام بينها وبين القاعدة الاستهلاكية العربية من جهة ، وبينها وبين الاقتصاديات الوطنية من جهة اخرى ، مما يزيد من فرص دخولها في فلك نفوذ مصالح أجنبية من خلال عمليات التسويق او من خلال التبعية التكنولوجية والمالية .

واكساب المشروعات العربية المشتركة صفة الأساليب التكاملية يتطلب ، اولا ، اقامتها في اطار سياسة واضحة للتنسيق المسبق بين دول المنطقة ، وثانياً ، دعمها باتفاقيات تجارية بين السلطات الرسمية لضمان ربطها بالقاعدة الاستهلاكية العربية ، على نحو يمنع انفصالها عن اقتصاديات المنطقة .

٢ ـ الاتحادات العربية النوعية : تتجه محاولات التكامل الاقليمي بين الدول النامية عادة الى تركيز جهود التعاون والتنسيق بين الدول الأعضاء على الأنشطة الجديدة ، خاصة الاستراتيجية منها ، بهدف اقامتها على أسس اقتصادية وفنية حديثة . الا أن المنظمات العربية الاقليمية تنبهت الى خطورة ترك الأنشطة الانتاجية القائمة فعلا بعيدة عن اجراءات التنسيق ، مع ما

يعنيه ذلك من عدم السعي الى رفع مستوى كفايتها ، وعدم ادماجها في مسيرة التكامل . من هنا ظهرت الاتحادات النوعية كصيغة ملائمة للتنسيق بين المشروعات القائمة في عدد من المجالات الانتاجية والخدمية الهامة ، نذكر منها على سبيل المثال ، اتحاد المصارف العربية ، الاتحاد العربي للحديد والصلب والاتحاد العربي للصناعات النسجية والاتحاد العربي لمنتجي الاسمدة الكيمائية .

وتهدف الاتحادات النوعية العربية المنشأة في المجالات الصناعية وغير الصناعية أساسا الى ايجاد أطر تنظيمية يتم من خلالها تبادل الآراء والبيانات والخبرات بين العاملين في مجالات معينة ، وايجاد اجهزة فنية تتولى تقديم خدمات استشارية وفنية واقتصادية وتسويقية للمشروعات العاملة في هذه المجالات . بالاضافة الى ذلك فمن المأمول ان يؤدي انشاء الاتحادات النوعية العربية الى ايجاد فئة جديدة من الفنيين والاداريين تتمتع بالنظرة القومية الشاملة ، بدلا من النظرة القطرية الضيقة ، وتملك بالتالي ادراكا عميقا لمقتضيات التكامل .[٢]

تقييم عام للأساليب والنتائج

يشير اعتماد التكامل الصناعي العربي بشكل اساسي على أسلوبي انشاء شركات مشتركة واتحادات نوعية ، الى الافتقار الى سياسات للتنسيق تتسم بالشمول والتوازن ، والى الاكتفاء باجراءات جزئية تحقق قدرا من الانتشار ولكنها بأية حال من الأحوال لا تحقق الترابط والفعالية المطلوبين في هذه المرحلة . وقد أدى ذلك الى اقامة عدد من المشروعات الصناعية ذات الطاقات الانتاجية المرتفعة في المنطقة العربية ، مع ما يمثله ذلك من استقطاب لرؤوس الأموال العربية ، كما أدى الى خلق قدر من المصالح الاقتصادية المترابطة ، ولكن في نطاق نشاطات محدودة ، مما لا يوفر لهذه المصالح حماية واستقرارا كافيين في مواجهة التقلبات في العلاقات السياسية بين الدول المعنية .

ونكتفي في هذا المجال بسرد مثال واحد ــ رغم تعدد الأمثلة ــ لضعف اسلوب انشاء مشروعات مشتركة في مواجهة التقلبات في العلاقات السياسية بين الدول . ففي عام ١٩٧٢ تأسست شركة جزائرية ــ مغربية لانتاج الاسمنت برأسمال ٨٢ مليون دولار امريكي ، ساهمت فيه الدولتان مناصفة . وكان المخطط لهذا المشروع ان ينتج مليون طن من الاسمنت ، يسوق نصفها في الجزائر والنصف الآخر في المغرب . وسار التنفيذ حسب المخطط حتى عام ١٩٧٥ وكان قد تم انفاق ٦١ مليون دولار كنفقات تمهيدية ومدفوعات اولية . ولكن في مطلع عام ١٩٧٦ ، ونتيجة لتوتر العلاقات الجزائرية ــ المغربية ، انسحبت الجزائر من المشروع ، ولجأ المغرب الى تعويض التمويل الجزائري بقروض من البنك الدولي والصندوق العربي ومصادر أخرى ، وتم تكوين شركة جديدة برأسمال مغربي بنسبة ١٠٠٪ هي شركة « سيور » المغربية للاسمنت .[٣]

والرأي ان يكون تقييم أساليب ونتائج محاولات التكامل الصناعي العربي بالاعتماد على معيارين أساسيين ، **أولهما** ، الفعالية في دعم وتكميل سياسات التصنيع الوطنية وفي بلورة ملامح استراتيجية عربية اقليمية للتكامل ، **وثانيهما** ، الفعالية في خدمة فلسفة وأهداف التكامل الاقتصادي ذاتها .

وفي ضوء المعيارين السابقين يمكن القول بشكل عام :

* أن أساليب التكامل الصناعي المتبعة في العالم العربي لم تسهم بشكل فعال في الاسراع بمعدلات التنمية الصناعية في الدول العربية ، ولم تنجح في رفع نسبة انتاج الصناعات التحويلية الى اجمالي الناتج المحلي في الدول العربية النفطية ونصف النفطية (اي العراق والجزائر) وغير النفطية

---

(٢) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، **الاتحادات النوعية العربية المتخصصة ، تحليل وحصر** . القاهرة ، مايو (ايار) ١٩٧٧ ، ص ٨ .

(٣) مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، **المشروعات العربية ، والمشروعات العربية الدولية المشتركة ، حصر وتبويب ومقدمة تحليلية** . القاهرة ، فبراير (شباط) ١٩٧٧ . ص ١٦٤ .

على السواء حتى منتصف السبعينات ، كما يتضح من العمودين الأخيرين في الجدول التالي :

جدول (١)

تطور نسبة ناتج الصناعات التحويلية الى الناتج المحلي في الدول العربية بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٥

(بالأسعار الجارية وبالمليون دولار امريكي)

	ناتج الصناعات التحويلية (١)		الناتج المحلي بقيمة المشترى (٢)		٪ ($\frac{١}{٢}$)	
	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٧٥
الدول النفطية	٥٤١,٥	٢٥٠٩,١	١١٥٨١,٧	٧٥٨٢٨,٨	٤,٧	٣,٣
الدول نصف النفطية	٩٣٢,٤	٢٣٠٩,٩	٨٢٧٣,٨	٢٥٧٣٤,٦	١١,٣	٩,٠
الدول غير النفطية	٢٤٤٢,٥	٥٣٥١,٦	١٨٠٨٨,٠	٣٩٧٠٤,٤	١٣,٥	١٣,٥
اجمالي الدول العربية	٣٩١٦,٤	١٠١٧٠,٦	٣٧٩٤٣,٥	١٤١٢٦٧,٨	١٠,٣	٧,٢

المصدر : المصادر الاحصائية الوطنية . (أرقام ١٩٧٥ تقديرية)

فنسبة ناتج الصناعات التحويلية الى الناتج المحلي انخفضت في مجموعة الدول العربية النفطية من ٤,٧٪ في عام ١٩٧٠ ، الى ٣,٣٪ في عام ١٩٧٥ ، وانخفضت في مجموعة الدول نصف النفطية من ١١,٣٪ في عام ١٩٧٠ ، الى ٩,٠٪ في عام ١٩٧٥ ، هذا في حين بقيت هذه النسبة ثابتة في مجموعة الدول غير النفطية . ويجوز الاعتراض على دلالة الارقام السابقة بتأثير الارتفاع في أسعار النفط خلال فترة المقارنة على هيكل الناتج المحلي ، ولكن هذا الاعتراض أضعف بالنسبة للدول نصف النفطية وغير النفطية ، ولا ينفي تماما **ان سياسات التصنيع الوطنية وأساليب التكامل الصناعي الاقليمي المتبعة حتى الآن لم تؤد الى احداث التغييرات الهيكلية الجذرية المستهدفة في اقتصاديات الدول العربية .**

* لم تؤد أساليب التكامل الصناعي المتبعة في المنطقة العربية الى تخفيف حدة التفاوت بين المستويات الانمائية للدول العربية ، بمعنى آخر لم تؤد الى تخفيف حدة اختلال التوازن الاقليمي في المنطقة . فالمشروعات المشتركة تقام بأموال الدول ذات الفائض ، وتوطن في الدول التي تتوافر لديها مقومات النشاط الصناعي ، وهي عادة الدول الأكثر نموا . والاتحادات النوعية تخدم مصالح أعضائها من المشروعات الصناعية القائمة فعلا ، والقادرة على تحمل عبء المساهمة في ميزانية الاتحاد ، وأغلبها يقع في الدول الأكثر نموا بالمنطقة . والأوضاع السابقة تؤدي الى حرمان الدول الأقل نموا من الحصول على نصيب معقول من مزايا التكامل ويضعف بالتالي شعورها بالانتماء الى الكيان التكاملي ، بل قد يؤدي الى خلق اتجاهات انفصالية لدى بعضها . بمعنى آخر ، فالأوضاع السابقة قد تؤدي الى اثارة قضية عدالة توزيع أعباء وفوائد التكامل على نحو قد يهدد هدف التكامل الاقتصادي ذاته .(٤)

---

(٤) U. N. C. T. A. D; **The Distribution of Benefits and Costs in Integration Among Developing Countries** Current Problems of Economic Integration Series. (N. Y, 1973); P. 6

وقد تفاقمت مشكلة اختلال التوازن الاقليمي في المنطقة العربية بدرجة كبيرة خلال العقد الماضي بحيث اصبحت تشكل نوعاً من التهديد لفلسفة التكامل الاقتصادي ولامكانات تحقيقه بين الدول العربية ، وأصبح من الواضح اهمية الاسراع باتباع أساليب عملية فعالة لمعالجة هذه المشكلة . ونكتفي بالاشارة في هذا المجال ـ للدلالة على **اتجاه مشكلة اختلال التوازن الاقليمي نحو التفاقم في المنطقة العربية** ـ الى أن نسبة الحد الادنى للدخل الفردي الى الحد الاعلى للدخل الفردي ارتفعت من (١ : ٦٦) في عام ١٩٧٠ ، الى (١ : ١٢٣) في عام ١٩٧٥) . (انظر الجدول الثاني ادناه) .

* لا تزال الدول العربية تسير دون تنسيق في تنفيذ خططها الوطنية للتصنيع على نحو يؤدي الى اقامة العديد من المشروعات الكبيرة الحجم ذات الانتاج المتشابه في الدول التي تأخذ بسياسة التصنيع للتصدير ، والى اقامة العديد من المشروعات الصغيرة الحجم ذات التكلفة المرتفعة والانتاج المتشابه في الدول التي تأخذ بسياسة احلال الواردات .

وتكرار المشروعات الصناعية ذات الانتاج المتشابه في المنطقة العربية ـ سواء كان انتاجها مخصصاً للأسواق المحلية أو الدولية ـ يمثل ظاهرة غير صحية ويضعف المركز الاقتصادي والتنافسي لهذه المشروعات . واستمرار هذا التكرار يشير الى ضعف أساليب التكامل الصناعي العربي المتبعة حتى الآن .

يتضح من المناقشة السابقة أن أساليب التكامل الصناعي العربي المتبعة حتى الآن ، وان كانت تمثل محاولات محدودة لحشد الموارد العربية ولاستقطاب رؤوس الأموال العربية ، وهو أحد الاهداف الاساسية للتكامل ، الا انها لم تؤد الى تحقيق بقية الاهداف التكاملية . كما ان هذه الاساليب ـ نتيجة لقصورها عن معالجة اختلال التوازن الاقليمي في المنطقة العربية ـ لا تخدم فلسفة التكامل القائمة على تقوية الشعور بالانتماء لكيان اقليمي واحد تتحقق في نطاقه مصالح كافة دول الاقليم بدرجات متكافئة .

والتكامل الصناعي الفعال بالنسبة للمنطقة العربية لا بد وان يتم ـ كما سبق الاشارة ـ بناء على تنسيق مسبق وشامل بين سياسات التصنيع الوطنية ، على أن يتخذ هذا التنسيق شكل اتفاقيات ملزمة بين الدول المعنية تغطي جوانب التخصص الانتاجي والتوطن والحجم وسياسات تسعير المنتجات وتسويقها . وقد يكون من الأيسر قصر محاولات التنسيق المسبق في مرحلة أولية على بعض المجالات الصناعية ذات الأهمية الاستراتيجية والتي يرتفع فيها الحجم الاقتصادي للوحدات الانتاجية ، خاصة صناعات الأسمدة الكيمائية والأسمنت والبتروكيماويات وتكرير البترول والحديد والصلب .

الا ان الملاحظ أن فكرة « الالتزام » بتنسيق مسبق ، لا تزال مرفوضة من السلطات السياسية في أغلبية الدول العربية ، خاصة فيما يتعلق بصياغة سياسات التنمية والتصنيع ، التي تعتبرها الدول حديثة الاستقلال من صميم اعمال السيادة الوطنية . هذا في حين انه ليس من المتوقع التوصل الى نوع من التكامل الصناعي الحقيقي الفعال الا اذا اقتنعت كل دولة في المنطقة بأن تنازلها ـ اختيارياً ـ عن اقامة صناعات تنافس الصناعات المماثلة القائمة في دولة مجاورة ، وان التزامها بنمط معين للتخصص الانتاجي والتوطن الصناعي ، لا يمثلان انتقاصاً من سيادتها الوطنية .

والمعتقد ان تحقيق المتطلبات الأساسية لايجاد تكامل صناعي فعال في المنطقة العربية ـ كما سبق توضيحها ـ لا تزال بعيدة المنال ، ومن المتوقع ان يستمر الأخذ بأساليب التعاون الصناعي الجزئي (الشركات المشتركة والاتحادات النوعية) في مجالات متفرقة ، لفترة يصعب تقديرها . ويزيد من صعوبة تقبل جميع (أو أغلبية) الدول العربية لأسلوب التنسيق المسبق الملزم في المرحلة الحالية من العمل العربي ، ضعف القطاعات الصناعية العربية ، ورغبة كل دولة في دعم قطاعها في ضوء مصالحها الوطنية فقط ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فمن الصعب عادة الاتفاق على معايير واضحة وحاسمة للتخصص الانتاجي والتوطن الصناعي بين دول متجاورة .

نخلص مما سبق الى ان الاتجاه نحو تخصيص النصيب الأكبر من الاجراءات والموارد التكاملية للمجالات الصناعية لا يمثل بالنسبة للدول العربية الأسلوب الأمثل للاسراع بخطى التكامل الاقتصادي . بمعنى آخر ، فالتكامل الصناعي ، نظرا لما يقف في سبيل تحقيقه من عوائق . لا يمثل بالنسبة للدول العربية نقطة الانطلاق الملائمة نحو تكامل اوثق في المجالات الاقتصادية الاخرى (خاصة المجال التجاري) . والرأي ان قطاع الزراعة يملك بدرجة اكبر المقومات اللازمة لتوثيق الروابط بين مصالح دول المنطقة العربية ، وبالتالي للانطلاق نحو تكامل اشمل يقوم على شعور قوي بالانتماء لكيان اقليمي واحد . وهذا ما سيهدف الجزء التالي الى توضيحه وتبريره .

التكامل الزراعي بين الدول العربية

بدأت اهمية تحقيق التكامل الزراعي الاقليمي بين مجموعات الدول النامية تتضح بشكل متزايد منذ الستينات نتيجة لتزايد اعتماد هذه الدول في مجموعها على الدول الصناعية المتقدمة للحصول على احتياجات سكانها من المواد الغذائية . وبرزت خطورة الاتجاه نحو اهمال التكامل الاقليمي في مجال الزراعة بشكل حاد عندما لوحت الدول الصناعية المتقدمة المصدرة للمواد الغذائية باحتمال اعتمادها على سلاح « الأمن الغذائي » كرد على أية اجراءات قد تتخذها الدول المصدرة للنفط ضدها مستقبلا . « عندئذ فقط أدرك العالم العربي ، ومن ورائه العالم الثالث كله ، مدى خطورة الاندفاع وراء سياسة التصنيع دون النهوض بالزراعة في نفس الوقت » .[٥]

مقومات التكامل الزراعي

يمثل ابراز مقومات ومقتضيات التكامل الزراعي تحولا هاما في الفكر الاقتصادي العربي خلال السنوات الأخيرة . وفيما يلي أهم الحقائق والأوضاع التي أدت الى احداث هذا التحول :

١) اتجاه مشكلة الغذاء نحو التفاقم في المنطقة العربية . ويكفي الاشارة في هذا المجال الى ان الدول العربية في مجموعها تعاني من عجز كبير في عدد من المنتجات الزراعة الأساسية ، على رأسها : القمح والحبوب المختلفة والسكر والزيوت النباتية ، بالاضافة الى انها تعاني في مجموعها أيضا عجزا في اللحوم والمنتجات الحيوانية المختلفة .[٦]

٢) وجود امكانات ضخمة للتوسع الزراعي ــ افقياً ورأسياً ــ في عدد من الدول العربية . وتقدر الأراضي الصالحة للزراعة ولم تستغل بعد في الدول العربية ، بشكل مبدئي بما يقرب من ٨٠ مليون هكتار ، هذا في حين لا تتعدى المساحة المزروعة حوليا والمزروعة زراعة مستديمة ما يقرب من ٥٢,٥ مليون هكتار ، يضاف اليها ٢٥٠ مليون هكتار مراع طبيعية و ١٣٦,٤ مليون هكتار غابات .[٧]

٣) وجود قوة بشرية كبيرة عاملة في قطاعات الزراعة في الوطن العربي ، تقدر بحوالي ٧٥ مليون نسمة ، أي حوالي ٦٣٪ من مجموع عدد السكان في البلاد العربية . بالاضافة الى ذلك يوجد تفاوت كبير في الكثافة السكانية للهكتار من الاراضي المزروعة في هذه الدول ، مما يتيح الفرصة لاعادة توزيع القوى العاملة الزراعية فيما بينها . وتتراوح الكثافة السكانية في المنطقة العربية بين ١,٠ نسمة في كل من سوريا والعراق الى ٢,٣ نسمة في السودان الى ١٢,٠ نسمة في مصر[٨]، وذلك بالنسبة للهكتار من الأراضي المزروعة .

---

(٥) **الاهرام الاقتصادي** ، « السودان ومشكلة الجوع في العالم العربي » القاهرة ، العدد ٥٤٠ ، ١٥ فبراير ١٩٧٨ ، ص ٣٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٧) احمد عبد السلام هيبة ، **الانتاج الزراعي في الوطن العربي** ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٥٦ .

(٨) **مجلة الوحدة الاقتصادية العربية** ، « ابعاد مشكلة الغذاء في الوطن العربي » القاهرة ، العدد الثالث ابريل (نيسان) ١٩٧٦ ، ص ٨٨ ــ ٨٩ .

٤) تنوع الظروف الطبيعية والمناخية والبيئية في الدول العربية على نحو يسمح بقدر كبير من التخصص الانتاجي القائم على فكرة المزايا النسبية . فمساحة الوطن العربي تبلغ ١٣٣٣,٦ مليون هكتار ، ٧٣٪ منها في قارة أفريقيا ، و ٢٧٪ في قارة آسيا . وتصلح المزايا النسبية في الزراعة في حد ذاتها كأساس لبلورة معايير واضحة للتخصص والتوطين يتم وفقا لها الاتفاق على أساليب وانماط التكامل الزراعي العربي .

٥) امكانية الاعتماد على التكامل الزراعي كأداة فعالة لتخفيف حدة اختلال التوازن الاقليمي في المنطقة العربية ، ويرجع ذلك الى سببين مترابطين ، **أولهما** ، ان نسبة كبيرة من الأراضي الصالحة للزراعة التي لم تستغل بعد تقع في دول تعاني من عجز في موازين مدفوعاتها ولا تملك القدرة على تمويل مشروعات كبيرة للتنمية (٤٧,٨٪ تقع في السودان ، ١٠,٧٪ تقع في المغرب ، ١٠,٦٪ تقع في الصومال ، ٣,٥٪ تقع في سوريا ...)[٩]، **وثانيهما** ، أن الدول الأقل نموا في المنطقة العربية هي دول ذات اقتصاديات زراعية (يقاس مستوى النمو بنصيب الفرد من الناتج المحلي) ، ومن هنا يؤدي توجيه جزء اكبر من الجهود التكاملية الى مجال الزراعة الى زيادة نصيب هذه الدول من مكاسب التكامل ، ويؤدي بالتبعية الى تقوية انتمائها وولائها للكيان التكاملي ولفلسفة التكامل . ويشير الجدول التالي ، تدعيما لما سبق ، الى وجود علاقة عكسية قوية بين مستوى نصيب الفرد من الناتج المحلي ونسبة الناتج الزراعي الى الناتج المحلي في الدول العربية : فمستوى نصيب الفرد من الناتج المحلي مرتفع بشكل ملحوظ في الدول النفطية التي لا يحتل فيها النشاط الزراعي اهمية كبيرة ، ويتجه الى الانخفاض مع ارتفاع نسبة الناتج الزراعي الى الناتج المحلي ، ليصل الى ٩٤ دولار في الصومال حيث ساهم قطاع الزراعة في عام ١٩٧٥ ، بـ ٥٨,٦٪ من الناتج المحلي .

جدول (٢)

نصيب الفرد من الناتج المحلي ونسبة الناتج الزراعي الى الناتج المحلي في بعض الدول العربية في اوائل السبعينات

الدولة	نصيب الفرد من الناتج المحلي (بالدولار الامريكي)		الناتج الزراعي الى الناتج المحلي الاجمالي (٪)	
	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٧٥
الكويت	٣٦٤٣	١١٥٦٨	٠,٤	٠,١٢
الامارات العربية	٢٨٩٥	١١٤٣٣	ضئيل	ضئيل
السعودية	٦٤٤	٥٤٠٦	٥,٧	١,٠٣
العراق	٣٨٣	١٢٠٦	١٥,٩	٧,٣٠
الجزائر	٣٤٦	٧٦٤	١٠,٦	٦,٧٠
المغرب	٢١٥	٣٨٨	٣٢,٧	٢٢,٠
السودان	١٢٤	٢٦٢	٣٤,٧	٣٨,٧
اليمن الشمالي	٥٥	٢٣٦	٦٩,٩	٤٤,٤
الصومال	٧٢	٩٤	٦٠,٠	٥٨,٦

المصدر : تقديرات الادارة العامة للتخطيط ، بالأمانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية .

٦) ان المشروعات التكاملية الزراعية لا يتطلب تنفيذها عادة اجراء تعديلات هيكلية اساسية في اقتصاديات الدول المعنية ، ولا يستدعي تشغيلها تنفيذ برامج طويلة لتأهيل وتدريب قوى عاملة ذات

(٩) المرجع السابق ، ص ٨٣ .

مهارات خاصة ، كما لا يستدعي الاستعانة بخبرات اجنبية بنفس الدرجة المشاهدة في المشروعات الصناعية الحديثة .

أساليب التكامل الزراعي

يمثل مؤتمر القمة العربي المنعقد في الرباط في عام ١٩٧٤ نقطة تحول حاسمة فيما يتعلق بنطاق التكامل الزراعي العربي وبأساليب تحقيقه.

فقبل انعقاد مؤتمر القمة العربي بالرباط ، مر التكامل الزراعي العربي بمرحلة من « الحوار النظري » ، ظهرت خلالها العديد من الآراء المطالبة بزيادة الاهتمام بالزراعة كمجال للتكامل ، ومن المقترحات الخاصة بالأنماط والأساليب الملائمة . الا ان التطبيقات العملية في هذه المرحلة كانت محدودة للغاية من حيث عددها ونطاقها ، وتمت اغلبها على مستويات ثنائية بين دول متجاورة . ونورد على سبيل المثال مشروعات التعاون الزراعي بين مصر والسودان ، وانتقال العمالة الزراعية المصرية الى العراق .

وقد تمت محاولة متعددة الأطراف للتعاون الزراعي في نطاق مجلس الوحدة الاقتصادية العربية ، وانتهت الى انشاء « الشركة العربية لتنمية الثروة الحيوانية » في عام ١٩٧٤ . ويرد على أسلوب انشاء شركات مشتركة في مجالات زراعية نفس المآخذ الواردة على انشائها في مجالات صناعية ، كما سبق الاشارة اليها تفصيلا .

ونتيجة لبروز اهمية « الأمن الغذائي » خاصة بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، اتخذ مؤتمر القمة المنعقد بالرباط في عام ١٩٧٤ قرارا بوضع مشروع لتحقيق الأمن الغذائي في العالم العربي ، وأسند مهمة الاشراف على تنفيذ هذا المشروع الى الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ، كما أسند اليه مهمة تمويل وضمان احتياجات التنمية الزراعية في الدول العربية . وأوصى المؤتمر كذلك بأن توجه الأهمية الأولى للسودان ، على أساس انه تتوفر لديه المقومات اللازمة لتحقيق الهدف من المشروع .

« وفي سبيل تحقيق ما أقره مؤتمر القمة بخصوص الأمن الغذائي ، أعد الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي خطة عشرية للتنمية الزراعية في الوطن العربي خصص لها عشرة مليارات من الدولارات . كما أنشأ في العام ١٩٧٦ هيئة خاصة سميت « بالهيئة العربية للاستثمارات والانماء الزراعي » حدد رأسمالها المبدئي بمبلغ ٥١٧ مليون دولار امريكي ، وجعل مقرها الخرطوم » .[١٠] على ان يكون البرنامج الأساسي لتطوير الزراعة في السودان (١٩٧٦ ــ ١٩٨٥) مجال اول ممارسة تطبيقية للهيئة ، تنتقل منه مستقبلا الى مجالات اخرى .

ويساهم في رأسمال « الهيئة العربية للانماء والاستثمار الزراعي » ، بعض الدول النفطية هي السعودية والكويت وقطر والعراق ودولة الامارات العربية المتحدة ، كما يساهم فيها الدول العربية التي تتوافر فيها امكانات للتوسع الزراعي وهي المغرب والصومال والسودان وموريتانيا ومصر وسوريا [١١]

نظرة تفاؤل

انتشر الأخذ بأساليب التعاون المحدود (المشروعات المشتركة والاتحادات النوعية) على مستويات ثنائية أو متعددة الأطراف في مختلف المجالات الاقتصادية في الدول العربية ، وليس في مجالي الصناعة والزراعة فحسب ، بل امتد الأخذ بهذه الاساليب الى مجالات التأمين والتمويل والسياحة والنقل والاسكان .. الخ

---

(١٠) « السودان ومشكلة الجوع في العالم العربي » ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(١١) **المشروعات العربية والمشروعات العربية الدولية المشتركة** ، مرجع سابق ص ١٣٩ .

ولا شك ان هذه الأساليب ــ رغم ما يشوبها من أوجه قصور كأدوات للتوصل الى تكامل اقتصادي شامل ــ قد حققت الكثير من النتائج الايجابية التي ما كانت تتحقق بدونها ، خاصة مع صعوبة الاتفاق على أساليب اكثر شمولية في بعض المجالات ، وعلى رأسها الصناعة ، في ظل الظروف الدولية والاقليمية السائدة . فقد أدت الى انتشار مظاهر التعاون في جميع انحاء الوطن العربي ، والى ايجاد احتكاك مستمر على المستويات الرسمية وغير الرسمية بين اصحاب المصالح في الدول العربية . بل أدت بشكل مباشر ، من خلال ما أوجدته من مصالح مترابطة تحتاج لحماية ، الى ازدهار فكرة التكامل العربي مع تطويرها ، والى استمرار المحاولات لبلورتها في شكل أساليب عملية اكثر عمقاً ومدى . وتجدر الاشارة هنا الى الدور الفعال الذي قامت وتقوم به المنظمات العربية الاقليمية .

رغم ذلك ، فقيام الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي بوضع خطة للتنمية الزراعية ، وبانشاء « الهيئة العربية للاستثمارات والانماء الزراعي » يمثل تحولا لمسار التكامل العربي في الاتجاه الصحيح ، وخطوة ايجابية نحو الانتقال من الأساليب الجزئية للتعاون الى أسلوب جماعي شمولي للتكامل . واختيار قطاع الزراعة ليكون مجال اول محاولة لتحقيق تكامل حقيقي بين الدول العربية اختيار موفق ، **حيث أن الزراعة هي المجال الذي يمكن ان تتفق في نطاقه مصالح دول الفائض ودول العجز .** وربط التكامل الزراعي العربي في هذه المرحلة بهدف تحقيق الأمن الغذائي للمنطقة يكسبه قوة دفع ويضمن تجاوب أغلبية دول المنطقة ، حتى تلك غير المستفيدة مباشرة من المشروعات التكاملية .

ويمثل القطاع الزراعي ــ شاملا الثروة الحيوانية ــ بالنسبة لعدد كبير من الدول العربية نفس الأهمية الاستراتيجية التي كان يمثلها قطاع الحديد والصلب في الخمسينات في دول اوربا الغربية ، ومن الممكن ان يقوم بنفس الدور الريادي الذي قام به هذا القطاع في تجربة التكامل الاوربي . **من هنا فأبواب التفاؤل مفتوحة أمام محاولة التكامل العربي في مجال الزراعة . ونأمل ان يكون هذا المجال هو نقطة الارتكاز القوية التي ينطلق منها التكامل العربي ليمتد نطاقه تدريجياً الى مجالات أخرى مترابطة** ، ابتداء من الصناعات الغذائية والنسجية وصناعات الأسمدة والمبيدات والآلات والجرارات الزراعية الى باقي مجالات الحياة الاقتصادية ، نتيجة لايجاد فرص للتنمية لا يمكن الاستفادة منها الا في ظل سياسة تكاملية تقوم على معايير مقبولة للتوطن الصناعي والتخصص الانتاجي ، قد يسهل الاتفاق بشأنها بعد تخفيف حدة اختلال التوازن الاقليمي في المنطقة العربية .

وتلخيصاً للآراء السابقة ، يستند التفاؤل بشأن الدور الذي يمكن ان يؤديه التكامل الزراعي في التمهيد للتكامل الاقتصادي العربي الشامل الى افتراضين ، **أولهما** ، ان فرص نجاح التكامل اكبر في مجال تنمية انشطة اقتصادية قائمة فعلا ، عنها في مجال انشاء انشطة جديدة . **وثانيهما** ، ان التكامل الزراعي يحتوي على فرص كبيرة لتهيئة مناخ اقتصادي وسياسي اكثر ملاءمة للاتفاق بشأن انماط واجراءات التكامل في بقية مجالات الحياة الاقتصادية ، بما فيها الصناعة والتجارة .

والنقطة الأخيرة التي نرى ابرازها في هذا المجال هي ضرورة تطوير سياسات التنمية الوطنية ، خاصة في الدول العربية التي تتوافر لديها امكانات كبيرة للتوسع الزراعي ، لتلائم الاتجاه الجديد نحو توجيه نصيب اكبر من الجهود التكاملية الى الزراعة . وأول البوادر المشجعة في هذا الشأن ظهرت في السودان باصدار قانون « تنمية الاستثمار الزراعي وتشجيعه » في عام ١٩٧٦ ، بعد أن تأخر عامين عن قانوني تشجيع الاستثمار في الخدمات الاقتصادية وفي الصناعة ، وباعتماد خطة سداسية للتنمية (١٩٧٨/٧٧ ــ ١٩٨٣/٨٢) « محورها الرئيسي التنمية الزراعية والحيوانية والصناعات المتعلقة بهما الى جانب الهياكل الانشائية التي تخدم هذه المشروعات [١٢] . وهذه الخطوات انما تمثل تصحيحاً للنظرة السودانية بشأن مفهوم التنمية ، من المأمول ان تحتذي بها الدول العربية ذات الهياكل الاقتصادية المشابهة ، ليتم التفاعل المطلوب بين سياسات التنمية الوطنية وسياسات التكامل الاقليمية في المنطقة العربية » .

---

(١٢) **الاهرام الاقتصادي** ، « السودان بين النظرة القديمة والنظرة الجديدة في تشجيع الاستثمارات » ، القاهرة ، العدد ٥٤١ ــ أول مارس (اذار) ١٩٧٨ . ص ٢٨ .

سكان الوطن العربي : الاتجاهات والتوقعات

تيسير عبد الحافظ

دارس في قسم
الاحصاء بكلية الاقتصاد
والعلوم السياسية في
جامعة القاهرة

ينظر سكان العالم اليوم الى مستقبلهم بعين ملؤها الخوف والوجل . فما ينتظرهم من مشكلات اكثر من ان يعد ويحصى، وبوادرها تلوح في الأفق منذرة ومحذرة من مستقبل لا يبشر بخير. فعلماء الطاقة يحذرون من أزمة فيها وشيكة الوقوع . وعلماء البيئة ينذرون من تلوثها وانها غدت مليئة بالسموم . وعلماء التغذية اكثر الناس تشاؤماً من مستقبل الغذاء في العالم . واما علماء السكان فيحذرون من انفجار سكاني يعيد الى الأذهان شبح (المالتوسية) المخيف .[١]

ويحق للانسان العربي ان يتساءل : اين نقف نحن اليوم من هذه المشكلات ؟ . وماذا اعددنا لمواجهتها ؟ . واذا كان هذا البحث يقصر عن ان يطمئن الانسان العربي على غده ، وعن ان يجيب على جميع الاسئلة التي تدور بخلده ، سيحاول بقدر المستطاع تصوير بعض الجوانب السكانية في الوطن العربي ، في حاضره ومستقبله القريب ، من خلال التعرف على اتجاهات النمو السكاني فيه ، وتوقع اعداد سكانه في المستقبل ، في محاولة للاجابة على السؤال الثاني : هل هناك مشكلة سكانية في الوطن العربي ؟ .

الثقل السكاني للوطن العربي :

يقدر عدد سكان الوطن العربي[٢] (في عام ١٩٧٥) بحوالي ١٤٧ مليون نسمة ، ويمثل هذا العدد ٣,٧٪ من مجموع سكان العالم المقدر في نفس العام بحوالي ٣,٩٦٧ مليون نسمة .[٣] كما يمثل ايضاً ٥,٥٪ من مجموع سكان قارتي آسيا وافريقيا . وبينما يشكل سكان الجناح الافريقي في الوطن العربي نسبة ٢٥,٥٪ من مجموع سكان افريقيا ، فان هذه النسبة في الجناح الاسيوي تبلغ ٢٪ من مجموع سكان آسيا .[٤] ويعني هذا ان لسكان الجناح الافريقي ثقلا واضحاً في افريقيا ، حيث لا

---

(١) حول نظرية (مالتوس) في السكان والتعليق عليها انظر :
تومسون وارين ولويس دافيد : **مشكلات السكان** ، ترجمة راشد البراوي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٢٤ ـ ٥٥

(٢) يحتوي هذا العدد من « المستقبل العربي » على ملف احصائي شامل للسكان في الوطن العربي على الصفحات ١٨٩ ـ ٢٠٥ (المحرر) .

(٣) United Nation , *Demographic Year Book 1975* ,New york , 1976 ,PP .140 -41 ,Table 2

(٤) حسبت هذه النسب من المصدر السابق نفسه وفي نفس السكان .

تتفوق عليه اية دولة ، من حيث عدد السكان ، في هذه القارة . اما في آسيا فان نسبتهم ليست كبيرة . واما على مستوى العالم فان ترتيب عدد سكان الوطن العربي يأتي في المرتبة السابعة بعد كل من : الصين ، الهند ، الاتحاد السوفيتي ، الولايات المتحدة الامريكية ، اندونيسيا واليابان .

ومساحة الوطن العربي تقدر بحوالي ١٣,٧ مليون كم مربع .[٥] ومن ثم فان الكثافة السكانية عليها لا تزيد عن ١١ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد . وهي منخفضة جداً اذا ما قورنت بدول اخرى . حيث تبلغ الكثافة السكانية في الولايات المتحدة الامريكية ٢٣ شخصاً وفي نيجيريا ١٨ وفي باكستان ٨٧ وفي فرنسا ٩٧ وفي الهند ١٨٢ وفي اليابان ٢٩٨ وفي بنجلادش ٥٣٣ وهي في العالم كله تبلغ ٢٣ شخصاً .[٦]

وقد يكون هذا مؤشراً اولياً على ان الوطن العربي لا يعاني من ازدحام سكاني على ارضه . إلا ان البعض يعترض على حساب الكثافة السكانية باستخدام المساحة الكلية للدولة او الاقليم . ولا يعتبر هذه الكثافة دليلا دقيقاً على مدى التزاحم السكاني [٧] لأن هذه المساحة قد لا تكون جميعها مأهولة بالسكان خاصة اذا كانت الصحراء تشغل مساحة كبيرة منها ، كما هو الحال في الوطن العربي ، ويقصرون حسابها على المناطق المأهولة بالسكان او الاراضي القابلة للزراعة والاراضي المزروعة .[٨] ولكن هذا الاعتراض لم يعد له ما يبرره بعد تزايد اهمية الصحراء كموطن للبترول وللثروة المعدنية ، وبعد ان تأكد اهمية الصحراء والجبال العالية كحزام أمني للدولة . فصحراء الوطن العربي لا تضاهيها منطقة اخرى من حيث وفرة الثروات الطبيعية فيها .[٩] ولكن من الأسباب الرئيسية لعدم استغلالها كما يجب عدم توفر اليد العاملة من حيث الكم والنوع . ولو ان صحراء سيناء وهضبة الجولان السورية ، كانتا عامرتين بالسكان ، لما امكن للعدو الصهيوني احتلالهما بهذه السهولة والبقاء فيهما هذه المدة الطويلة دون ان يواجه مقاومة عنيفة من السكان . كما ان معرفته بأهمية هذه المناطق كحزام أمني هو الذي دفعه لزرعها بالمستعمرات واستجلاب سكان من دول تختلف كثيرا في ظروفها الجغرافية والمناخية عن هذه المناطق .[١٠]

توزيع سكان الوطن العربي في الأقطار العربية :

يفوق عدد سكان الجناح الافريقي كثيرا عددهم في الجناح الاسيوي ، فبينما تبلغ نسبة سكانه ٦٩,٦٪ من مجموع سكان الوطن العربي (في عام ١٩٧٥) ، فان هذه النسبة تبلغ ٣٠,٤٪ في الجناح الاسيوي . وقد يكون هذا التوزيع قريباً من توزيع مساحة الوطن العربي فيها ، اذ تشكل مساحة الجناح الافريقي ٧٢,٨٪ من مساحته الكلية ، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٧,٢٪ في الجناح الاسيوي .[١١]

كما يتفاوت عدد سكان الدول العربية فيما بينها تفاوتاً كبيراً كما هو واضح من الجداول الملحقة . فهناك سبع دول عربية لا يزيد عدد سكانها عن مليون نسمة ، كما ان هناك ايضاً سبع دول أخرى لا يزيد عدد سكانها عن خمسة ملايين نسمة ، بينما هناك دول يزيد عدد سكانها عن خمسة عشر

---

(٥) انظر الجداول في اخر العدد .

(٦) *Demographic Year Book 1975* ,Op.Cit.,PP .142 -45

(٧) الدكتور عبد المجيد فراج « الاسس الاحصائية للدراسات السكانية » ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٥ ــ ص ١٦١.

(٨) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٢ .

(٩) محمد سعودي : **الوطن العربي** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨ ص ١٩ .

(١٠) يبلغ عدد المستعمرات التي اقامتها اسرائيل في الاراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ حوالي ٩٠ مستعمرة منها ٩ مستعمرات في ضواحي القدس ، ٣٦ مستعمرة في الضفة الغربية و٢٥ مستعمرة في مرتفعات الجولان و٢٠ مستعمرة في سيناء وقطاع غزة كما يقدر عدد سكان تلك المستعمرات بحوالي ٦٠ الف شخص . انظر في هذا الصدد جامعة الدول العربية ، الامانة العامة ، الادارة العامة لشئون فلسطين ، نشرة (**القضية الفلسطينية في شهر**) ، السنة الرابعة ، العدد الخامس ، ١٩٧٧ ص ٨ .

(١١) حسبت هذه النسب من الجداول الملحقة بهذا العدد .

مليون نسمة . وتعتبر جمهورية مصر العربية اكبر دولة عربية ، من حيث عدد السكان ، حيث يقدر عدد سكانها (في عام ١٩٧٥) بحوالي ٣٧ مليون نسمة ، ويشكل هذا العدد نسبة ٢٥,٤٪ من مجموع سكان الوطن العربي ، ونسبة ٣٦,٤٪ من سكان الجناح الافريقي . كما تعتبر العراق اكبر دولة عربية في الجناح الاسيوي ، من حيث عدد السكان ، حيث يقدر عدد سكانها في نفس العام حوالي ١١ مليون نسمة أي نسبة ٧,٦٪ من مجموع سكان الوطن العربي ونسبة ٢٤,٩٪ من سكان الجناح الاسيوي .

ولا يتسم توزيع سكان الوطن العربي هذا بالعدالة .[١٢] فانعدام التوازن بين المساحة والسكان يظهر جلياً في العديد من الدول العربية فبينما تبلغ نسبة سكان الجمهورية العربية المتحدة ٢٥,٤٪ من مجموع سكان الوطن العربي ، فان مساحتها تشكل ٧,٤٪ من مساحته . كما ان السعودية التي لا تزيد نسبة سكانها عن ٦,٢٪ فان مساحتها تشكل ١٥,٧٪ من مساحة الوطن العربي ، اما ليبيا فنسبة سكانها تبلغ ١,٧٪ بينما مساحتها تبلغ ١٢,٩٪ . لذا فقد اختلفت الكثافة السكانية في هذه الدول بشكل كبير ، فهي لا تتجاوز شخصاً واحداً في الكيلومتر المربع الواحد في كل من ليبيا وموريتانيا ، بينما تصل هذه الى ٣٧ شخصاً في مصر والى ٥٦ في الكويت والى ٢٧٦ في لبنان والى ٤١١ شخصاً في البحرين .

ولا يقتصر سوء التوزيع هذا على نطاق الدول العربية بل انه يتجاوز ذلك الى داخل الدول نفسها ، فسكان مصر يتركزون في مساحة لا تزيد عن ٣٪ من مجموع مساحتها .[١٣] وسكان العراق يتجمعون في المنطقة المحصورة بين الرافدين .[١٤] اما سكان ليبيا فتركزهم ينحصر في الشريط الساحلي المتاخم للبحر الأبيض المتوسط .[١٥] ومثل هذا الوضع يشاهد ايضاً في مختلف الدول العربية . وقد تكون هناك مبررات لسوء هذا التوزيع تتصل بعوامل طبيعية . إلا ان عدم انتهاج سياسة سكانية سليمة ادى الى تفاقم هذه المشكلة . فعدم توفير الخدمات الضرورية للسكان في الريف بالشكل الملائم دفع بالعديد من سكانه للهجرة نحو المدن ، فتضخمت المدن بالسكان مما أدى الى ظهور اختناقات في خدماتها كما ان تركيز المؤسسات الصناعية في المناطق المأهولة بالسكان حال دون استغلال المناطق المهجورة والبعيدة عن اماكن تركزهم ، فأدى هذا الى زحف الصحراء الى هذه المناطق وتضيق المساحة الصالحة للزراعة .

لذا فان الحاجة ماسة الى اعادة النظر في السياسة السكانية لكل دولة عربية ، ورسم خريطة سكانية جديدة من شأنها ان تعيد تصحيح توزيع السكان ، وتمتنع عن استهلاك الأراضي الصالحة للزراعة باقامة المنشآت الصناعية والمباني عليها ، وتباشر في غزو الصحراء لا لاستصلاحها وزراعتها فحسب بل لاقامة تجمعات سكانية عليها .

التركيب العمري والنوعي لسكان الوطن العربي :

يعتبر توزيع السكان حسب العمر والنوع من اهم البيانات التي تجمع في التعدادات السكانية ، ذلك انه يظهر قوة المجتمع العسكرية والانتاجية . وله كذلك اهمية كبرى في وضع خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالاضافة الى انه يعكس فعالية عناصر النمو السكاني والتي هي : المواليد والوفيات والهجرة . كما انه يكشف عن احداث جسام قد يكون المجتمع تعرض لها في الماضي مثل : الحروب والأوبئة والنكبات الطبيعية .[١٦]

---

(١٢) محمد سعودي ، مرجع سابق ، ص ١٠٠

(١٣) Omran Abdel R.,(ed.),*Egypt: Population Problems and Prospects*. University of North Carolina at Chapale Hill. U. S. A.,1973. P. 125

(١٤) فاضل الانصاري : **سكان العراق** ، مكتبة اطلس ، دمشق ١٩٧٠ ، ص ٥٦ وما بعدها .

(١٥) الدكتور عزة النص : **احوال السكان في الوطن العربي** ، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٨٩ .

(١٦) د . عبد المجيد فراج ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ وما بعدها .

ويبين الجدول الآتي توزيع سكان عشر دول عربية في فئات عمرية عريضة مقارنا بهذا التوزيع لسكان العالم وقاراته في عام ١٩٧٥ .

التوزيع العمري لسكان عشر دول عربية
مقارناً بهذا التوزيع لسكان العالم وقاراته في عام ١٩٧٥ .[١٧]

« نسب مئوية »

المنطقة	فئات الاعمار		
	اقل من ١٥	١٥ ـ ٦٤	٦٥ فاكثر
الدول العربية	٤٥	٥٢	٣
افريقيا	٤٤	٥٣	٣
امريكا اللاتينية	٤٢	٥٤	٤
آسيا	٣٨	٥٧	٤
اوقيانوسيا	٣١	٦١	٧
امريكا الشمالية	٢٥	٦٤	١٠
اوروبا	٢٤	٦٤	١٢
العالم	٣٦	٥٨	٦

ومن هذا الجدول يتضح ان التوزيع العمري لسكان الدول العربية يتصف بارتفاع نسبة الاطفال دون سن العمل (اقل من ١٥ سنة) وبانخفاض نسبة السكان القادرين على العمل (١٥ ـ ٦٤ سنة) والشيوخ الذين تزيد اعمارهم عن ٦٥ سنة .

ولا يختلف هذا التوزيع لسكان الدول العربية كما هو مشاهد عند سكان افريقيا وامريكا اللاتينية ولكن الاختلاف يبدو كبيرا عند مقارنته مع سكان امريكا الشمالية واوروبا . ويرجع ذلك الى اختلاف مستويات الخصوبة والوفاة . فارتفاع معدلات الخصوبة بشكل كبير عند سكان الدول العربية هو المسؤول عن ارتفاع نسبة الأطفال دون سن العمل . كما ان ارتفاع معدلات الوفاة أدى الى انخفاض نسبة السكان في سن العمل وكذلك المسنين . ولكن معدلات الخصوبة والوفاة عند سكان امريكا الشمالية واوروبا منخفضة جدا لذا فقد انخفضت نسبة الأطفال دون سن العمل بينما ارتفعت بالمقابل بنسبة السكان القادرين على العمل والمسنين .

والآثار السلبية التي تكمن في ارتفاع نسبة الأطفال دون سن العمل تتمثل في مضاعفة العبء الاقتصادي الملقى على عاتق السكان القادرين على العمل ، فالأطفال بطبعهم عناصر مستهلكة بحاجة الى من يعولهم وينفق عليهم حتى يصبحوا قادرين على اعالة انفسهم بانفسهم . وللتعبير عن ذلك بصورة كمية تحسب نسبة الاعالة للأطفال وذلك بقسمة عدد الأطفال الاقل من ١٥ سنة على عدد السكان في الفئات العمرية من ١٥ سنة الى ٦٤ سنة وذلك على فرض ان هؤلاء جميعهم منتجون بينما اولئك جميعهم غير منتجين .[١٨]

---

(١٧) المصدر لغير الدول العربية . *Demographic Year Book 1975 Op. Cit.*,PP .140 -41 وللدول العربية : Cairo Demographic Center ,*Demographic Measures and Population Grouth in Arab Countries* ,Cairo ,1970 .
والدول العربية التي يمثلها هذا التوزيع هي الجزائر ، العراق ، الاردن ، الكويت ، ليبيا ، السودان ، سوريا ، المغرب ، تونس ، مصر . ويشكل سكان هذه الدول نسبة ٨٠٪ من مجموع سكان الوطن العربي في عام ١٩٧٥ ومن ثم فانه يمكن اعتبار توزيعهم العمري هذا ممثلا لجميع الدول العربية .

(١٨) د . دولت احمد صادق : **الأسس الديمغرافية لجغرافية السكان** ، مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٧٩ وما بعدها .

وبحساب هذه النسبة للدول العربية نجد انها تبلغ ٨٧٪ أي ان كل مئة شخص في سن العمل يعولون ٨٧ طفلا ممن تقل اعمارهم عن ١٥ سنة ، بينما يبلغ هذا العدد عند سكان امريكا الشمالية ٣٩ طفلا وعند سكان اوروبا ٣٨ طفلا . وهذا يصور مدى ما يتحمله السكان في سن العمل في الدول العربية من عبء اقتصادي جسيم ، وهذه من المشاكل السكانية التي تواجه مختلف الدول العربية وسببها الأساسي ارتفاع معدلات الخصوبة في هذه الدول .

وعند تمثيل التوزيع العمري والنوعي للسكان على شكل هرم سكاني تبرز آثار الخصوبة والوفاة بشكل اكثر وضوحاً اذ يتضح ان قاعدة الهرم السكاني للدول العربية عريضة نتيجة ارتفاع معدلات خصوبتهم بينما جوانبه تنحدر بشدة نتيجة ارتفاع معدلات وفياتهم . وعلى العكس من ذلك يظهر الهرم السكاني للولايات المتحدة الاميركية ، حيث تضيق قاعدته كثيراً ، بل ان اعداد السكان في فئات اعمار الشباب كانت اعلى منها في فئات الاعمار الصغيرة . وهذا ناتج عن انخفاض معدلات الخصوبة والوفاة معاً .

نمو سكان الوطن العربي :

قد يكون من السهل معرفة تطور عدد سكان بعض الدول العربية في تواريخ بعيدة نسبياً ، ومن ثم فانه يمكن التعرف على اتجاهات النمو السكاني فيها . إلا ان الصعوبة تبدو في الحصول على رقم اجمالي لسكان الدول العربية جميعها في تلك التواريخ ، ذلك ان العديد من الدول العربية ما زال اهتمامه بالتعدادات السكانية وبتسجيل المواليد والوفيات محدوداً ، بل ان بعضها لم يقم باجراء سوى تعداد واحد لسكانه والبعض الآخر لم يحافظ على دورية اجراء هذا التعداد ، كما اوصت بذلك الأمم المتحدة .[١٩] وهناك دول عربية لا تنشر بيانات عن مواليد ووفيات سكانها ، واما الدول التي تنشر مثل هذه البيانات فلا يمكن الوثوق بدقتها ، كما لا يمكن الاعتماد عليها دون اجراء تقييم وتصحيح لها [٢٠] وهذا قصور من الواجب ان تعمل الدول العربية على ملافاته خاصة بعد ان اخذت هذه الدول في انتهاج سياسة التخطيط الاقتصادي والاجتماعي . ومن المعروف انه دون توافر بيانات احصائية دقيقة سواء عن السكان من حيث عددهم وتوزيعهم وخصائصهم ومؤشرات نموهم او عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية وغيرها فانه يتعذر وضع خطة اقتصادية سليمة .

ومن البيانات المتوافرة عن اعداد سكان الدول العربية امكننا اعداد الجدول التالي لعدد سكان الوطن العربي خلال الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٧٥ ومنها حسبنا معدلات نموهم السنوية .

ويتضح من الجدول التالي ان سكان الوطن العربي قد زاد عددهم خلال خمسة عشر عاماً بحوالي ٤٩ مليون نسمة ، اي بنسبة ٥٠٪ من عددهم في عام ١٩٦٠ وبمعدل نمو سنوي يبلغ ٢٧,٤ بالألف وهو معدل مرتفع جداً اذا ما قورن بمثيله في دول اخرى كالولايات المتحدة الأمريكية التي يبلغ معدل نمو سكانها ٥,٨ بالألف خلال الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ ، أو فرنسا التي يبلغ فيها هذا المعدل ٤,٩ بالألف خلال نفس الفترة . [٢١] **ولكن عند مقارنة هذا المعدل للدول العربية معه في دول تشابهها في الظروف الاقتصادية والاجتماعية فان الاختلاف بينهما لن يكون كبيراً ، فعلى سبيل المثال يبلغ هذا المعدل لسكان نيجيريا خلال الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ نحو ٢٦,٦ بالألف وهو في ايران يبلغ ٢٩,٧ بالألف .** [٢٢]

---

(١٩) الامم المتحدة ، المكتب الاحصائي ، **مبادىء وتوصيات لتعداد السكان لعام ١٩٧٠** ، ترجمة محمد السعدي الخضري وآخرون ، المركز الديموغرافي لشمال افريقيا بالقاهرة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤ .

(٢٠) محمد سعودي : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٢١) Demographic Year Book 1975 .op .cit . .PP .153 -57

(٢٢) المصدر السابق نفسه.

تقدير عدد سكان الوطن العربي خلال الفترة من ١٩٦٠ الى ١٩٧٥ ومعدلات تزايدهم خلال هذه الفترة .[٢٣] الاعداد بالملايين .

الفترات الزمنية	السكان في بداية الفترة	السكان في نهاية الفترة	الزيادة السكانية	النسبة المئوية عن عام ١٩٦٠	معدل النمو السنوي بالألف
٦٠ ـ ١٩٦٥	٩٧,٧	١١١,٢	١٣,٥	١١٣,٨	٢٥,٩
٦٥ ـ ١٩٦٧	١١١,٢	١٢٨,٤	١٧,٢	١٣١,٤	٢٨,٨
٧٠ ـ ١٩٧٥	١٢٨,٤	١٤٦,٩	١٨,٥	١٥٠,٣	٢٦,٨
٦٠ ـ ١٩٧٥	٩٧,٧	١٤٦,٩	٤٩,٢	١٥٠,٣	٢٧,٢

ومما تجدر ملاحظته من الجدول السابق ان معدل نمو سكان الوطن العربي في الفترة الثانية كان اعلى منه في الفترة الاولى ، اما في الفترة الثالثة فقد انخفض قليلا ولكنه ظل اعلى مما كان عليه في الفترة الأولى . وقد يكون لعدم دقة البيانات المحسوبة منها هذه المعدلات اثرها في ذلك . ولكن عند افتراضي تساوي درجة الشمول في هذه البيانات فانه يمكن ان يقال : ان اتجاهات النمو السكاني في الوطن العربي آخذة في الارتفاع .

ومن الاسباب الرئيسية في ارتفاع معدلات نمو سكان الوطن العربي الارتفاع الكبير في معدلات خصوبتهم ، كما ان اتجاه معدلات النمو نحو الارتفاع يرجع الى الانخفاض الكبير في معدلات وفياتهم ، نتيجة تحسن الاوضاع الصحيحة في هذه الدول . ولم يقابل هذا ، انخفاض مماثل في معدلات خصوبتهم .

ومعدلات نمو السكان في الدول العربية تختلف فيما بينها كما هو واضح من الجدول الملحق بهذا البحث فبينما بلغ هذا المعدل في جمهورية مصر العربية خلال الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ نحو ٢٢ بالألف ، وفي السودان ٢٥ بالألف ، وفي الصومال ٢٦ بالألف . نجد انه يبلغ ٣٢ بالألف في الجزائر و٣٣ بالألف في العراق ويصل الى ٤٢ بالألف في ليبيا والى ٦٠ بالألف في الكويت . ويرجع هذا الى اختلاف مستويات الخصوبة والوفاة عند هذه الدول ، وكذلك الى الهجرة . فالدول المستقبلة للمهاجرين مثل الكويت وليبيا ارتفعت فيها معدلات النمو ، بينما الدول المرسلة للمهاجرين مثل مصر انخفض فيها هذا المعدل .

واما الاختلاف في مستويات الخصوبة والوفاة فيبينه الجدول التالي :

---

(٢٣) تم اعداد هذا الجدول بالرجوع الى : *Demographic Year Book 1965 ,1970 ,1975*
مجلس الوحدة الاقتصادية ، الامانة العامة ، المكتب المركزي العربي للاحصاء ، **الكتاب الاحصائي السنوي للبلاد العربية** ، العدد الاول والثاني ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ .
بعد ان اضفنا الى اعداد سكان الدول العربية الواردة في هذين المصدرين اعداد السكان في جيبوتي والواردة في كتاب (**اضواء على جيبوتي وجزر القمر**) ، اصدار مجلس الوحدة الاقتصادية ، المكتب المركزي العربي للاحصاء ، القاهرة ١٩٧٧ ، وكذلك اعداد السكان في الارض المحتلة والضفة الغربية وقطاع غزة والواردة في :
Israel .central Bureau of Statistics,*Statistical Abstract of Israel 1976* .Jerusalem 1976 .

متوسط معدلات المواليد والوفيات الخام والزيادة الطبيعية لبعض الدول العربية خلال الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ .[٢٤]

الدولة	معدل المواليد الخام	معدل الوفيات الخام	معدل الزيادة الطبيعية
مصر	٣٥,٥	١٢,٤	٢٣,١
السودان	٤٧,٨	١٧,٥	٣٠,٣
المغرب	٤٦,٢	١٥,٧	٣٠,٥
العراق	٤٨,١	١٤,٦	٢٧,٥
السعودية	٤٩,٤	٢٠,٢	٢٩,٣
ليبيا	٢٥,٠	١٤,٧	٣٠,٣
الاردن	٤٧,٦	٢١,٩	٣٢,٩
العرب في الأرض المحتلة	٤٤,٩	٦,٠	٣٨,٩
الكويت	٤٧,١	٥,٣	٢٤,٣

ويلاحظ من هذا الجدول مدى ارتفاع كل من معدل المواليد والوفيات الخام في هذه الدول ، كما يظهر ايضاً اختلاف قيم هذين المعدلين بين هذه الدول . ونتيجة لهذا الاختلاف فقد اختلفت ايضاً معدلات الزيادة الطبيعية فيها . فهي عالية جداً في الاردن وعند العرب في الأرض المحتلة بينما هي اقل من ذلك في مصر الكويت .

سكان الوطن العربي في عام ٢٠٠٠ :

من اجل اجراء تقدير لعدد سكان الوطن العربي حتى نهاية هذا القرن فانه يلزم وضع فروض لاتجاهات الخصوبة والوفاة خلال الفترة من ١٩٧٥ الى ٢٠٠٠ م حتى يكون بالامكان تقدير معدلات النمو خلال هذه الفترة . ولقد اتضح معناً ان اتجاهات النمو السكاني في الوطن العربي آخذة في التزايد ، وعللنا ذلك باتجاه معدلات الوفاة نحو الانخفاض الشديد بينما لم يقابل ذلك انخفاض مماثل في معدلات الخصوبة . والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام : هل ستظل معدلات نمو سكان الوطن العربي آخذة في التزايد ؟ . وللاجابة على هذا السؤال سوف نسترشد بالتقديرات التي اعدت لاتجاهات كل من معدل المواليد والوفيات الخام والزيادة الطبيعية لعشر دول العربية خلال الفترة من ١٩٦٥ الى ١٩٨٥ والمبينة في الجدول التالي :-

تقدير اتجاهات معدلات المواليد والوفيات الخام والزيادة الطبيعية لعشر دول عربية خلال الفترة من ١٩٦٥ ـ ١٩٧٠ الى ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .[٢٥]

الفترات الزمنية	معدل المواليد الخام	معدل الوفيات الخام	معدل الزيادة الطبيعية
٦٥ ـ ١٩٧٠	٤٧,٢	١٧,٦	٢٩,٦
٧٠ ـ ١٩٧٥	٤٦,٦	١٥,٧	٣٠,٩
٧٥ ـ ١٩٨٠	٤٥,٥	١٣,٧	٣١,٨
٨٠ ـ ١٩٨٥	١٤,١	١٢,١	٣٢,٠

---

(٢٤) المصدر : *Demographic Year Book 1975* ,op .cit ,PP .153 -56 .
واما للعرب في الأرض المحتلة فقد اخذت من : *Statistical Abstract of Israel 1976* ,op .cit ,PP .60 .

(٢٥) المصدر : Zachariah K .C . . *The Demographic Measures of Arab Countries* ,Chapter 1 ,in : Demographic Measures and population Growth in Arab Countries ,op .cit . . P .323
والدول العربية العشر هي نفسها الواردة في الحاشية رقم ١٧ من هذا البحث .

ويتضح من هذا الجدول ان كلا من معدل المواليد والوفيات يتوقع ان ينخفض خلال فترة التقدير . ولكن الانخفاض في معدل الوفيات يتوقع ان يكون بنسبة اكبر من انخفاض معدل المواليد ، مما ينتج عن ذلك اتجاه معدل الزيادة الطبيعية نحو الارتفاع بحيث تصل في نهاية الفترة الى ٣٢ بالألف ، وهذا يعني ان معدلات نمو سكان هذه الدول سوف تظل آخذة في التزايد .

ولكن على نطاق الوطن العربي فاننا سوف نضع فرضيتين آخريين لاتجاه معدلات نمو السكان فيه بحيث نحصل على ثلاثة تقديرات : ـ

التقدير الاول (عال) : وفيه سوف نفترض استمرار ارتفاع معدل نمو سكان الوطن العربي عن مستواه خلال الفترة من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٥ والبالغ نحو ٢٧بالالف،بمقدار (وحدة الفية) كل خمس سنوات حتى عام ١٩٩٠ ثم انخفاضه بعد ذلك بنفس المقدار .

التقدير الثاني (متوسط) : فيه نفترض ثبات معدل نمو سكان الوطن العربي حتى عام ١٩٩٠ ثم انخفاضه بعد ذلك بمقدار وحدة الفية كل خمس سنوات .

التقدير الثالث (منخفض) : وفيه نفترض اتجاه معدل نمو سكان الوطن العربي نحو الانخفاض بمقدار وحدة الفية كل خمس سنوات ابتداء من عام ١٩٧٥ .

ومعدلات النمو السكاني المقدرة في التقديرات الثلاثة يبينها الجدول التالي :ـ

تقدير معدلات نمو سكان الوطن العربي خلال الفترة من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٥ الى ١٩٩٥ ـ ٢٠٠٠ م .

معدلات النمو المقدرة (بالالف) في التقدير			
الفترات الزمنية	العالي	المتوسط	المنخفض
١٩٦٠ ـ ١٩٧٥	٢٧	٢٧	٢٧
١٩٧٥ ـ ١٩٨٠	٢٨	٢٧	٢٦
١٩٨٠ ـ ١٩٨٥	٢٩	٢٧	٢٥
١٩٨٥ ـ ١٩٩٠	٣٠	٢٧	٢٤
١٩٩٠ ـ ١٩٩٥	٢٩	٢٦	٢٣
١٩٩٥ ـ ٢٠٠٠	٢٨	٢٥	٢٢

وباستخدام معدلات النمو هذه وعدد سكان الوطن العربي في عام ١٩٧٥ والمقدر بحوالي ١٤٧ مليون نسمة . تم تقدير اعداد سكان الوطن العربي خلال الفترة من ١٩٧٥ الى ٢٠٠٠ وهي المبينة في الجدول التالي :

توقع اعداد سكان الوطن العربي في ظل ثلاثة فروض لمعدلات النمو خلال الفترة من ١٩٧٥ الى ٢٠٠٠ م . (بالملايين) .

السنوات	التقدير العالي	التقدير المتوسط	التقدير المنخفض
١٩٧٥	١٤٧	١٤٧	١٤٧
١٩٨٠	١٦٩	١٦٨	١٦٧
١٩٨٥	١٩٥	١٩٢	١٨٩
١٩٩٠	٢٢٦	٢٢٠	٢١٣
١٩٩٥	٢٦١	٢٥٠	٢٣٩
٢٠٠٠	٣٠٠	٢٨٣	٢٦٧

ويلاحظ من هذا الجدول ان عدد سكان الوطن العربي يتوقع ان يصل الى نحو ٣٠٠ مليون نسمة في نهاية هذا القرن على اعلى تقدير ، والى ٢٦٧ مليون نسمة في اقل تقدير ، وفي المتوسط فان هذا العدد يقدر بحوالي ٢٨٣ مليون نسمة . ويعني هذا ان سكان الوطن العربي سيتضاعف عددهم مرة اخرى في نهاية هذا القرن في التقدير العالي ، بينما تصل نسبة زيادتهم الى ٩٣٪ من عددهم في عام ١٩٧٥ في التقدير المتوسط والى ٨٢٪ في التقدير المنخفض . ويتطلب هذا الاسراع في التخطيط من اجل تأمين حياة ملائمة لهذه الاعداد الغفيرة القادمة على الطريق .

وخلاصة القول ان الوطن العربي لا يواجه مشكلة سكانية في الوقت الحاضر والمشكلة التي يعانيها تتمثل في عدم استغلال موارده الطبيعية الاستغلال الامثل مما أدى الى انخفاض معدل النمو الاقتصادي في بعض الدول عن معدل نمو سكانها ، فعانت هذه من تضخم السكان فيها . ولو استطاعت هذه الدول استغلال مواردها الاقتصادية واعادة توزيع سكانها توزيعاً عادلا لما ظهرت فيها مثل هذه المشكلة ، كما انه في اطار وحدة عربية شاملة يصبح من السهل انتقال السكان وهجرتهم من مناطق الاكتظاظ الى مناطق النقص السكاني ، فتستطيع الدول المكتظة بالسكان حل مشكلتها كما تتمكن الدول القليلة العدد استغلال مواردها .

واما في المستقبل القريب فان الحاجة ملحة لوضع خطة اقتصادية عربية موحدة لاستغلال طاقات الوطن العربي وموارده ، ولتأمين مستوى معيشة لائق لسكانه الحاليين وللاعداد الغفيرة القادمة . وإلا فان هذه الدول ستجد نفسها فريسة مصيدة سكانية يصعب الفكاك منها .

الاذاعة ... اداة للوحدة

صبحي ابو لغد

مدرب ومخرج ومؤلف اذاعي ، عمل مراقبا وخبيرا ومستشارا لاذاعات « الشرق الادنى » وبغداد وبيروت ، على التوالي ، منذ ١٩٤٣ الى ١٩٦٠ حينما اسهم في انشاء « الاتحاد الفني » ، وهو مؤسسة عربية للبحوث والانتاج والتوزيع الاذاعي ، المرئي والمسموع .

يتعرض الانسان العربي في المرحلة الراهنة الى ضغوط من المؤثرات الاعلامية ، مختلفة المصادر والمقاصد ، تتناول شتى وسائل الاعلام من الحرف المطبوع الى الكلمة المسموعة فالصورة المتحركة والثابتة ، منطوقة او صامتة .

والصراع القائم في هذا الخضم الاعلامي سواء أكان عبر الاثير المسموع والمرئي ، او بالصحائف والنشرات والكتب ، يتزاحم وطؤه على الأسماع والأبصار ، بما لا يدع مجالا للشك بان معركة التأثير على انسان هذه المنطقة ماضية على قدم وساق وآخذة في الحدة والنمو .

وليس من قبيل النزق او الترف ان تجهد الجهات المعنية بمعركة الاعلام على اختلاف مصادرها وأهدافها ــ في داخل المنطقة وخارجها ــ في صب الجهود وبذل الاموال وتكريس الطاقات لزرع بؤر ، ومد قنوات ، وايجاد مواقع لها في هذه المعركة . والكل يلقي بدلوه ويرمي بسهامه ، ويغرس خمائره ، ويقذف حممه نحو هدف واحد . هو انسان هذه المنطقة . أما الغاية فهي اعادة تشكيل هذا الانسان في وجدانه وضميره وذوقه وطرائق تفكيره ، في توجيه ميوله ، وتحريك عواطفه ، وتصيير قناعاته ، بما يخدم الأغراض المتباينة لهذه الأطراف التي تصطرع في ميدان المعركة .

وليس من المبالغة القول ، بان معركة الاعلام الجارية في منطقتنا ، ما هي الا تعبير عن الصراع الشرس حولها ومظهر من مظاهره ، صراع عدواني للتفتيت والتعمية والاستلاب والسيطرة ، وآخر للتوحد والتنوير والبناء والتحرر . صراع للأمعان في تمزيق الأرض ونهبها ، في وجه نضال للملمة اطراف الوطن وضم اجزائه واعادة تركيبها في جسم واحد متكامل . وصراع للايغال في تشتيت انسان المنطقة وسحقه واغراقه في مستنقع العجز والشلل واليأس ، امام اشواق هذا الانسان لبناء مواطن واع ، منتج ، خلاق ، قادر على تكوين مؤسساته ورعايتها وتطويرها بما يهيء لهذه الامة موقعا لها في العطاء المميز ، تعزز الثقة بجدارتها للحياة الكريمة في ارضها الرحبة المعطاء ، لتساهم في مضمار الحضارة .

ولو التفتنا الى مصادر الاعلام العاملة في المنطقة والغايات التي تعمل من اجلها ، لأمكن تلخيصها الى ما يلي : ــ

الهيئات	الغايات
١ ـ هيئات حكومية عربية	تدعم الأنظمة الحاكمة ، وتبرر مواقفها وتحركاتها
٢ ـ هيئات حكومية اجنبية	تتبنى وجهات نظر حكوماتها ، وتزين تصرفاتها
٣ ـ هيئات مذهبية عقائدية	تروج للعقائد والمذاهب التي تؤمن بها وتدعمها دول او جهات تتبنى هذه العقائد والاتجاهات ، وتنتظر الوقوف الى صفها عند الحاجة .
٤ ـ هيئات تحررية وحدوية	تدعم افكار ومبادىء تحررية من اجل غايات وحدوية .
٥ ـ هيئات احتكارية اقتصادية	تهيء الأجواء وتحضر النفوس للتقبل والرضوخ لتحركاتها واستثماراتها .
٦ ـ هيئات تجارية بحتة	للأنتاج حسب المواصفات التي تدر ارباحا ، بغض النظر عن مضامين انتاجها واثره على المجتمع ، كأعلانات الترويج لأغراض الآخرين وافكارهم ، فهي مؤجرة لمن يدفع الثمن .
٧ ـ هيئات وعناصر مشبوهة	غير معروفة المصدر ، تعمل بشكل غير مباشر لخدمة هذه المصادر .
٨ ـ هيئات وعناصر مغلفة	ظاهرها تجاري او ثقافي او انساني وباطنها شيء آخر .
٩ ـ هيئات وعناصر ملتزمة	تعمل بدافع من شعورها بالمسؤولية في اطار معركة التحرر والتوحد ، ضمن معادلات اقتصادية .

وهذه الهيئات والعناصر تعمل بكفاءات وفعاليات متفاوتة النشاط والتأثير وبصور مباشرة او غير مباشرة ، وضمن مخططات متعرجة طويلة النفس او ضمن خطط عاجلة متربصة . وكثيرا ما تظهر وتختفي حسب مقتضيات الظروف وحرارة المعركة .

وانطلاقا من جوهر الصراع المصيري ومن ادراكنا من ان انسان هذه المنطقة هو الهدف الرئيسي في معركة الأعلام المستعرة فانه من الضروري ان لا يغيب عن اذهاننا ، استمرار العمل وبذل الجهد وتوفير الأمكانات ، لأن توسع الجهات ذات المسؤولية القومية والأنسانية ، ساحة فعاليتها في المعركة وتدعم ذلك بكل الوسائل والطرق لتضاعف من منافذ بلوغها الى جماهير امتنا وتجعل ادواتها اكثر مضاء وانتاجها اكثر تقبلا وشمولا ، فتدرأ بذلك عنها شرور الأعلام المعادي الذي تنصب عليها سيوله .

الأذاعة

لقد تحقق في هذا القرن كثير من الأحلام النائية راودت الأنسان القديم ، وترجم عنها بقصص وحكايات ، استأثرت بأسماع الصغار والكبار والهبت خيالاتهم ، فكانت لهم مصدر الهام ومبعث سلوى عبر اجيال طويلة .

واليوم ، اخترق الأنسان اجواز الفضاء ، وراح يسبح في فراغه ، ويعد العدة لغزو الكواكب التي كانت بالأمس فوانيسه الهادية في ظلام الليل ، او يواقيت ولآلىء يهبها الشعراء جزافا لعشاقهم . وقوافل العيس التي كانت تطوي الأرض طيا على انغام الحداء السائبة وطنطنة الأجراس الموقعة اسابيع وشهورا استحالت هديرا وازيزا وجلجلة تبتلع الشهور في ساعات والأيام في دقائق . وبساط الريح الذي امتطاه الأجداد في احلامهم بات شيئا باليا ازاء ما ابدعه انسان اليوم . اما البلورة السحرية التي تفرد بها مارد علاء الدين ، فكادت ان تصبح مقتنى كل بيت ، جلية الصوت ، واضحة الصورة ، زاخرة اللون .

ومنذ البدء كانت الكلمة . والكلمة هي الأنسان ، بها ينطق ويعقل ويتفكر . وبها يتأثر ويؤثر . وبها يتصور الأشياء ويكون الأفكار ، وبها يقدم او يحجم .

والكلمة عبر الأثير تحضر الينا بهنيهات تنسكب في آذاننا من كل حدب وصوب من قريب ومن

بعيد ، من صديق ومن عدو ، من عاقل ومن معتوه . وهذه الكلمة منها الطيب ومنها الخبيث ، ومنها المضيء ومنا العليل . وكلمات الاثير ازدانت بزاهي الحلل من ضروب الصوت انغاما ومؤثرات ، وتبرجت بالزخارف والعطور . فكانت تلك البرامج تخوض في كل ميدان ، وتتناول كل شأن من شئون الحياة .

في عام ١٩٢٠ انطلق اول بث اذاعي من ديترويت وبتسبرغ . كان هذا البث يقتصر على بعض كلمات وموسيقى مسجلة . ولم تكن ساحته تتجاوز الاميال المحدودة . اما الذين يملكون اجهزة الأستقبال فكانت القلة القادرة التي تستهويها الجدة والأبتكار .

ولم تمض سنوات حتى توالت محطات البث في بقاع مختلفة في العالم . وتوالى معها تطور الأرسال والأستقبال وازداد اتساعا وصفاء عبر موجات الأثير المختلفة .

وأول بث في الأرض العربية ظهر في القاهرة بعد أعوام ثمانية ضمن حدوده الضيقة التي لم تكن تغطي سوى مساحة محدودة من العاصمة المصرية . تولت ذلك شركة (ماركوني) البريطانية . الى ان تسلمتها الحكومة المصرية ووسعتها في عام ١٩٣٦ فغطى الأرسال قطاعا واسعا من الأراضي المصرية وبعض الأراضي العربية المجاورة . وتبعتها اذاعة القدس في فلسطين بأدارة حكومة الأنتداب البريطانية . ثم توالت الاذاعات في الأرض العربية .

وعلى مر السنين تولدت الفنون الاذاعية . وتجاوزت مراحل تلاوة القرآن الكريم ، ونشرات الأخبار ، والمحاضرات الدينية والأغنيات السائدة . وتولى الرعيل الأول في اذاعة القاهرة الريادة في هذا المضمار ، فكانت التمثيليات الاذاعية والندوات الأجتماعية والوان من البرامج الغنائية والخفيفة .

وبحكم القبضة الأستعمارية المتحكمة في اقطار العروبة بالاحتلال المباشر وبغيره ، كانت دول الاستعمار الغربية هي المهيمنة الفعلية على سياسة هذه الاذاعات وتوجيهها ، ما تريده يقال وما لا تريده يحجب . اما المواد الاخبارية فكانت عربية النطق اجنبية المبنى ، استعمارية الهدف .

واشتعلت الحرب العالمية الثانية . واظهر النازيون براعة وحنكة في استغلال هذه الأداة في التأثير على الانسان في المانيا وما حولها . فكان لهم القدح المعلى في تسخيرها لخدمة أول عملية غسل دماغ جماعية . وما لبثت ان تنبهت الدول الأستعمارية الى هذا الأمر ، فركزت جهودها في هذا الميدان ، وجندت لأذاعاتها امهر الكفاءات ، في احدى اكبر المعارك الاعلامية عبر الأثير .

كانت معركة الأثير بين الفريقين المتحاربين ، النازية والفاشستية من جانب ودول الحلفاء الأستعمارية من جانب آخر ، لا تقل عن معارك الطيران والمدافع والجيوش الملتحمة في ساحات القتال . ولا يزال الأنكليز يذكرون اسم اللورد « هوهو » الذي كان يبث من اذاعة « برلين » لينال من معنوياتهم ويثير البلبلة والشك في نفوسهم ، مما دعا الحكومة البريطانية الى اصدار حكم الموت عليه قبل ان تضع الحرب أوزارها . ولا يزال الجنود الاميركيون يذكرون تلك المذيعة اليابانية ناعمة الصوت ساحرة الأداء ، التي كانت تقدم لهم اعذب الأغاني واحلى النكات في برنامجها الترفيهي . وتكتفي ببضع تعليقات تقض مضاجع القيادة الأميركية .

ولم تغفل النازية توجهها الاذاعي للأنسان العربي الذي كانت أراضيه محط اطماعها . واستطاعت ان تنفذ اليه عبر اذاعاتها الناطقة بالعربية ، تغرقه بالوعود البراقة ، مداعبة امانيه للتحرر والوحدة ، من اجل اعداده لاستقبال جيوشها الغازية استقبال المحررين المنقذين من براثن غيرها من الدول الأستعمارية الحليفة .

وتنبه الحلفاء الى هذا الغزو الجديد عبر موجات الأثير . وخشوا من آثاره النفسية على المواطن العربي ، وهم الذين سخروا منه بالأمس القريب ، عندما حالفهم فخانوه ، وصدقهم

فكذبوه ، وسفك دمه لوعودهم ، فقطعوا اوصاله وتناهبوه ، ورموا بفلذة كبده (فلسطين) الى عصابات الشذاذ العنصريين .

وانبرى الاستعمار البريطاني يتصدى بأجهزته الاذاعية في ارضه وبما زرع منها في أرض العروبة المهيمن عليها . وراح يذرف منها الدمع على ما فات ، ويعلن التوبة لما اجرم وخان . وغالى في الوعود المعسولة واغراق الناس بشعارات العدل والحق وحرية الشعوب وتقرير المصير .

كانت الأرض العربية في تلك الفترة ارضا مباحة للاستعمار ، يتحكم بمقدراتها ويمسك بمفاتيحها على مختلف المرافق والأصعدة ، سواء أكان ذلك عن طريق الاحتلال او الحكومات المسيطر عليها . وكانت وسائل الأعلام من بين هذه المرافق وعلى رأسها الأذاعات . لذلك ، وعندما بدأت قبضته الحديدية يعتريها الصدأ وتتأكلها نيران التحرير ، كانت الأذاعات احدى أوائل الأهداف التي وضعتها نصب عينيها حركات التغيير والتحرير والأنقلابات ، والأنقلابات المضادة والمعاكسة ، لادراكها الكبير خطورة هذه الأداة وفعاليتها المؤثرة في سرعة تحريك الجماهير وتوجيهها .

وخلال هيمنة الأستعمار وسيطرته على المنطقة لم تغفل له عين ، ولم يأل له جهد في محاولاته اغراق الأنسان العربي بالشكوك وإفراغه من القيم والمثل وإغرائه بقشور الزيف واطفاء مشاعل النخوة والعزة في نفسه ليقتل الولاء الطبيعي لأرضه ويقطع انتماءه الموروث لأمته فيرضخ لنير انقياده .

تجاه كل ما خلفت ظروف المنطقة واحداثها المريرة عبر الأجيال وما تسرب اليه الأستعمار ولفقه وغذاه ، وما تركه من بثور وامراض ، يكمن جانب مهم من مسئوليات الأذاعات العربية ــ المسموعة والمرئية .

وهذه المسئولية تنهض في مركز الصدارة الى جانب واجبات الأذاعات التقليدية في ان تسعى لتكون المرآة لكل ما يمكن ان تهتم به فئات الجماهير وما يراد منها ان تهتم به ، وان تكون المعبر والمترجم لطموحات الأمة المتسقة مع قدراتها وتراثها في الأرض والأنسان . عدا عن واجباتها الأخرى في توعية مدارك الأنسان وتنمية الحس القومي والذوقي لديه وتربية ملكاته على التحليل المنطقي للأحداث بما يخدم قضاياه الأساسية فلا يكون مطية سهلة للعابثين والمضللين .

المواد الأذاعية

يندرج تصنيف المواد الاذاعية ــ تقليديا ــ تحت هذه العناوين الثلاثة : المواد الأخبارية ، والمواد الثقافية ، والمواد الترفيهية .

أما أساليب العرض فقد تطور الفن الأذاعي بحيث تناول جميع هذه المواد بأطاراته المختلفة ، من أحاديث مباشرة ومحاورات وندوات الى تمثيليات وبرامج خاصة ومنوعة ، الى مواد موسيقية وغنائية واستعراضات .

اقتصر نشاط الأذاعات في المنطقة في فترة من الفترات على الأهتمام بالقضايا السياسية والأغراض التي تتطلبها الفئات المهيمنة على الحكم . وكانت المواد الأخرى تعمل عمل الدعم لهذه الأغراض ، او هي مجرد ملء وقت دون تخطيط ووعي شامل لما تقتضيه مهام الأذاعة وواجباتها . وحتى على صعيد هذا النشاط فقد كانت الوقائع الأخبارية والاحداث الجارية تخضع لمفاهيم مخنوقة ، ادت الى حجب وقائع واحداث او اجراء تحريف عليها ، تتوافق مع الطوق الضيق الذي وضعه القائمون على الأذاعة في اعناقهم .

وقد اثبتت التجارب الأعلامية ان مثل هذا الأنغلاق يجر المصائب على الأذاعة وجمهورها . اذ ما يلبث مستمعها ان يكتشف الأمر ويعتبر ذلك استغباء له وامتهانا ، فتضعف ثقته بها ، ويتحول عنها الى محطة اخرى يبحث فيها عن استكمال الخبر . او عن المفقود فيه ، أو عن صيغة اخرى له .

والأثير في الوطن العربي يضج بالأذاعات الأقليمية والأجنبية ، لذلك فلم يكن هذا المواطن يتوانى لكي ينتقل من محطة الى اخرى . الأمر الذي قد يجعله ضحية البلبلة والحيرة . او ضحية السقوط في خديعة احدى المحطات المعادية ، فيغدو الوعاء الذي تصب فيه سمومها ، وتنتقل منه دون وعي الى اخوانه المواطنين .

ويكرس بعض الأذاعات الأجنبية ، وخاصة الأستعمارية والمشبوهة ، اهتماما كبيرا في المواد الأخبارية ، لتوفر للمستمع العربي ما يفتقده في محطته المحلية او أية محطة عربية اخرى يتمنى ان يجد فيها ضالته ، فتكون البديل او المكمل لمحطاته العربية موحية اليه بأنها الأكثر دقة وموضوعية وشمولا . ويلحظ هذا الأهتمام البالغ في ملاحقتها للوقائع والأحداث ، وفي التحليلات السياسية والبرامج الأخرى التي تنطوي على تفاصيل وايضاحات وهوامش تضع المستمع في ساحة الأحداث وثناياها .

وهذا الأسلوب من الخدمات الأخبارية بلغ مستوى رفيعا في بعض البلاد الأجنبية ، وتقدمه اذاعاتها المحلية لجماهيرها في الداخل ويحظى باعجابها الشديد . فلا غرابة ان يقع في نفس المستمع العربي الموقع ذاته من الأعجاب وان اختلف المقصد . فمثل هذه البرامج موائد من الطعام سياسية ، ما اسهل ان تدس فيها السموم الملوثة للأفكار والنفوس وما اسرع ان تنسكب فيها عند المواقف الحاسمة ، فلا يجد المستمع نفسه الا وقد اصابه الدوار واظلمت الدنيا في وجهه وما ان يكتشف الأمر حتى تكون موائد اخرى مشهية يجري اعدادها له من جديد .

ولو عدنا بالذاكرة الى معارك الأمة مع العدو في ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ ، لأمكن لنا ان نتصور مخاطر انجراف المستمع العربي نحو تلك المحطات المعادية التي لم تتوان في محاولاتها الجريئة لايقاع البلبلة وبث الشكوك واحباط الهمم والنيل من المعنويات على مختلف الساحات . ناهيك عما تنشط به في ايغار الصدور وبث روح التفرقة عندما يعتور جسم الأمة خلل وعلة .

نحو جامعة ثقافية اذاعية

وليست الأذاعة المسموعة والمرئية مدرسة او معهدا للمواد الثقافية على اختلاف فروعها الا اذا شئنا ان تكون كذلك . وعندها لا بد من انشاء اذاعة خاصة لهذا الغرض ، كما حدث في الاتحاد السوفياتي في تجربته الرائدة والتي حذت حذوه بريطانيا وغيرها .

مثل هذه الأذاعة الجامعية قطعت شوطا بعيدا في مضمار التطور ، وتكون لها هيكل تعليمي خاص وادارة دقيقة معقدة ، ولم يكن لكلفتها الباهظة ما يبرره الا النتائج الرائعة التي حصلت عليها . فقد تخرج على أثيرها العديد من الرجال والنساء ، حققوا مستويات عالية بين خريجي الجامعات والمعاهد التقليدية واعتبرت شهاداتهم في نفس القيمة والتقدير .

واحسب انه من الجدير التفكير بانشاء مثل هذه الجامعة من الآن ، والبدء باعداد الدراسات ووضع الأسس الى حين تتحقق الأمكانات التقنية ، الكفيلة ببث مواد هذه الجامعة في وقت واحد على امتداد الأرض العربية كالأقمار الصناعية .

ما نحن بصدده بالنسبة للمواد الأذاعية الثقافية ، هي تلك التي تحمل في مضمونها شتاتا من المعارف في موضوع وآخر ، تبتكر لها الأطارات الجذابة ، لتجعل قبولها سلسا لينا لا ارهاق في سماعه او مشاهدته ، بل فيه المتعة والراحة .

وقليلة جدا هي البرامج الأذاعية الموثقة ــ مسموعة او مرئية ــ في بلادنا ، والتي يمكن الركون اليها كمرجع دقيق من مراجع المعرفة . لذلك فان مثل هذه المواد يغلب عليها طابع البساطة وتحتويها اطارات فنية تستهدف التشويق والترغيب ، تختلط المعلومات فيها بنسب متفاوتة من الخيال والمزينات التجميلية . على ان الاهداف العريضة لهذه المواد هي اثارة شهية المستمع للمعارف العامة وتنشيط مداركه . وهي كذلك تفعل فعل المنبه للعواطف والقيم والتجارب الذاتية .

وقد تطورت هذ المواد وتشعبت اساليبها لتتناول مختلف قطاعات المواطنين وفئاتهم سواء من حيث المهن او السن او الهوايات والأذواق . كما تناولت مختلف المواضيع في الأدب والعلم والأجتماع ، وفي السياسة والتاريخ والقانون ، وما الى ذلك .

ومثل هذه المواد اذا اعدت بدراية وخبرة وجندت لها الكفاءات الفنية العالية والخبرات المهنية ، تستطيع ان تخدم الكثير في معالجة قضايا الأنسان العربي ، ليس ضمن بيئته الصغيرة او قطره المنغلق ، بل ايضا ضمن اطار وحدته الشاملة وترابطه السليم في جسم الأمة ، وفي علاقته بغيره من الأمم والشعوب . وكثيرة هي المواد التي يمكن ان تندرج في هذا الاتجاه لتعميق مفاهيم التوافق والتوحد . وكثيرة هي المواد التي يمكن ان تعمل على تصفية شوائب التجزئة والتمزق وتعزيز الثقة والأيمان بالنفس والأمة والوطن الكبير .

ان المواد التعريفية بشئون الأقطار العربية ، بثرواتها وآدابها وفنونها ، بمواهبها ومنجزاتها ، بامكاناتها المادية وطاقاتها البشرية ، لا شك تخدم خدمات جليلة الأهداف الوحدوية التي يطمح لها ابناء هذه الأمة .

ان المواد التي يشترك فيها اختصاصي من مصر وآخر من المغرب وثالث من العراق في موضوع اقتصادي او صناعي او اجتماعي او ادبي ، يكون لها في النفس اثر بالغ يعزز الشعور بوحدة الأمة ترابا وانسانا .

ان سلسلة من البرامج حول المواد الخام وتواجدها في كل قطر من اقطار الوطن العربي ، وما يمكن ان تقام عليها من صناعات وتستوعب من طاقات ، لا ينكر اثرها النفسي في مفهوم الوحدة .

ان برامج مسموعة ومرئية تصور الوطن العربي في وحدته الطموحة ، تعتمد الحقائق العلمية والتاريخية والأجتماعية ، وتستلهم منها تلك الصورة الموحدة لهذا الوطن الكبير ومعطياته الرائعة ، تقوم على دراسات واعية وتصور منطقي واطار جذاب ، كما في روايات جول فيرن العلمية الخيالية ، لا شك تلهب جماهير امتنا وتغذي في الأجيال الصاعدة توجهها نحو هذا الهدف الجليل .

ان برامج تمثيلية تتنقل احداثها بين قطر عربي وآخر ، وتجري فيها الوقائع طبيعية سلسة متماسكة ، لا شك تترك في اعماق النفس الأيحاءات المرجوة لتعزيز شعور الوحدة .

ومعين لا ينضب من تلك البرامج الموثقة ـ مسموعة ومرئية ـ تسجل في مواقعها حيث تكون في أي قطر ، لتلك الاماكن البارزة والآثار الباقية والمعالم الحية ، والمنجزات الصناعية والزراعية ، او لمكان حدثت فيه واقعة تاريخية هامة ، او وقفة مشرفة تبثها المحطات العربية بشكل دائب ومنتظم . وكم هي غزيرة تلك البرامج التي تعرض لمجالات المشاريع في الصناعة والزراعة والأنشاء والتنقيب في هذا المكان او ذاك من الأقطار العربية ، باعتبار انها فرص تفتح ذراعيها ليفيد منها ابناء هذه الأمة ، فتكون الموحية والمحركة لمن يملك نواصي المال في الوطن العربي .

ولم تغفل بعض الاذاعات الأجنبية الناطقة بالعربية هذه المواد ، واستطاعت ان تلفت اليها انظار المستمع العربي بعدد من هذه البرامج خاصة ما يتعلق منها بشئون العلم والتطورات الجارية في مضماره .

وجدير بالأذاعات العربية ان ترعى هذه الناحية لتسد الثغرة القائمة . فالاستكشافات العلمية الحديثة ، في الفضاء والذرة والألكترون ، في الزراعة والصناعة ، في الطب وتحليل النفس وغيرها ، مواد تحمل عناصر التشويق في ذاتها ، فان كانت كل محطة اجنبية تتحدث عن المنجزات العلمية الحاصلة في بلدها ، فما احرى بالأذاعات العربية ان تتحدث عن هذه المنجزات العلمية من المساحة الأوسع فتشمل ارض العروبة والعالم اجمع .

اما المواد الترفيهية فانها تتألف من المواد الموسيقية والغنائية ومن برامج المنوعات والتمثيليات

الفكاهية ، ومن اختلاط هذه بتلك ، بغية الترويح عن النفس . وبعض الأذاعات تعتقد ان مثل هذه المواد تستطيع ان تكون الجاذب الأكبر لجمهرة المستمعين . فتميل الى تغليبها على برامجها . وبعضها لا يعيرها الأهتمام الذي تستحق .

والحقيقة ان نسبة كبيرة من هذه المواد لا تعدو ان تكون مواد ثقافية في ذاتها . واذا اعتبرنا ان مواد الاذاعة هي بالأساس مواد ايحائية ، جاز لنا ان نتقبل المعنى الثقافي في هذه المواد . فايحاءات المواد الموسيقية والغنائية او التمثيلية الخفيفة والفكاهية والمنوعات تتناول مواقف اجتماعية وانسانية تثير في النفس حالات مختلفة من المشاعر . والمستمع العربي لا زال يذكر تلك الأناشيد الرائعة التي انطلقت اثر الهجوم الثلاثي الغادر على مصر عام ١٩٥٦ .

وبعيدا عن الأحداث المثيرة التي تقع بين وقت وآخر وتنعكس احداثها على البرامج الأذاعية في الأغنية والتمثيلية والبرنامج الخاص والشعر والفكاهة فان المواد التي يطلق عليها مواد ترفيهية تدخل ايضا في صلب المواد النابضة بالتوجيه والأيحاء لخدمة التقارب والتآلف والوحدة . ولعل المواد الخفيفة ذات التوجيه غير المباشر والتي يستقبلها المستمع براحة وانفراج هي الأكثر فعالية في النفوس على المدى البعيد .

وتستطيع هذه المواد ان تحمل مشاعر الوحدة في كثير من البرامج المعدة لهذه الغاية ، مثل برامج الغناء الشعبي المنوع والتقاليد والعادات ، والأطراد في تقديم الأغاني الشائعة والمستجدة للأقطار الاخرى ، واجراء محاولات مشتركة لأعادة اخراج الألحان الشعبية القديمة والشائعة بالأساليب المعاصرة بين قطر وآخر .

اما الأذاعات الاجنبية فانها تعتمد غالبا على ما هو متواجد في الأسواق من المواد الغنائية والموسيقية وقلما تبذل الجهد في الأسهام في انتاج جديد او اجراء محاولات التطوير التي يسعى اليها بعض الأذاعات العربية نظرا لارتفاع كلفتها . وقد استغلت الأذاعات الأجنبية ببراعة هذه المواد الرخيصة الكلفة في اقامة جسور بينها وبين المستمع العربي ، نظمتها في اطارات برامج تقوم على تلبية رغباته من الأغاني والموسيقى والكشف عن حظه في الأبراج والنجوم وقراءة بضع كلمات من رسالته مع تعليق خفيف عليها . وعن طريق هذه البرامج الخفيفة وبرامج الوساطات للتعارف وهوايات الطوابع وما الى ذلك كونت محطات اجنبية جماهير كثيفة من المستمعين العرب ، بفضل حسن ادارتها وتنظيمها لهذه البرامج وبفضل الأستقبال القوي الذي تنافس به المحطات العربية في ارضها .

ويفوق عدد الأذاعات المبثوثة في الأرض العربية عدد الدول التي تنتسب الى جامعتها . وبين هذه ، اذاعات عامة ، اعدت لتبلغ الجماهير العربية خارج اقطارها ، ومع ذلك نجد ان بعض الأذاعات الأجنبية يعلو صوته عليها ويبلغ ما لا تبلغه .

وبغض النظر عن امتداد البث وما يتضمنه من مواد ، فان وضوح الأستقبال يعتبر عنصرا مهما في اجتذاب المستمع الى اذاعة دون اخرى . وقد ادركت الأذاعات الأجنبية هذا الأمر ، فعمد بعضها الى المعالجات التقنية الناجعة ، وعلى رأسها زرع محطات التقوية في مواقع مدروسة ، تتيح للواحدة منها تغطية مساحة مرسومة لها ، لتلتقي بالثانية في مساحة اخرى . وهكذا تتم التغطية الأوسع للوطن العربي .

وجدير هنا التنويه ، بان ما من جهة اجنبية واحدة تبث لكل قطر من اقطار العروبة اذاعة خاصة به ، بل انها تلتقي جميعا على الأتفاق بان جميع هذه الاقطار كل في واحد . فهي بذلك لا تقر الحدود المنصوبة فيما بينها ، ولا تعترف بتعدد الهويات المفروضة على ابنائها ، اذ انها تخاطبهم جميعا في هوية واحدة وبلسان واحد . في الوقت الذي تقوم سياسة دول بعض تلك المحطات على نكران هذه الحقائق واستهجانها .

سلاح اللغة

وتتعدد اللهجات في اللغة الواحدة والوطن الواحد بين منطقة واخرى ، وبين حي وآخر في المدينة الواحدة ، وبين هذه الفئة وتلك في المجتمع الواحد . ويبدو ذلك واضحا في انغامها وايقاعاتها ، وفي تركيب جملها واستعمال مفرداتها ، والمستعار من الكلمات والعبارات من لغات اخرى . ونحن نلحظ ذلك في انكليزية بريطانيا وجرمانية المانيا وفرنسية فرنسا وغيرها من الدول واللغات . وليس المجال هنا تبيان اسباب هذه التعددية في لهجات اللغة الواحدة وتحليل مظاهرها بقدر ما يهمنا تقرير حقيقتها في الو طن الواحد . وقد تتعدد ايضا في الأمة الواحدة وتتفارق في اصولها وفروعها . ومع ذلك فهذه التعددية وتلك الفوارق لا تشكل مطعنا في كيان الأمة وجوهر وحدتها . ولقد شاء الأستعمار ان يجعل من تباين انغام هذا اللسان ، حواجز يعزز بها تلك الحدود والسدود التي اصطنعها ، واقام عليها الحراس من ابنائها .وتمادى في فترة من الفترات في استثمار هذه الظاهرة اللغوية ، وجيرها لخدمة اغراضه الأنفصالية ، فنادى بلهجاتها لغات قومية ، تستأهل التعامل بها في الأدب والفن والعلم والاذاعة أيضا . وما لبث ان انساق فريق من المخدوعين يغذون هذا الأتجاه ويزينون انتشاره ، وانبروا يمايزون ويفاضلون بين اللغة الأم وما البسوا هذه اللهجات من البراقع المزيفة بعدد الأقطار المنسوبة اليها .

ان انغلاق المجتمعات العربية في عهود الظلام وانتشار الامية والجهل ، وتحكم الأستعمار في ربوع الأرض العربية المجزأة ، وما تبعه من اقتحام اللغات الأجنبية وفرض سيطرتها على مرافق الأقتصاد والتعامل الرسمي والثقافي ، والاغفال المتعمد للغة الأم ، وزرع الشك في قدراتها وطاقاتها . كل هذا استغله اعداء الأمة في تضخيم التباين في هذه اللهجات وتعميق الفرقة بينها .

ولقد تركت هذه المحاولات ذيولا اليمة في بعض المناطق والنفوس ، رغم الفشل الذي باءت فيه . لكن هذا التباين اخذ يتداعى في عهود الأستقلال وانتشار الوعي والثقافة واسترداد اللغة العربية كرامتها التي غالى الأعداء في هدرها .

وهكذا ، ومن ادراكنا لهذا الواقع ، فان الأذاعات العربية تملك سلاحا قويا فعالا تستطيع باحكام قبضتها عليه وحسن استعمالها له ، ان تقوض به احد اهم الحواجز التي اعتمدها الأستعمار واعداء الأمة في تجزئة الوطن العربي وتغذية اسباب الفرقة بين ابنائه . هذا السلاح : هو اللغة الأم .

لقد تطورت اساليب الكتابة والمخاطبة بلغتنا الأم عبر الصحافة والاذاعة ، وادى الأهتمام بها وارتفاع مستوى الثقافة لدى ابنائها ، الى تقريب الهوة التي كانت تفصل بين المكتوب منها والمحكي .

وما لبثت جماهيرنا في مختلف ارض العروبة ان استأنست بلغتها الأم ، تحملها موجات الاثير فصيحة سلسة ، تستقبلها الآذان بارتياح ووضوح ، بما تبثه الأذاعات العربية من مواد اخبارية وروايات وبرامج وغناء .

ان هذا يدفعنا الى بذل المزيد من العناية والأهتمام بلسان الأمة ، ينساب صافيا نظيفا من اذاعاتنا ، ويغلب على ما سواه من لهجاتنا الفولكلورية العامية ، ويحل محل اللغات الأجنبية التي تنطق بها تلك البرامج المتلفزة التي نستوردها من الخارج.وشيئا فشيئا ستجري الفصحى لينة هينة على كل لسان ، وتكون بحق لسان الأمة من محيطها الى خليجها .

وتبث الأذاعات المرئية في اقطارنا العربية برامج اجنبية مختلفة . ينطق معظمها بلغاتها الأصلية ، ونكتفي بالترجمة مكتوبة على صورها . ولا تنفرد الأذاعات العربية ببث برامج اجنبية لمشاهديها . فمثل هذا نجده في دول العالم ايضا . ولكن ، ما من عمل من هذه الأعمال يمكن ان يظهر على الشاشة الصغيرة في العديد من هذه الدول قبل ان يصير انطاقه بلغة الأمة . وقد عمدت الى سن

القوانين حتى لا تجترىء لغة اخرى على لغة الدولة الرسمية .

ومن الطبيعي ان هذه الدول لا تتكلف بمصاريف الأنطاق الباهظة رغبة في هدر الأموال ، لو ان الترجمة الموضوعة فوق الصورة تفي بالغرض . مع العلم ان نسبة الأميين في بعضها تكاد تكون معدومة ، الأمر الذي يختلف عندنا كثيرا . ولا يقتصر تمسك الدول الغنية على انطاق البرامج الأجنبية باللغة الأم دون الفقيرة ولا على اللغات واسعة الأنتشار دون سواها ، فالعملية ذات دلالة معنوية ترتبط بعزة الدولة واحترامها لذاتها ، كما ترتبط بكرامة اللغة التي لا يجوز التفريط بسيادتها فوق ارضها على حساب لغة اخرى .

والأذاعات المرئية العربية التي تبث مثل هذه البرامج حرية ان تولي موضوع انطاقها بلغة الأمة الأهمية ذاتها التي توليها الدول الأخرى . ويكفي ما عانته الأم على ايدي اعدائها حتى يتغاضى ابناؤها عن واجبهم ، وامام اعينهم هذه الأمثلة البليغة .

وان كان لا مندوحة من بث مسلسل اجنبي مشوق يتفوق في تقنيته وفنيته على ما ننتجه في بلادنا ـ بغض النظر عن مضمونه ، أقلا اقل ان نفيد منه في تعزيز لغتنا الام . وان كان هذا البرنامج يتناول موضوعا علميا او ثقافيا ، فكيف تبلغ معلوميته المفيدة جماهيرنا ان لم ينطق بلسانها .

واذا كانت الدول الأخرى تحرص على تكريم لغاتها الأم حرصها على مقدساتها ، أفليس الأجدر ان نكون اكثر حرصا ، وعلى لساننا تجري اكرم اللغات واقدسها ؟

حلم المحطة القومية الشاملة

وبعيدا عما يجري في بعض البلدان الأجنبية من توفر في الأذاعات المحلية ـ المسموعة والمرئية ـ تتيح للمواطن مجال الأختيار ، انسجاما مع التفاوت في الأذواق والاهتمامات والأمزجة والأغراض ، الا انه مع هذا التنوع ، لم يكن مناص من وجود اذاعة رئيسية او اكثر ، تتمثل فيها الأمة ، تعلو فوق جميع هذه الأذاعات ، وتصل الى جميع ابنائها بيسر وجلاء .

وفيما يتعلق بالأذاعة المسموعة ، ليس ما يدعو الى الدهشة ان ينظر المواطن العربي الى محطته القطرية الرئيسية كمحطة محلية اكثر منها قومية عامة . وانه اذ يلجأ لاستكمال النقص بالبحث عن محطات عربية اخرى ، فانها لظاهرة طبيعية سليمة تؤكد شعوره في تلمس بقية اجزائه المتناثرة وتعبر بصدق عن فقدانه لهذه المحطة القومية الشاملة . فان عز عليه المطلب لضعف الأستقبال ومحدودية البرامج وضيق اوقات البث ، فلا يجوز ان نلقي عليه اللوم ان عوض عنها باحدى الأذاعات الأجنبية القوية واستكان اليها .

واذا كانت هذه الأذاعة تغطي الأقطار العربية جميعاً دون اية اذاعة عربية اخرى واستطاعت ان تكون لها جمهورا في كل منها ، اليس معنى ذلك انها غدت « اذاعة الأمة » رضينا او ابينا ؟ واذا كانت هذه الأذاعة وراءها دولة معادية او جهات ذات اغراض ومصالح ، اليس معنى ذلك ان « اذاعة الأمة » في ايدي اعدائها ؟ واننا اسلمنا جماهيرنا فريسة لمصالح الغير واغراضهم ؟

وبالأضافة الى ما تنتجه الشركات التجارية الغربية والدوائر الأذاعية الرسمية العالمية ، تقوم مؤسسات اقتصادية وخيرية وعلمية غربية على انتاج برامج متلفزة تصطبغ بشخصياتها ، ولا تستهدف منها الربح بقدر ما تستهدفه من التعبير عن ذاتها بصورة مثالية .

كذلك تتولى هيئات غامضة تتبع مخابرات بعض الدول او جهات مشبوهة ، انتاج برامج متلفزة يخطط لها بحرص ودهاء ، لتحمل بعض الأفكار المعينة ، تسربها الى العقول والنفوس في دول العالم الثالث او بعض المناطق الأخرى . ولا غرابة في ان تشق هذه الأعمال طريقها الى محطات الأرسال وتثير اعجاب الجماهير المعدة لها ، نظرا للتقنية العالية التي تتمتع بها والأطار المشوق الجذاب الذي تغلف به مضامينها . ومما يلفت النظر هذا السيل الجارف يصب على اذاعاتنا العربية المرئية من المسلسلات

التي تدور حول عملقة الشخصيات الأجنبية ، وقد تمثلت امامنا بقوى خارقة لا تقهر وبأسمى قيم النبل والأمانة والنجدة والعدل ، تصول وتجول بذكاء ورشاقة في اطار من الأحداث المشوقة .

ترى ماذا يمكن ان تخلف هذه المسلسلات في نفس المواطن وعقله الواعي والباطن على السواء ، اذا كان رفاقه المفضلون في امسياته على الشاشة الصغيرة هذه الشخوص الأميركية المعملقة في الشرطي والطبيب والأستاذ والصناعي والحاكم والمصرفي .

ثم ما هو اثر تلك المسلسلات الأجنبية التي تذرع البلاد العربية طولا وعرضا وشعارها « العجل الذهبي » معبودا في حفنة من الدولارات وبضع سبائك من ذهب وحبات من الحجارة الوهاجة ، يستعر من اجله الصراع ، وتمتهن بسببه الفضيلة ، وتنشط للذود عن حياضه كل اركان الدولة ، حتى تنصب اعواد المشانق وتزهق على حبالها الأرواح .

وبعد ذلك ، ماذا يمكن ان يقال فيما نسمعه من ان بعضنا يدعو شركات انتاج اميركية لتكتب حروفها الهجينة على قلوب اطفالنا وعقولهم وتغرس في نفوسهم الغضة بذورا غريبة الأصل والمنبت ؟

رغم الكلفة العالية التي تتطلبها معدات الأنتاج المرئية من استوديوات التصوير الألكترونية واجهزة التسجيل التابعة لها ، ورغم ضخامة الجهاز البشري الذي عليه ان يتولى التنفيذ في مختلف مراحل العمل ، قلما نجد في اذاعاتنا المرئية تخطيطا مدروسا لحاجاتها من البرامج المتلفزة يتناسق مع ما تملك من امكانات وطاقات ، ومع ما يمكن ان توفره لها جهات الأنتاج الأخرى العاملة في هذا الحقل . وحتى اذا رغبت بعض ادارات هذه الأذاعات في وضع المخططات فانها تصطدم بافتقارها الى تقارير الأحصاء المؤشرة لأذواق الجماهير وميولها ، والمعبرة عن آرائها فيما تشهده على شاشاتها الصغيرة وما ترغب في مشاهدته . ولذلك تضاربت تصورات القائمين على ادارة هذه الأذاعات والمتعاملين فيها حول هذه المواد واضطربت التقديرات بألوانها ومستوياتها ونسبها . وقد أدى انتشار البث الملون في الأقطار العربية الى تضخم كبير في مخصصات الأنتاج ، لملاقاة حاجاتها الجديدة من البرامج العربية ، والتي لم تعمل على اعدادها والتحضير لها في مرحلة الأنتقال ، الأمر الذي اغرى الكثيرين الى دخول ميدان الأنتاج المتلفز بغية الربح . وتسابق البعض في انشاء مراكز التسجيل التجاري الملون في اليونان ومصر وانكلترا وغيرها ، وقامت شركات للانتاج والتسويق اجتذبت اليها اصحاب المال اكثر من اجتذابها لأصحاب الوعي والخبرة .

ومن الطبيعي ان ينسحب هذا المفهوم التجاري على قطاع المنفذين من العناصر العاملة في هذا الحقل ، لتطغى روح الكسب على الأبداع ، والتسرع على الحرص ، والفجاجة على النضج ، وانعكس ذلك على قسم كبير من الأنتاج العربي المتمثل بتلك الروايات الطويلة المسلسلة دون مراعاة للجودة والمضمون . ومن الطبيعي ان ترتفع الشكوى من تشابه المواضيع وخواء الحوار ومط المشاهد وتمزق الفصول ، ومن فقدان العقل وهزيمة المنطق امام الصدفة التي تندحر امامها كل قوانين الحياة .

وهكذا ، فانه ازاء الأنغماس بهذه الحمأة من الأنتاج التجاري ، والغياب الكامل لشعور المسئولية الأجتماعية والخلقية ، وازاء النقص الفاضح في انتاجنا العربي للبرامج الوثائقية والموضوعية ، وازاء اغفالنا للبرامج الموحية لأجيالنا الصاعدة ، وافتقارنا الى الأعمال الفنية النابعة من ارضنا وانفسنا ، بتنا نسائل انفسنا كيف يمكن لجم هذا التردي في انتاجنا العربي وانتشاله ، وما السبيل الى انقاذ هذا الفريق من كتابنا ومخرجينا وممثلينا وفنيينا ممن دفعوا للانسياق به في هذه الهجمة التجارية الشرسة . وكيف يمكن تلافي هذه الفروقات الشاسعة بين الأنتاج العربي والأجنبي وتركها تحز في نفس المواطن العربي اسى وحسرة وتعمل على انتقاص قدره ؟

المحاولات الجارية والنتائج

يزداد الشعور للأفادة من هذه الأداة في عديد من الأقطار العربية ، كما ان ادراك القصور والمشاكل التي تعترض التطوير آخذ في النمو . وبدأ البعض يتحسس المخاطر المترتبة على

التعثر والعجز في حلها . ولدى الجامعة العربية جهاز يجمع الاذاعات العربية في اطار ما يسمى (اتحاد الاذاعات العربية) يعقد مؤتمراته كل عام في احدى العواصم ، وتناقش فيه قضايا هذه الاداة وشؤونها.

ولا نستطيع ان نغفل المساعي الحثيثة التي حاول فيها بعض الاعضاء ان يجعل من هذا الاتحاد قوة فاعلة ، تنعكس آثارها الايجابية بشكل ملموس على معطيات هذه الاداة ، ولكن العوامل السلبية العديدة ـ وليس اهمها تلك المفارقات في سياسات الحكومات العربية التي تظهر من وقت لآخر ـ حدّت من نشاطات هذا الاتحاد بالنسبة لما هو متوقع منه . وكثيرة هي الافكار والمشاريع التي كانت تدور في اروقة الاتحاد ومؤتمراته ، والتي كانت تلهب حماسة بعض الاعضاء ، انطوت الى اوراق وملفات مطمورة في الادراج . اما ما ظهر منها الى حيز الوجود ، مثل برنامج « اللقاء العربي » ، فقد كان مولده الضعيف ينبىء عن قرب أجله وفقدان اثره .

وعلى صعيد الاذاعات العربية العامة فقد بلورت اقطار عربية ايمانها بالوحدة بانشاء اذاعات وفرت لها اجهزة ارسال قوية ، وامنت لها عناصر على مستوى رفيع من الثقافة والوعي ، ومع تقديرنا لهذه المنجزات والآثار الايجابية التي حققتها في هذا الاتجاه ، الا ان ذلك بقي محدودا لتقيد هذه الاذاعات بالانظمة الادارية التي تسود دوائر الدولة واجهزتها الاخرى ، مما لا يتفق وطبيعة العمل الذي تؤديه ، كما بقي تغطيتها للأرض العربية ضيقا ، ولم يتحرر بعضها من الصبغة الاقليمية .

ان تسابق الاقطار العربية في اقتناء هذه الاداة ، وظهور ذلك في تكاثر محطات البث فيها ورفع قوتها ومضاعفة مخصصاتها ، يرتهن انتفاعنا منها بقدر المامنا بمعطيات هذه الاداة ، وبمدى ادراكنا لقوة تأثيرها وسرعة وصولها ، وما ينطوي عليه حسن استعمالها او سونه من خير وشر .

ويتضاعف شعورنا بالمسؤولية وزيادة الحرص ، ادراكنا للضغوطات القاسية التي يتعرض لها الانسان العربي وما يجري على ساحته من احداث ومؤثرات ومتغيرات فرضتها طبيعة الظروف التي يمر بها ، وما يصوب الى صدره من سهام وما يدور حول ثروات ارضه من مؤامرات .

ونستطيع ان نتصور مدى قصورنا في استعمال هذه الاداة ، ازاء ما نلمسه من مظاهر التعثر يكاد يتناول معظم قطاعاتها ، وازاء ما نراه من هذا الغزو يجتاح اثيرنا عبر الاذاعات الاجنبية المسموعة والبرامج المتلفزة ، والعجز الفاضح في انتاجنا المرئي والسماح بالقائه في لجة الاسواق التجارية وقودا لحساباتها .

ان استعراضنا لشؤون الاذاعة وشجونها لو رغبنا ان نستطرد فيه يكشف لنا الكثير من الصور والوقائع ، يختلط فيها الأشراق مع التجهم ، والأمل مع الاسف ، تماما كما يمكن ان يحصل لنا لو استعرضنا المرافق العديدة الأخرى ، كالصناعة والزراعة والتجارة ، وكذا التعليم والقضاء والتشريع .. الخ . الا ان معطيات هذه المرافق ، يقبع مفعولها كليا او اجماليا ضمن حدود القطر الذي تنشط فيه ، بخلاف الاذاعة التي تملك من الصفات ما يجعلها المرفق الوحيد الذي تنساب معطياته عبر جميع الأقطار العربية ، فلا تقف في وجهها العوارض والسدود الموضوعة .

لذلك فان البذل في هذا المرفق يأتي في موضعه السليم ، مهما كان بالغا ، ويبدو ضئيلا اذا ما قيس بغمر الجنى يعم الوطن العربي طولا وعرضا على صعيد التقارب والتلاحم والتوحد ، مما ينعكس اثره على جميع المرافق .

ولقد حالت الظروف التي تمر بها الأمة حتى الآن ان تصل الى نموذج من نماذج التوحد في أي مرفق من مرافقها ، بحكم قابليتها للتأقلم والتسيج ، ويبقى المرفق الوحيد المؤهل لحسم الموقف واعطاء النموذج المنشود هو : الأذاعة .

هيئة اذاعية واحدة ؟

ان هذا الموقع الواحد يتمثل في هيئة اذاعية واحدة للوطن العربي ، عميقة الادراك لعظم

المسئولية التي تتصدى لها ، واعية كل الوعي للأدوات التي تتعامل معها ، مؤمنة بالوحدة عقيدة ومذهبا ، وليس لها لغير ذلك ولاء .

ولهذه الهيئة حريتها واستقلالها ، تنالها بثقة واطمئنان ، يحكمها دستور الوحدة مبلورا بوضوح الهدف وجلاء الطريق ، يضبط نشاطاتها نظام داخلي ، فهي بذلك هيئة مستقلة قائمة بذاتها ماليا واداريا ، ليس لجهة عليها دالة الا بما يخدم قضية الأمة وهدف الوحدة ، وليس لدولة عليها نفوذ الا من خلال هذا المفهوم ، ومن بينها تلك الدول والجهات التي تتبنى فكرتها وتهيء ولادتها وتغذيها بالمال وترصد لها الأرصدة .

وتعتبر هذه الهيئة المركز الأعلامي الذي يغذي الأذاعات العربية العاملة في اتجاه الوحدة ، وتتغذى منها ، كما انها تكون مهيأة للتعاون الوثيق مع الأذاعات العربية عامة .

ان اقامة مثل هذه الهيئة المستقلة التي سيكون اولى مهماتها اطلاق الأذاعة العربية الشاملة وعلاج مشاكل الأذاعة المرئية والسمعية ، وتلافي قصورها ، اذا نظرت اليها الدول المؤمنة بالوحدة نظرة موضوعية ستجد ان تبنيها لهذا المشروع واسهامها فيه لا يعدو ان يكون تعبيرا صادقا لهذا الأيمان وترجمة منطقية لمضمونه ، ويكفي دولة او اثنتان او ثلاث من هذه الدول لتجعل هذا المشروع حقيقة ماثلة ، تقدمه وقفا للأمة جميعا ، كبادرة فاعلة في طريق الوحدة ، منزهة عن أي غرض ، نبيلة نبل الغاية التي تنطوي عليها مهامها .

ومن اليسير ان نكتشف الضرورة الملحة التي يقتضيها انشاء هذه الهيئة اذا استعرضنا جوانب من النشاطات التي يمكن ان تقوم بها .

١ ـ انشاء الأذاعة العربية السمعية الشاملة

وهل هناك اجدى من اقامة اذاعة عربية شاملة قوية البث جذابة المادة . صادقة القول سليمة اللسان تنبع من مفهوم الشمول الوحدوي في الأرض والأنسان ، تعالج بموضوعية قضايا الأمة ومشاكلها في مختلف الميادين والحقول ، وتنعكس عليها مجمل المعطيات من العلوم والاجتماع والأقتصاد ، وتكون المرآة الصافية لفنون الأمة وآدابها ومنجزاتها ، كما تكون النافذة الرحبة التي تشرف منها على اركان العالم الأربعة وشعوبها .

وهذه الأذاعة يخطط لها ويعد ، لتكون بحق الأذاعة الشاملة يلوذ الى فيئها المواطن العربي من تلك الأذاعات التي تضرب حصارها عليه ذات اليمين وذات الشمال . ولذلك فهي الأجلى صوتا تؤمنه اجهزة التقوية تقام في الأماكن المدروسة لها .

وبرنامجها الذي يملأ الأثير في الليل والنهار ، غزير بمواده المشوقة ، جذابة الأطار ، منوعة المواضيع ، جليلة النفع والفائدة يعمل في اعدادها الصفوة المؤمنة برسالتها ، المميزة بمعطياتها ، حتى تتبوأ بجدارة مركز الريادة في الأذاعات العربية والأجنبية فتكون بحق « اذاعة الأمة » .

٢ ـ مؤسسة الأنتاج الأذاعي للوطن العربي

ـ تتوافر لهذه المؤسسة الامكانات المتطورة والعناصر الفنية الجيدة والادارة الواعية التي تمكنها من تأمين البرامج العربية المتلفزة بانواعها الروائية والوثائقية والتعليمية والاستعراضية ومواد الاطفال المشوقة ، يظللها المفهوم الوحدوي النابض ويكسوها باحلى حلله .

ـ اختيار افضل ما تنتجه الدوائر الأنتاجية العالمية من المواد المصورة بما يلتقي مع القيم الانسانية والخلقية ، وبما يحمل الفائدة والنفع . والعمل على انطاقها بلسان الأمة على افضل شكل .

ـ اعداد مختلف البرامج والمواد المسموعة .

ـ توزيع هذا الأنتاج على الاذاعات العربية المختلفة .

٣ ـ مؤسسة التخطيط والتنمية للوطن العربي

انه بالأضافة الى الواجبات الملقاة على عاتق هذه المؤسسة في اعداد الدراسات والأحصاءات بما يخدم الأذاعة المسموعة الشاملة ومؤسسة الأنتاج الأذاعي للوطن العربي ، فان هذه المؤسسة ستكون لها خدمات كثيرة للأذاعات العربية عامة ، وهذه بعض منها : ـ

ـ دراسة البرامج المحلية في اطار التقارب بين الأقطار العربية وابداء الملاحظات حول ما يتعارض منها ويتآلف مع هذا الاتجاه .

ـ اسداء النصح والعون والاقتراحات لرفع مستوى الاعمال التي تقدمها هذه الاذاعات في هذا الخط .

ـ استدراج الافكار والاقلام والكفاءات من مختلف الاقطار العربية لدعم هذا التوجه وتشجيع بث انتاجها من الاذاعات العربية .

ـ الاشراف على انتاج مواد اذاعية رفيعة المستوى وتنظيم برمجتها في الاذاعات العربية .

ـ اعداد دورات دراسية للعاملين في هذا الحقل وخاصة في حقول الانتاج من مؤلفين ومخرجين ومشرفين فنيين ومديري انتاج ونقاد ، تطرح فيها للمناقشة الاعمال التي اسهموا على تقديمها لخدمة التقارب ، وتعرض فيها الافكار الجديدة .

ـ اعداد الاحصائيات والابحاث المتعلقة باتجاهات الجماهير العربية وتطور اذواقها وميولها والمؤثرات الفاعلة فيها .

ـ حث الاذاعات العربية على تشجيع الانتاج في اللغة الام . واعداد الدراسات الداعمة للسان الامة محكيا ، والتعبير به من خلال المواد التي تبثها هذه الاذاعات .

ـ التعاون على صقل اللهجات العامية ، ومد الجسور فيما بينها وبين لسان الامة عن طريق الدمج والترابط والتصعيد .

ـ حض الاذاعات المرئية وتشجيعها على انطاق البرامج المتلفزة الاجنبية باللغة الام ، والعمل على استصدار القوانين ، كما هو جار في البلاد الواعية ، لمنع بث هذه البرامج ما لم تكن منطوقة بلسان الامة في المستوى اللائق .

ـ اقناع المؤسسات والدوائر الاقتصادية العربية والثقافية والاجتماعية والسياحية ورجال الاعمال العرب على الاسهام باعمال متلفزة وثائقية وروائية والصرف عليها كما هو جار في بعض الدول باشراف هذه الهيئة، تخدم غايات التقارب والتوحد .

ـ اعداد الدراسات والتحضير للافادة من الاقمار الصناعية العربية المزمع اطلاقها في نشر المواد الاذاعية المرئية والمسموعة التي تخدم هذا الخط .

ـ التحضير لانشاء الجامعة الاذاعية التي تعم الوطن العربي عبر هذه الاقمار .

* * *

ان الاعلام سلاح التوعية واليقظة والتأهب ، في السلم والحرب ، واذاعة الامة هي احدى امضى الاسلحة وافعلها في النفوس ولشد ما يخشى الاعداء ان يتصدى له انسان المنطقة بوعي وايمان وصلابة وتوحد . وهذا ما ستنبض به اذاعة الامة كل يوم . مع كل دقة من دقات قلبها تعزز روح الثقة والاقدام وتبدد ضباب الشعوذة والتضليل وتحمل الاشياء الجميلة تفتح لها ابواب الامل والاشراق .

هموم المرأة العربية

اعداد : د . رضوى عاشور

د. رضوى عاشور

ان الهموم الأساسية للغالبية العظمى من النساء في بلادنا العربية هموم تشترك فيها مع الرجل ، هموم لقمة الخبز والمسكن والملبس ، هموم الأمية وغياب الحرية والديمقراطية ، انها باختصار هموم تخص المجتمع ككل . ولكن وعينا بهذه الحقيقة يجب الا يجعلنا ننسى ان للمرأة همومها الخاصة بها كأمرأة ، وان هذه الهموم تحتاج لطرح ومناقشة وبحث عن حلول . ان الرأي القائل بأن التغير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي كفيل بتغيير وضع المرأة رغم صحته في الأساس الا انه رأي منقوص ، لأن هذا التغيير لاينعكس في أفكار الناس وانظمتهم الحياتية الا ببطء شديد . ان النضال من أجل التغيير يجب أن يتضمن في نفس الوقت النضال من أجل تحرير المرأة من ربقة آلاف السنين من التبعية للرجل ، النضال لتحرير الرجل من نظرته للمرأة بل وتحرير المرأة نفسها من نظرتها الى نفسها كمخلوق تابع وأقل .

ان الوعي يلعب دورا أساسيا في عملية التغيير هذه ، وعي المرأة بواقعها وبعلاقتها بهذا الواقع ، ماهو كائن وما يجب أن يكون . وفي نطاق ندوة محدودة من هذا النوع لا نطمح في تقديم حلول مباشرة لمشاكل المرأة بل نأمل في طرح عدد من القضايا تسهم ، ولو بشكل متواضع ، في بناء هذا الوعي . ولو لم تفلح هذه المناقشة الا في فتح ثغرة صغيرة في هذا السد العالي من تاريخ اضطهاد المرأة والذي يهدر من ورائه نهر امكاناتها وعطائها لكانت جهدا صائبا وبداية موفقة .

السيدة فريدة النقاش

في رأيي ان المرأة المثقفة تشعر بقضيتها كأمرأة اكثر من غيرها ، فكثيرا ما تشعر بانها زائدة عن الحاجة . وهذه ظاهرة بحثتها بحكم تجربتي الخاصة وتجربة مجموع الزميلات اللاتي عرفتهن .

اشتركت في الندوة السيدات :
د . نوال السعداوي (مصر) طبيبة وكاتبة .
د . لطيفة الزيات (مصر) استاذة جامعية وكاتبة .
د . رضوى عاشور (مصر) استاذة جامعية وكاتبة .
د . عواطف عبد الرحمن (مصر) استاذة جامعية وكاتبة
السيدة فتحية العسال (مصر) روائية .
السيدة فريدة النقاش (مصر) صحفية وكاتبة .
السيدة منى الدروبي (سوريا) ربة بيت وطالبة جامعية
السيدة وفية البرغوتي (فلسطين) ربة بيت .
السيدة هيام حاتم (سوريا) باحثة .

وبالرغم من أن المجتمع بحاجة الى عمل المرأة وبالرغم من اسهامها الفعلي في الانتاج سواء في الريف أو المدن غير أن اسهامها غير مرئي ولا محسوس به . ان المجتمع بكل مؤسساته يرفض الاعتراف بالوظائف الاجتماعية للمرأة ، يرفض الاعتراف بما تقدمه من عائد مرئي وملموس . وتشعر المرأة بأنها غير مرغوب فيها رغم انها ضرورية جدا لنمو المجتمع وتقدمه .

وينعكس موقف المجتمع من المرأة في عمل الروائيين والكتاب المبدعين عموما حيث نجد انها تلعب دورا ثانويا باستمرار ، أو كما قالت الدكتورة نوال السعداوي في احد كتبها نجد المرأة كائنا مفعولا به ، ذلك بالرغم من انها فاعل حقيقي في المجتمع بكل مستوياته .

ثم هناك قضية الازدواج الذي تعاني منه المرأة بين العمل خارج البيت والعمل في داخله . ان هذا الازدواج ينشأ في مجتمع لا يعترف بعمل المرأة داخل البيت كوظيفة اجتماعية ، لا يعترف بادارة البيت وتهيئة العالم النفسي المتكامل الذي يعيش في ظله أفراد الأسرة، لا يعترف بالأمومة ، لايعترف بها جميعا كوظائف اجتماعية بل كشيء مفروغ منه لا يقابله أي عائد اجتماعي .

ورغم ان العمل خطوة أساسية من أجل تحرير المرأة ، تحريرها اقتصاديا ومن ثم اجتماعيا ومعنويا واخلاقيا ، الا انه لا يحل مشكلة المرأة . ان المرأة العاملة تشعر بالغربة ، تستوي في ذلك ابنة المدينة بابنة القرية . ان المرأة في الريف وقيعان المدن تعاني احباطا واغترابا ومهانة اقتصادية واجتماعية ، فهي ان تقاضت اجرا فهذا الأجر ليس مساويا للرجل وفي معظم الأحيان ، وهذا ينطبق على الريف بشكل خاص ، لاتتقاضى اجرا وتعجز تماما عن الدفاع عن مجرد استمرارها في العيش واعالة نفسها . ولذلك فان الدعوة الى الأجر المتساوي عن العمل المتساوي دعوة هامة جدا عادة ما نهملها نحن النساء المتعلمات في المدن .

ويزيد من شعور المرأة العاملة بالغربة هذا التيار الذي بدأ يستشري في حياتنا في السنوات الأخيرة ، وهو الذي يرى ان المرأة ككل عورة كبيرة يجب سترها واعادتها الى مكانها الطبيعي في البيت لخدمة الرجل وانجاب الأولاد . هذا التيار يقاوم عمل المرأة ويرفض ان يكون لها اي دور في عملية الانتاج . ان التخلف الذي تعاني منه مجتمعاتنا العربية ينعكس بشكل مكثف في الواقع الذي تعيشه المرأة . أضف الى ذلك مجموعة من التقاليد والقيم والافكار الشائعة في العالم العربي ارتبطت بالتفسير المتخلف للدين . وهذه قضية ارجو ان نكرس لها ندوة كاملة .

أعود ثانية لما كنت أقوله عن اغتراب المرأة العاملة ازاء ارتداد المجتمع ، واغترابها ازاء وعيها بأن المنجزات السياسية التي حصلت عليها كحق الانتخاب والترشيح مثلا اصبحت مجموعة من المكتسبات الشكلية التي تشكل جزءا من الديكور العام . فمثلا يصبح من السهل جدا أن تعين امرأة وزيرة ، وأن يقال ان هذه الدولة او تلك من الدول العربية بها وزيرة . ولكن الواقع ان هناك عددا كبيرا جدا من النساء استطعن ان يصلن الى مستوى رفيع في مجالات عملهن دون أن يمكن من شغل مناصب بعينها . فالمرأة مهما ناضلت تظل غير قادرة على شغل منصب قاضية مثلا . وفي الصحافة هناك عدد كبير جدا من الصحفيات ولكن ليس هناك رئيسة تحرير لجريدة وليست هناك مديرة جامعة ... الخ . ومن هنا فان تعيين وزيرة أو ما شابه يظل في النهاية ظاهرة خادعة لأن التركيبة العامة لجماهير النساء متخلفة بل أكثر تخلفا من التخلف العام للمجتمع ككل .

ان قضية المرأة لن تحل حلا جذريا بمجرد طرح الانتقال الى الاشتراكية. فهناك عملية انتقال طويلة جدا لابد وان تخوضها النساء مع مجموع القوى المتقدمة في المجتمع لتغيير المفاهيم والتقاليد المتخلفة والقوانين والأبنية الاجتماعية القديمة حتى تستطيع المرأة ان تقول انها حققت تحريرها . وفي رأيي ان العنصر الذاتي عنصر خطير في هذه القضية بالذات . اننا جميعا مدركات لضرورة مواجهة التحدي الذي يفرضه علينا واقعنا ، التحدي العام والتحدي الخاص لكل امرأة على حدة في موقع عملها ، انه تحد نواجه فيه الرجل والمؤسسات والأفكار الرجعية والمجتمع ككل . ولكن هذا لا يكفي اذ انه على النساء المثقفات اللائي اكتسبن الوعي ان يشكلن طلائع حقيقية وقيادات لجماهير النساء .

لقد وجدت ــ بحكم ارتباطي الحزبي ان هناك نفورا عاما من النساء المثقفات من العمل في ميدان المرأة . ولهذا الأمر خطورته ، اذ انه لا بد من عمل نسائي منفصل ، لا بد من السعي بشكل ذاتي لرفع المستوى العام للمرأة ولتحريرها ليس فقط من الرجل ومن المؤسسات الاجتماعية بل ومن نفسها، لأن المرأة مضطهدة من نفسها وتعاني من شعور حاد بانها زائدة عن الحاجة وغير مرغوب فيها وليس لها فائدة . ان عمل الطلائع المثقفة من النساء لنشر الوعي بين جماهير النساء بقضية المرأة جزء لا يتجزأ من العمل السياسي العام في المجتمع .

نقطة أخيرة أريد طرحها وهي تتعلق بغياب الديمقراطية في عالمنا العربي . اننا نلاحظ انعدام الديمقراطية وانعدام الحوار بين كافة التيارات والقوى الاجتماعية والسياسية ، وهذا الأمر يخلق مناخا مؤاتيا تماما للأقوى أن يقهر الأقل قوة . ولا أستطيع ان احدد بلدا عربيا يقول ان قضية الديمقراطية قد اكتسبت فيه معالم محددة يمكن في ظلها طرح قضية المرأة طرحا حقيقيا وكاملا . ان النضال من أجل الديمقراطية في العالم العربي ككل معركة أساسية جدا لن نخطو بدونها أبدا الى الامام ، **فالمناخ الديمقراطي وحده هوالذي يمكن أن تطرح فيه قضية تحرير المرأة طرحا كاملا من كافة جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية .**

د. نوال السعداوي

لقد أثارت السيدة فريدة عددا من النقاط الهامة جدا أتفق معها في معظمها ولكني أريد أن اطرح السؤال التالي : من هو العدو الحقيقي للمرأة ؟ في رأيي أن الجرثومة الحقيقية تكمن في النظام الطبقي الأبوي . هذا ما نتعلمه من التاريخ . إذن الطرح الاشتراكي يعتبر خطوة أساسية للغاية من أجل تقدم المرأة.وأضرب مثلا على ذلك بتجربة اليمن الديمقراطية التي زرتها قريبا . لقد ذهلت فعلا من القفزة التي قفزتها المرأة اليمنية في هذه الفترة الوجيزة . ان اليمن الديمقراطية تعاني من كل مظاهر التخلف التي تعاني منها الدول العربية بل ان نصيبها من هذا التخلف اكبر من نصيب عدد من البلدان العربية الأخرى ، ومع هذا فان الطرح الاشتراكي كان يعني أيضا طرحا جادا لقضية تحرير المرأة .

وبقدر ما تبدأ المرأة على الطريق الصحيح لتحريرها حين يتقدم المجتمع ككل على طريق تحريره الفعلي ، فان انتكاسة مجتمع من المجتمعات ينعكس على وضع المرأة . وأكبر مثال على ذلك ظهور الفتيات المحجبات وانتشار هذه الدعوة في السنوات الأخيرة في مصر وارتفاع الأصوات التي تدعو الى عودة المرأة الى البيت أو الى عملها بنصف أجر .

طرح الاشتراكية اذن أساسي ولكنه يظل جزءا وليس الكل لأن القضاء على النظام الأبوي يظل ضروريا لتحرير المرأة . فهناك مجتمعات اشتراكية لا تزال المرأة فيها مقهورة داخل نظام الاسرة الأبوي ومن الممكن أن يتحرر الفلاح من الاقطاعي والعامل من رأس المال وتظل المرأة مقهورة بزوجها . اذن ازالة السلطة الأبوية داخل الاسرة ضرورية للغاية .

أضيف تعليقا بسيطا على عمل المرأة كربة بيت وكأم . ان عمل ربة البيت عمل مضن ــ وأنا لا أتكلم عن الشريحة الصغيرة التي تستعين بشغالة أو طباخة ، ولكني اتحدث عن عامة النساء في بلادنا العربية ــ اتحدث عن ربة البيت التي تعمل في بيتها منذ شروق الشمس وحتى نهاية اليوم في خدمة أولادها وزوجها . ان هذا العمل الذي تقوم به ربة البيت عمل غير منظور اقتصاديا ولا مقيم اجتماعيا ، انه عمل بدون أجر . ان ربة البيت ينظر اليها كأمرأة عاطلة في حين انها تعمل عملا مضنيا، انها تجهز الأيدي العاملة بتربيتها للأطفال ، وتعد سبل الراحة لزوجها العامل . ان فائض القيمة لعمل ربة البيت لم يقيم حتى في النظرية الماركسية . ومن هنا فمن واجب المرأة تقييم هذا العمل اقتصاديا والبحث عن حلول .. هل يكون لها أجر على عملها هذا أو ماذا ؟

تعليق آخر سريع عن موضوع الامومة . ان الأمومة مفهومة فهما خاطئا . انه موضوع شائك . وكلما تحدثنا عن المرأة وتحريرها صرخوا في وجهنا : وماذا عن دورها كأنثى وأم ؟ لقد

ادت المرأة دورها كأنثى وأم لآلاف السنين وها نحن جميعا نقوم بأدوارنا كنساء عاملات وكأمهات ، ولكن النظر الى تربية الأطفال على انه مسؤلية الأم فقط خطأ كبير . ان مسؤولية تربية الطفل مسؤلية مزدوجة لابد وأن يتحملها الأب والأم معا ، والقول بغير هذا مرفوض .

د . لطيفة الزيات

ان ماجاء في كلام السيدة فريدة النقاش والدكتورة نوال السعداوي عن غربة المرأة والعلاقة بين الطرح الاشتراكي وتحريرها هام للغاية . واريد أن اعلق على ماقيل وأعمقه من نفس المنطلق . ان المرأة تشعر بالاغتراب في عملها ، والمرأة الناجحة في عملها تعتبر ظاهرة شاذة وتحارب في نجاحها . ان المرأة التي سجلت نجاحا في مجتمعنا العربي سجلته ضد الاتجاه العام وليس بمساعدته . وتزداد هذه الحرب ضد تحقق المرأة شراسة مع تخلف المجتمع أو مع انحسار حركات التحرر الوطني والاجتماعي في البلد الذي تعيش فيه .

ان ما قالته السيدة فريدة عن عدم وصول المرأة الى مراكز قيادية في أعمال معينة يجعلني اطرح الوجه الآخر لنفس الظاهرة : كم من الفتيات العربيات كن واعدات بمستقبل باهر علميا وفنيا وادبيا وكم منهن تحطمن على صخرة المفهومات الاجتماعية المتخلفة ؟ ان المرأة تبعا لهذه المفهومات ناجحة بقدر نجاحها كزوجة ولها قيمة بقدر ماهي مرغوبة من الرجل ، أما نجاحها العلمي والعملي فلا يمثل سوى مكانة ثانوية جدا . ان هذه المفاهيم تعتبر المرأة سلعة وتعتبر المرأة متعة وتعتبر المرأة أداة للانجاب ولا تعتبرها انسانا قائما بذاته . ومن هنا فالحب والزواج يأتي في المرتبة الأولى من حياتها . أما العمل فلا يزيد عن كونه ديكورا وفي احسن الظروف مساعدة للزوج . ويوم تتغير هذه المفاهيم ويصبح العمل هو القيمة الأولى في حياة المرأة كما هو في الحياة للرجل ــ وهذا لن يحدث الا من خلال الاشتراكية ــ يوم يحدث هذا يبدأ تحرر المرأة . وأتوقف هنا لأقول : ان النساء مسؤولات بدرجة من الدرجات عما يحدث لهن حين يخضعن للصورة التي يرسمها الرجل لهن . ان المرأة في تزينها مثلا تعمق وجودها كسلعة وتعمق وجودها كأداة متعة .

وفي اعتقادي ان الطريق الوحيد المفتوح للمرأة لكسب التحرر الحقيقي هو ارتباطها بقضايا وطنها النضالية ، وان تعي دائما ان عالمها لاينتهي عند حدود بيتها ، وان معنى ان ينتهي عالمها عند حدود بيتها هو أن تسجن نفسها بيدها . **ان كل مكاسب المرأة العربية كانت نتاجا لارتباطها بنضال امتها وأضرب مثلا على ذلك بالمرأة المصرية والمرأة الفلسطينية . فالمرأة المصرية حصلت على عدة مكاسب من أهمها حقها في التعليم بمشاركتها في ثورة ١٩١٩ . وحتى عام ١٩٦٨ كانت المرأة الفلسطينية تناضل من أجل اشتراكها بشكل أكبر في الكفاح المسلح من أجل تحرير ارضها . وكانت المرأة تقبل للقيام بعمليات عسكرية في بعض فصائل الثورة دون غيرها فكانت منظمات في البداية ترفض اشتراك المرأة في المعارك، ولكن اليوم استطاعت المرأة الفلسطينية من خلال التصاعد الثوري أن تفرض وجودها وأن تشارك في الثورة . ودلال المغربي الفدائية الفلسطينية التي قادت عملية الشهيد كمال عدوان في تل ابيب مؤخرا نموذج مضيء لنضال المرأة الفلسطينية والعربية عموما .**

اكرر اذن انه بمدى ما تكسر المرأة جدران عزلتها في بيتها وتخرج من سجن واقعها اليومي المغلق وتخرج الى العالم الواسع وترتبط بقضايا وطنها بقدر ما تبدأ الطريق الصحيح نحو تحريرها .

تعليق أخير بالنسبة لما قالته الدكتورة رضوى وكررته السيدة فريدة من أن الاشتراكية رغم كونها ضرورية لتحرر المرأة الا أن تحققها لا يكفي لتحرير المرأة . أنا اتفق جزئيا وأختلف جزئيا مع هذا الكلام ، أقول ان مشاركة المرأة باعداد اكبر وقيامها بدور اساسي في النضال من أجل التحرر يسهم في الاسراع بعملية تحررها . ان وضع المرأة اثناء الثورة السوفياتية يختلف تماما عن وضعها في الثورة الكوبية او في الحرب الفييتنامية.لقد اصبح للمرأة دور كبير . ونحن نجد الآن مثلا في كوبا ان هناك وعيا بأن المرأة مستغلة مرتين وأن ثورتها يجب أن تكون ثورتين .

د . رضوى عاشور

مازلت أعتقد ان واقع التبعية الذي عاشته المرأة لآلاف السنوات قد ترك ندوبا عميقة في تكوينها النفسي . ومن المؤكد ان اشتراكها في حركة التحرر الوطني سوف يساعدها على التخلص من بعض هذه الآثار . ولكن يظل ان المرأة بحاجة لمعرفة ذاتها ومواجهة هذه الذات،خاصة فيما يتعلق باحساسها بالدونية . ان المرأة لا تشعر فقط انها اقل من الرجل ، بل انها تتبنى صورة المجتمع الذكوري لها . انها كالمستعمر (بالفتح) الذي يتبنى صورة سيده له . فمن الشائع جدا ان تقول امرأة معبرة عن اعجابها بامرأة أخرى « فلانة راجل ! » او أن تبدي احتقارها لرجل ما بنعته بأنه امرأة . وهذا دال فعلا .

ومن الاشياء الدالة أيضا علاقة المرأة بأبنائها ذكورا وأناثا . ان المرأة تفضل أن ترزق بذكر لانها تعرف ان وجودها يكتسب شرعية وقيمة من خلال هذا الطفل الذي سوف يصبح رجلا . انها بلا مكان في هذا العالم ، او كما قالت السيدة فريدة « زائدة عن الحاجة » وانجابها لذكر يعطيها مكانا . ان احلامها وطموحاتها تتحقق من خلال هذا الابن الذكر . وفي المقابل تشعر الأم بأشياء مختلفة تماما تجاه الابنة ، مزيج من الضيق والتعاطف والأحاسيس الأخرى تجاه مثيلتها التي سوف تشاركها عالم الاحباط والهزيمة .

علاقة المرأة المتوترة بجسدها أيضا من الأشياء الدالة في هذا الاتجاه . انها تفخر بقدرتها على الانجاب والولادة وهي في نفس الوقت تكره جسدها المرتبط بالدونية . والعديد من النساء يتمنين بوعي أو بدون وعي لو أنهن خلقن رجالا . وليس هذا الأمر صفة مرضية في المرأة،بل انه نابع من وعيها بطبيعة وعلاقات القوى في المجتمع الذي تعيش فيه : انها تعي ان الذكورة تعني امكانية القوة والسيطرة والتحقق،وان الأنوثة مرتبطة بالدونية والهزيمة . ان حلم المرأة بأن تكون رجلا يرجع لأسباب اجتماعية بحتة .

وفي تصوري ان تحرر المرأة لا يحتاج فقط الى تغيير هذه الأسباب الاجتماعية ولكن الى معالجة ما ترتب عليها لآلاف السنوات . وهذا يعني أيضا ان تتصالح المرأة مع وضعها المختلف والمتميز كأمرأة، ان تتصالح مع جسدها ومع قدراتها البيولوجية ، ان تقبل اختلافها وتحب هذا الاختلاف ــ مادام لن يستغل اجتماعيا لاعاقتها ــ وتنطلق منه .

السيدة هيام حاتم

في اعتقادي أن قضية تحرير المرأة هي أيضا قضية تحرير الرجل ، انها قضية تغيير البنية الاقتصادية الاجتماعية لمجتمعات متخلفة تقوم على علاقة السيادة والعبودية . ان حياة المرأة في ظل هذه الاوضاع الاجتماعية التي تقهرها أصابها بخصاء فكري وجسدي وشوه صورتها عن ذاتها وعن جسدها ، وجعلها تستخدم « ميكانيزمات » دفاعية للتخلص من القهر الواقع عليها ولتثبت وجودها . فهي حينا تضفي الطابع المثالي على جسدها وعلى وظائفها الانثوية،وتعظم دورها الأمومي،أو تتفانى في خدمة الاسرة والبيت، أو تتملك الأبناء او تهتم بجسدها وتستخدمه كسلعة أمام الآخرين . ومن هنا فاننا نجد ان المرأة دائما ما تعاني من الاغتراب ، اغتراب اقتصادي حين تعمل ولا تؤجر على عملها ، ولا تجد حتى الاعتراف الأدبي بهذا العمل ، اغتراب جنسي حين يحدث انفصال بينها وبين جسدها كموضوع تعتبره اداة للمتعة تتمسك به وترفضه في نفس الوقت . أما أخطر اغتراب يقع على المرأة ، فهو الاغتراب العقائدي . فكما قالت الدكتورة رضوى ان المرأة تتمثل بشكل واع وغير واع لنظرة المجتمع الذكوري لها وتشعر بالدونية .

والمرأة العاملة أيضا تعاني من العديد من المشاكل النفسية الناتجة عن الضغوط الاجتماعية التي تواجهها . فهي تضطر للايفاء بالتزاماتها التقليدية في البيت الى جانب عملها في الخارج . والأم العاملة لاتجد دور الحضانة المناسبة . ان المرأة العاملة تظل ممزقة بين دورها كأمرأة عاملة ودورها

الذي يتوقعه منها المجتمع الذكوري كأم وربة بيت . وهي تشعر دائما بعدم التوازن والتمزق بين خروجها الى العمل وتحررها ومن الرواسب المتراكمة داخلها .

ورغم ماتواجههالمرأة العاملة من أعباء ومسؤوليات ومخاوف الا أن النزول الى العمل يظل ضرورة لاجدال حولها . ان تحرر المرأة مرهون بتعليمها وخروجها للعمل . ولا ننسى ان نسبة الأمية في مجتمعاتنا تزيد عن ٧٠٪ وان محو هذه الأمية خطوة أساسية على طريق تحرير المرأة وتحرير المجتمع ككل .

ان المشاكل التي تعاني منها المرأة نتاج وانعكاس للبنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الذي تعيش فيهٔ ، وحل هذه المشاكل يحتم تغيير هذه البنية . وأنا اتفق مع الأخوات في ان الحل الاشتراكي ضروري لذلك .

د . عواطف عبد الرحمن

أتفق مع الأخوات في أن تغيير الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ضروري لتحرير المرأة ، كما هو ضروري لتحرير الرجل . ولكن هذا وحده لا يكفي حيث أن هناك خصوصية للواقع النسائي في العالم العربي . وتتجسد هذه الخصوصية في مجموعة من القيم المتخلفة الخاصة بالمرأة . ومن أمثلة ذلك التفسير الرجعي للدين الذي يعتبر أحد المعوقات الأساسية في حركة التحرر العربي ، ليس الدين ولكن التفسير الرجعي للدين . يعني مثلا حتى القرن العاشر والحادي عشر قام الدين الاسلامي في هذه الأمة بدور كبير كقوة للتغيير الاجتماعي والحضاري . ولكن حين بدأت المجتمعات العربية تدخل في مرحلة الانحطاط بدأ تفسير الدين يتجه الى تركيبة غيبية قدرية تحاول سلب الانسان العربي ارادته وقدرته على التغيير وثقته في نفسه . وفي حين يعتبر التفسير الرجعي للدين أحد المعوقات الرئيسية لحركة المرأة العربية ، يمكن ان يكون التفسير المتقدم سندا لكفاحها . ففي الجزائر مثلا كان الدين يلعب دورا تقدميا في معركة التحرر واستطاعت المرأة الجزائرية ابان فترة الثورة ان تقفز قفزة كيفية من مجتمع الحريم الذي لا تشارك بأي شكل من الاشكال في حركة المجتمع الى المناضلة بكل المقاييس والأبعاد .

وبالاضافة الى التفسير الرجعي للدين هناك مجموعة من المفاهيم المستمدة من المجتمعات الجاهلية الخاصة بشرف البنت .. الخ . والتي تشكل قيودا على حركة المرأة وتفاعلها مع المجتمع . ونحن ان قارنّا بين المجتمعات الافريقية والمجتمعات العربية ، وكلها تعاني بدرجات متفاوتة من التخلف ، سوف نجد ان التراث العربي يشكل قيدا اكبر على حركة المرأة ، وسوف نجد ان المرأة الافريقية استطاعت ان تتحرر بشكل أكبر وان تنطلق وان تشارك في مواقع الانتاج وفي العمل السياسي . ويتضح هذا الامر بشكل اكبر في البلدان التي حققت استقلالها عن طريق الكفاح المسلح كأنجولا وغينيا بيساو وموزامبيق والتي انتهجت خطا اشتراكيا . في هذه البلدان شاركت المرأة في الكفاح المسلح وفي كل ميادين العمل ، بما في ذلك القيادة الحزبية . ولو عقدنا مقارنة سريعة بين وضع المرأة في هذه الحركات التحريرية بوضع المرأة في المقاومة الفلسطينية ، التي هي طليعة الثورة العربية ، سوف نجد ان هناك أجنحة من الثورة كانت تتحفظ في البداية على اشراك المرأة وذلك ادراكا منها بان المجتمع العربي ، الرجل العربي ، لايزال محملا بكثير من الرواسب المتخلفة التي تجعله لا يقبل تحرر المرأة بسهولة .

ورغم ان نساء الطبقة الوسطى في البلاد العربية والتي اتيح لهن قدر من التعليم يتمكن احيانا من رفض الاوضاع التي تقهرهن سواء في الاسرة أو في العمل الا انهن لا يمثلن القاعدة العريضة من النساء . المرأة العربية مشلولة في حركتها لا تستطيع أن تختار من تحب أو من تتزوج أو من تصادق ، لاتستطيع ان تختار الطريقة التي تحيا بها . وهذا يكشف عن طبيعة المجتمع العربي المقهور اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا والذي ورث مجموعة من المفاهيم الفكرية والحضارية التي تعوق حركة الانسان العربي عموما والمرأة بشكل خاص .

والى جانب مسألة التفسير الرجعي للأديان ، والمفاهيم السلفية التي تنتشر في المجتمع في حالات الانتكاس،هناك نقطة ثالثة هي : قانون الأحوال الشخصية . ان أي نظرة سريعة على قوانين الاحوال الشخصية في البلدان العربية سوف يكشف عن تناقض كلي وجزئي مع الامتيازات التي حصلت عليها المرأة.قانون الأحوال الشخصية في مصر مثلا لا يصلح الا لانسانة تنتمي الى عصر الحريم ، انسانة لم تحصل على حق التعليم ولا حق العمل ولا حق المشاركة السياسية . قانون الاحوال الشخصية في تونس واليمن الديمقراطية والجزائر أكثر تقدما . وقانون الاحوال الشخصية يحرم المرأة من حقها في الانفصال ، العصمة دائما في يد الرجل وله الحق في الزواج بأكثر من واحدة وله الحق في حضانة الأولاد . انها تلد وتربي وتهب حياتها لأولادها ثم تمنع من حق الحضانة . كل هذا القهر يؤدي بالمرأة لسلوك مرضي دفاعا عن وجودها وكيانها . تركز على انوثتها ودورها كأم أكثر من اللازم أو ترفض دورها كأنثى وأم . تشعر بالمنلة والمهانة والتمرد أو تتقبل أنها مخلوق أقل من الرجل وتتبنى فكر قاهريها وتردد أقوالهم وتدافع عن اضطهادهم لها .

ان المرأة محرومة من حق الاختيار ، انها لا تستطيع أن تذهب الى الرجل الذي تعجب به وتقول له « أريدك زوجا». نادرا ما يحدث هذا . والمرأة في مصر لا تسافر الا بانن الزوج ، وقد تكون وزيرة أو أستاذة جامعية . ان هذا المجتمع المضلل المتناقض الذي يمزق نفسه من خلال قوانينه يمنحها حق العمل في منصب قيادي ويسلب منها حريتها بالاف الوسائل الأخرى .

وأجهزة الاعلام في العالم العربي تكرس واقع المرأة المتخلف وتبتعد عن طرح المشاكل الحقيقية للمرأة . لقد قمنا بدراسة في العام الماضي لتناول أجهزة الاعلام العربية لصورة المرأة.وتناولت دراستنا أربع دول عربية هي مصر والسودان والكويت والعراق . وكان الهدف من دراستنا هو معرفة الى أي مدى يتفق ما تنشره هذه الأجهزة عن نشاطات المرأة مع واقعها . ولقد وجدنا في مجال الصحافة مثلا ــ الذي قمت أنا بدراسته ــ ان معظم الصحف تركز على الدور التقليدي للمرأة كأنثى وأم مهمتها امتاع الرجل والانجاب . التركيز كل التركيز على كيف ترضي المرأة زوجها ، كيف تتزين وتتجمل . ويتحول واقع المرأة بكل ما فيه من هموم وتطلعات الى كيف تحافظ على رشاقة ساقيها وكيف تحمي بشرتها من البثور .. الخ . أما قوانين العمل المجحفة بالمرأة وغيرها من المشاكل التي تواجهها فهي لا تحظى بأي اهتمام .

ان المرأة في المجتمع الطبقي الأبوي ، كما قالت نوال ، تعاني قهرين واضطهادين . وأقول ان المرأة العربية يجب ان تقوم بأربع ثورات : ثورة مع الرجل ضد المجتمع القائم ومن أجل تغييره ، وثورة في مواجهة الرجل ليتغير الرجل ، وثورة ضد ذاتها لتغير ذاتها ، وأخيرا ثورة من أجل خلق الأساس الفكري والانساني الجديد للتعامل في ظل مجتمع يساوي بين جميع الأفراد وبين الجنسين على وجه الخصوص .

ان الطلائع المثقفة من النساء لم تستطع حتى الان أن تأخذ بيد الجموع العريضة من النساء والتي تعتبر كما مهملا . هذه الجموع التي يأكلها الصراع والتخلف والاحباط والتي تظل تدور في حلقات مفرغة تطلب الخلاص والخلاص لن يأتي لمن يدور في حلقة أغلقها على نفسه . الخلاص يأتي فقط بتحطيم هذه الدوائر وبأن تمتد الأيدي الى كل امرأة أو رجل يحمل نفس الفكر المتقدم وتكون البداية وتكون الخطوات الأولى في رحلة الألف ميل .

د . رضوى عاشور

الآن ونحن نحاول أن نعرض لبعض المشاكل التي تواجه المرأة العربية سنستمع لثلاث زميلات سوف يتحدثن الينا من خلال تجاربهن الشخصية ، وهذا هام فعلا لأنه يكمل الصورة ويعطيها ملامحها الانسانية ذات الخصوصية .

السيدة منى الدروبي

أعتقد ان وضعي الاجتماعي وظروفي البيئية تنطبق على عدد كبير من السيدات العربيات اللائي ينتمين الى الطبقة الوسطى . لقد وجدن انفسهن زوجات وأمهات في سن مبكرة ، قبل أن يعين معنى الزواج أو الأمومة ، وكن ملزمات بالقيام بواجباتهن الزوجية والاعتناء بأولادهن بدون أي خبرة سابقة في الحياة . الكثيرات نجحن في تربية الأولاد وفي التفاهم مع ازواجهن والبعض الآخر اصابه الفشل وأنضجته هذه التجربة المبكرة . وسرعان ما واجهن ، التي نجحت في زواجها والتي فشلت على حد سواء ، بالضيق والفراغ والشعور بالاحباط والضياع : كبر الأولاد واستقروا بدراستهم وخفت المسؤوليات ووجدت المرأة نفسها في هذا الحال كالمتاع في سن مبكرة تقوم بأعمال بيتها ومتطلباتها اليومية باكراه واحساس بالعبودية . وهي ان حاولت ان تشغل فراغها باللجوء الى صديقاتها وجدت عندهن نفس المشكلة .

كانت اول محاولة لي للتغلب على هذه المشكلة التحاقي بمعهد للتفصيل والخياطة ففشلت فشلا « ذريعا». ثم التحقت بمعهد لدراسة اللغة الانجليزية لأساعد أولادي بدراستهم ، وعندها تبلورت في ذهني فكرة الاستمرار في الدراسة . ولقد احسست بالرغبة الجارفة بتعويض ما فاتني . ولاشك ان اتخاذ هذا القرار بالعودة للدراسة لم يكن بالشيء السهل. فلقد شعرت انه أول قرار اتخذه بحرية كاملة واستطيع من خلاله تأكيد ذاتي وشخصيتي . استغللت فرصة دراسة ولدي الأكبر للثانوية العامة وقررت ان اشاركه المجهود . وكانت رحلة طويلة انتابتني خلالها مشاعر مختلفة من الطموح واليأس ، والخوف والاقدام ، الى أن استطعت أن اتخطى هذه المرحلة بنجاح والحمد لله وكنت قدوة لأولادي . حصلت على مجموع ٨٩٪ وكانت فرحتي لاتقدر لحصول ابني على ٩٦٪ .

لقد كان لهذه الخطوة ، اقصد قراري بالعودة للدراسة ، أعظم الأثر في حياتي . لقد اعطتني نظرة أوسع وأعمق وأصبحت اقرب ما اكون لمشاكل أولادي الدراسية . والآن أنا طالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب جامعة عين شمس اعتز بصحبة زملائي وزميلاتي الذين بعمر أولادي . طبعا زادت مسؤلياتي، وكثيرا ما أشعر بارهاق جسدي وفكري وأجد اني بحاجة لاتباع نظام دقيق في حياتي للايفاء بالتزاماتي في الجامعة وفي البيت . ومع هذا فانا لا أندم على هذه الخطوة . أشعر بقدر من التحقق ، ولكني لا أشعر بالرضى الكامل. فلم استطع حتى الآن أن اكون عضوا فاعلا في المجتمع . وهنا اتوقف ، ولم يبق على انتهائي من دراستي الجامعية الا سنة واحدة ، اتوقف وأسال : ما العمل ؟ هل أعود لسابق عهدي من الاحساس بالضيق والضياع ؟ هذا السؤال لا يلح علي وحدي بل وعلى الكثيرات من أمثالي . ما العمل مع مراعاة أن الأزواج لا يتقبلون كل أنواع العمل .

السيدة وفية البرغوثي

ذكرت الاخوات عدة مشاكل تعاني منها المرأة العربية ، المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، علاقة المرأة بالرجل وبنفسها .. الخ . وأنا كفلسطينية لا أستطيع القول بان هذه الهموم او المشاكل لا تهمني او انها غير موجودة في مجتمعنا الفلسطيني . ولكن ، بهذه الفترة بالذات وفي الظروف التي تمر بها ثورتنا وشعبنا الفلسطيني ، أقول ان الهموم الخاصة للانسان تتضاءل الى جانب الهموم العامة . فأنا كربة بيت متوسطة التعليم وأم لثلاثة أولاد أحمل نفس هموم الرجل والطفل الفلسطيني : حرب الابادة التي نتعرض لها كشعب وثورة من قبل المؤسسة العسكرية الصهيونية والصمت العربي في مواجهة ذلك .

أشعر أن مسؤلياتي كأم وربة بيت مسؤليات جسيمة . فنحن الفلسطينيون في مجتمعات الغربة نعيش حياة غير مستقرة ، نشعر بالحصار بشكل أو باخر ، من هذا النظام أو ذاك . هناك الاذلال بالوقوف أمام وكالات الغوث استجداء للطحين ولقمة العيش ، وهناك الاذلال بالوقوف أمام الدوائر الحكومية استجداء للاقامة . كله ذل يعاني منه الرجل الفلسطيني والمرأة الفلسطينية . لن أطيل في هذا الموضوع فهو معروف للجميع . اذن علي كأمرأة فلسطينية ، أم وربة بيت ، أن اتعايش مع هذه

الصعوبات وأن احتفظ بفلسطينيتي في مواجهتها وأن أجعل بيتي في الغربة بيتا فلسطينيا ينشأ فيه الأولاد فلسطينيين .

بدأت أشعر بهذه المسؤولية بشكل أكبر حين حضرنا الى القاهرة للاقامة . فمن ناحية كنت اريد ان اربي أولادي كفلسطينيين . أن أجعلهم يرتبطون بفلسطينيتهم ولكني من ناحية أخرى كنت أريدهم أن يحترموا المجتمع الذي يعيشون فيه . كنت أبذل كل ما في وسعي لتحقيق ذلك . أصر على اللهجة الفلسطينية في البيت ، الطعام الفلسطيني ، العادات الفلسطينية . ورغم ان أولادي لم يعيشوا في فلسطين الا فترات بسيطة الا انهم مرتبطين بها ارتباطا كبيرا . وفي سياق حنينهم الى وطنهم يتكلمون احيانا اللهجة القروية التي لا اتكلمها حتى انا وأبوهم ، يتكلمون لهجة اجدادهم .

ورغم هذا فأنا أشعر ان لدى طاقة غير مستغلة ، واني يمكن أن أستخدم هذه الطاقة في خدمة وطني ، اليوم نفسي واشعر بالتقصير أحيانا،واحيانا أقول انها ليست مسؤوليتي كفرد بل هو فقر المؤسسات الفلسطينية في الغربة . حين أذهب الى وطني بتصريح في الصيف لمدة شهر أو شهرين ورغم الاحتلال البغيض أشعر بالانتماء وأشعر انه بالامكان أن أكون مفيدة . هناك كل انسان يحاول أن يكون منتجا ومفيدا وسوف اعطي مثلا على جهد ذاتي قامت به المرأة في منطقة البيرة ورام الله التي انا منها . فهناك جمعية « انعاش الاسرة » التي تأسست سنة ١٩٦٥ على يد عدد من النساء الفلسطينيات بهدف رفع مستوى المرأة اقتصاديا واجتماعيا . وبعد حرب ١٩٦٧ بدأت الجمعية تتحمل جزءا من المسؤوليات الوطنية المترتبة على الاحتلال . فكان من اعمالها أيواء أطفال من ابناء الشهداء وأبناء القرى التي تهدمت ونزح أهلها الى البيرة ورام الله . ثم فتحت الجمعية باب التبني الذي يتم بالصرف على المتبنى وهو في حضانة أمه أو أقرب المقربين اليه،وعادة ما يكفي المبلغ المرسل لاعالة اسرة المتبنى بكاملها في القرية . كما عملت الجمعية على محو الأمية وتعليم الفتيات الخياطة والتطريز ، ولقد فتحت مراكز في القرى للتغلب على التقاليد القروية التي تمنع الفتاة من النزول الى المدينة للتعلم .ولقد ساعد هذا الامر العديد من القرويات على التحول الى عناصر منتجة اقتصاديا في الاسرة . كذلك فتحت الجمعية مصنعا للقمصان والبيجامات لتشغيل الايدي العاملة ومصنعا للحلوى والأدوات المنزلية واهتمت بتجميع التراث الشعبي الفلسطيني الذي يسرقه الاسرائيليون ويدعونه لانفسهم ، وبدأت تصدر مجلة للتراث . ومن آخر أعمال الجمعية انشاء روضة أطفال نموذجية لمساعدة المرأة العاملة .

هذا نموذج لجهد ذاتي للمرأة بدأ بها ويهدف الى منفعتها ، لقد بدأ بسيطا ومتواضعا ولكنه أخذ ينمو ويزداد فعالية في كل البيئة المحيطة . ان رئيسة هذه الجمعية وكل العاملات فيها نموذج مشرف يدعو الى كل تقدير .

لقد أردت أن أعطي هذا المثل من واقعي المباشر . أما دور الطليعة النسائية في الثورة الفلسطينية ، دورها كفدائية تحمل السلاح ودورها في المظاهرات والاعتصامات وصمودها في السجون والمعتقلات ، فهو دور بطولي لم أرد أن أتكلم عنه لأنه غني عن التعريف .

السيدة فتحية العسال

أنا امرأة كأي امرأة أخرى ولذلك سوف أعرض للأمر من خلال تجربتي الشخصية . لقد تفتحت عيني ووعيت لأجد اني أعد لشيء واحد في هذا الوجود هو الرجل . تركت المدرسة وأنا في العاشرة من عمري استعدادا لمقدم هذا الرجل . كان كل تفكيري مركزا في شيء واحد : من يكون هذا الرجل الذي استعد له كل هذا الاستعداد ؟ وهل يستحقه ؟ طبعا كان الأمر نكبة على هذا الرجل حين تزوج مني، لأني كنت اطلب منه المستحيل « لقد انتظرتك العمر كله .. انن اعطني .. » فاذا بي أجد انه لم يأت ليعطي شيئا بل ليأخذ ! فأنا أقدم له كل ما يسعده كأنثى وكربة بيت ثم أنجبت له أطفالا له هو شخصيا ، يحملون اسمه وينتسبون اليه .

وكنت محظوظة من حيث ان الرجل الذي ارتبطت به كان من هذا النوع من البشر الذي يريد أن يكون انسانا بالمعنى الفعلي للكلمة،ولأنه كذلك فقد حملني مسؤولية ان أكون انسانة،ومن هنا توقفت وتساءلت عن علاقتي بما يدور حولي ودوري فيه . لقد تركت المدرسة وأنا في العاشرة،أي انني بالكاد كنت أقرأ الجريدة اليومية . وكان هذا الامر امتحانا حقيقيا لي . وبدأت اتعلم من البداية . ثم بدأت أقرأ وأكتب.ولم أفكر في الحصول على شهادات لأني شعرت ان التعليم أكبر من ذلك،واني تجاوزت مسألة الشكليات . لقد بدأت اتعلم ليس فقط من الكتب بل من الشارع . نزلت الى الشارع . وفي الشارع وجدت أن مشكلة الامية من المشاكل الاساسية جدا في حياة المرأة،فكان أول عمل قمت به هو مدرسة لمحو الامية في حي شعبي . وبدأت بتعليم بائعات الخضر والفاكهة الخ . وكنت أنا أدعو النساء للتعلم.ولكني وجدت امرأة مقبلة على التعليم بحماس شديد جدا ، وحين سألتها عن السبب قالت انها واجهت مشكلة وقررت من يومها أن تتعلم القراءة والكتابة . والمشكلة ان زوجها قال لها انه كتب لها بيت ملك باسمها وطلب منها أن تبصم على الورقة الخاصة بذلك والتي اتضح فيما بعد انها ورقة طلاقها ونزع كافة حقوقها الشرعية .

اذن الجهل أيضا في مصلحة الرجل . هنا أيضا توقفت .

هذا الكيان المسمى بالرجل هل خلق بهذا الشكل ام ان هناك نظاما يحتم عليه ان يكون بهذا الشكل تماما،كما يحتم على المرأة أن تكون بذلك الشكل ؟ وبذلك توقفت عند النظام فوجدت أن المسألة تخرج من نطاق الخاص ، وتخرج من نطاق صراع بين الرجل والمرأة وتدخل في نطاق العام ، نطاق صراع الانسان المظلوم مع الظالم الذي يظلمه .

لقد توصلت الى هذه الامور باحساسي اولا قبل أن اتوصل اليها بفكري لاني لم اكن قد وصلت الى هذا الحد من النضوج الفكري .ولكني توصلت باحساسي لنفس الكلام الذي وجدت الدكتورة لطيفة تقوله من انه **لاتوجد امراة متحررة إلا في مجتمع متحرر ، وتحت هذه الكلمات اضع عدة خطوط لانه ليس هناك مجتمع متحرر على الاطلاق بدون نضال . والنضال تشارك فيه المرأة والرجل . فلا يمكن ان يناضل الرجل من اجل التحرر والمرأة تنتظره في البيت حتى ينتهي من ذلك . انها تشارك في الكفاح من اجل التحرير وتتحرر في غمار كفاحها.والمرأة الفيتنامية والمرأة الجزائرية والمرأة الفلسطينية يقدمن لنا النموذج .**

فالمرأة الفييتنامية مثلا خرجت للكفاح لماذا ؟ لأن هناك استعمارا وما الذي يريده الاستعمار ؟ ومن هنا يبدأ طريق المعرفة بالعالم المحيط وبمكانها فيه وبدورها في حركة التحرر الوطني هذا أولا . ثانيا وهي نقطة هامة وتلح علي كثيرا،هي معرفة الاسباب التي تعوق حركة المرأة . نحن نتكلم دائما عن النتائج ولكن من المهم جدا ان نبحث الأسباب . ان على المرأة في كل البلاد العربية ان تتعرف على مشاكلها الصغيرة ومعوقات حركتها كامرأة . وهذا الامر يسير جنبا الى جنب مع النضال العام في المجتمع الذي تعيش فيه . لقد تأثرت كثيرا بكلمة السيدة وفية ، تأثرت بفكرة كفاحها من اجل اشياء صغيرة هي في واقع الامر عظيمة جدا . فمحاولتها ان تربط ابناءها بلهجتهم الفلسطينية وتقاليدهم الوطنية هي محاولة لربطهم بالأرض ، وبالتالي غرس الاحساس بضرورة تحريرها في نفوسهم . أنا امرأة واختلف مع اي امرأة تريد ان تكون رجلا او تتشبه بالرجل . انا امرأة وأنا سعيدة بذلك ، ولابد أن اكون مرتبطة بتكويني الخاص وان ادافع عنه . ان المجتمع فيه الرجل والمرأة كلاهما انسان متكامل ولكل منهما حقوقه ومطالبه . وفي اعتقادي ان المساواة بين الرجل والمرأة لن تكون هي المشكلة في المستقبل ، ولكن المشكلة ستكون كيفية بناء الرجل والمرأة معا لمجتمع الغد .

أنهي كلمتي بطلب تكوين شكل تنظيمي ما للمرأة في البلاد العربية والبدء في مناقشة امكانية هذا . فلن يحرر المرأة غير المرأة،والحق لا يعطى بل ينتزع . طبعا نحن نعرف هذا الكلام ، ونعرف أننا لو لم ننتزع حقوقنا من آبائنا وازواجنا وحتى من اولادنا لبقينا في اماكننا بلا حراك . نريد ان يكون لنا تجمعنا النسائي لأن مشاكلنا مختلفة عن مشاكل الرجل ، وهي تريد مناقشة وبحث عن حلول .

د . نوال السعداوي

لقد تعرضنا للعديد من النقاط الهامة الخاصة بقضية المرأة : اشرنا للقهر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تعاني منه المرأة، أشرنا لاغترابها وأشرنا الى ضرورة أن تعيد المرأة النظر في نظرتها الى نفسها . الحقيقة ان كل هذه النقاط تحتاج الى بحث ودراسة وعلينا أن نبدأ في تنظيم أنفسنا من أجل ذلك . ان موضوع المرأة ينظر له في منطقتنا العربية على انه موضوع ثانوي . وحتى الاشتراكيون يفشلون في كثير من الأحيان في فهم وضع المرأة وأعطاء قضيتها الاهتمام الضروري . وعلينا نحن كنساء أن نقوم بذلك في شكل تنظيم نسائي ، ولكنه ليس كالتنظيمات النسائية الحالية أو الجمعيات الخيرية ذات النشاط الاجتماعي البحت. ان هذا التنظيم لابد أن يقوم على أسس سياسية واضحة ومحددة . ان الكتابة وحدها لا تكفي ، صحيح انها شيء هام وأنا شخصيا قمت بالكتابة في موضوع المرأة طوال السنوات الماضية ، ايمانا مني باننا بحاجة للأسس الفكرية ونحتاج لتنوير الناس في هذا الاتجاه . ولكن نحن في حاجة لأكثر من الكتابة. نحن في حاجة للعمل بين جماهير النساء ، نحن في حاجة للكشف المستمر لتناقضات المجتمع التي تعاني منها المرأة، في حاجة لأن نكشف باستمرار ان تشدق المجتمع بالدين يخفي وراءه نظرة غير اخلاقية للمرأة . ففي الفترة الاخيرة عاد الحجاب الى الظهور بين بعض الفتيات الجامعيات، وعلت أصوات تدعو لعودة المرأة الى البيت في نفس الوقت الذي زاد فيه الفساد الاخلاقي . ازدادت اللهجة الدينية حدة في الوقت الذي يقدم التليفزيون يوميا اعلانات عارية فاضحة تستخدم جسد المرأة كسلعة وموضوع للجنس . علينا أن نكشف كل هذا ونقاومه . سوف يقال : « ما الذي تريده هاتيك النسوة ، انهن يردن الاباحية والفوضى ! » هذا ما يقال دائما . ولكننا نريد أن نتجمع لمحاربة الزيف واللااخلاق ، نريد اخلاقا حقيقية .

باختصار نحن بحاجة لشيئين ، الوضوح الفكري ، أن نفهم أسباب قهر المرأة واعراضه وكيفية معالجته، والشيء الثاني تنظيم سياسي قوي للنساء يعمل من أجل القضاء على النظام الطبقي الأبوي الذي يقهر المرأة .

د . رضوى عاشور

لي تعليق صغير على كلام الدكتورة نوال بشأن تنظيم نسائي . في تصوري ان البدء بمجموعات عمل صغيرة تبدأ بالبحث يمكن أن يكون أكثر فعالية . ففي أوروبا وأمريكا مثلا هناك العديد من المصادر التي صدرت ولا تزال تصدر تبحث في واقع المرأة ، في حين أننا نفتقد لمثل هذه الدراسات ، نوال السعداوي وقليلات جدا غيرها بدأن في ارتياد هذا المجال في البحث، ولكن يظل ان واقع المرأة العربية غير مدروس ، واقعها التاريخي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي . هناك دراسات قليلة جدا عن وضع المرأة العربية في الريف ، وهي التي تمثل غالبية النساء العربيات. أي تحرك بدون دراسات علمية مكثفة وبدون اجتهادات متعددة للبحث عن حلول سوف يحكم على تحركنا بالفشل .

ان المجتمعات العربيـــة ، رغم اشتراكها في العديد من السمات ، يحتفظ كل مجتمع منها بخصوصية. وفي تصوري ان بدء مجموعات عمل في كل بلد عربي على حدة وتعاون هذه المجموعات فيما بينها يمكن ان يكون ذا فعالية كبيرة . واذا كان منطلق الجميع منطلقا اشتراكيا فسوف يمكن تقديم اضافة حقيقية للفكر الاشتراكي وللجهد الثوري من أجل تغيير هذه المجتمعات ككل .

د . نوال السعداوي

أنا أتفق مع د . رضوى على ضرورة الارضية الفكرية ولكني اخشى بذلك أن يتحول عملنا الى البحث والدراسة فقط وان نعزل أنفسنا عن العمل مع جموع النساء، في تصوري ان تنظيما من هذا

النوع يمكن أن يكون بداخله وحدة بحوث ، ووحدة محو أمية ووحدات أخرى كثيرة . ولابد من سير البحث والعمل جنبا الى جنب .

د . لطيفة الزيات

أعتقد اننا في نطاق ندوة محدودة من هذا النوع استطعنا أن نلمس بعض النواحي النظرية وبعض النواحي العملية الخاصة بقضية المرأة ونستطيع أن نلخص بالتالي مما قيل في هذه الندوة :

ـ ان تحرر المرأة مرتبط بتحرر مجتمعها ويسير مدا وجذرا مع تحرر هذا المجتمع ومع أسهامها اسهاما فعالا في العمل من أجل تحرره . وكل مكاسب حققتها المرأة العربية انما جاءت عن طريق ارتباطها النضالي بقضاياها الوطنية .

ـ ان المرأة شريكة للرجل في هذا الكفاح والا تناقض بينهما وانما التناقض الحقيقي بينهما وبين النظام الذي يقوم على قهر كليهما .

ـ ان التحرر الكامل للمرأة وللرجل على السواء لن يتحقق الا في ظل الاشتراكية ومع هذا فالمطلوب من المرأة كفاح مزدوج يتعدى كفاحها كمواطنة الى الكفاح من أجل تغيير المفاهيم المتخلفة التي يتبناها الرجل عنها بل والتي تتبناها هي عن نفسها .

ـ اذا كانت الاشتراكية هدفا استراتيجياً في المجتمعات العربية فما زالت أمامنا مراحل طويلة من العمل من أجل التحرر الوطني والاجتماعي . ومن المطروح الآن في هذه المرحلة توطيد اركان الديمقراطية في المجتمعات العربية لتوطيد مناخ الحرية الذي يمكن من دحض المفهومات المتخلفة عن المرأة سواء المفهومات السلفية او المفهومات التي شاعت مؤخرا كجزء من الغزو الثقافي الاستعماري الذي يربط بين المرأة وانظمة الحياة الاستهلاكية .. الخ .

ـ ان على النساء الطليعيات المثقفات أن يمددن أيديهن الى القواعد العريضة من نساء الامة العربية المحرومة من الوعي والمحرومة من التعليم لمساعدتهن في تغيير واقعهن . والمطروح من جانب الندوة عمل نسائي على نطاق الأمة العربية من منطلق اشتراكي اما على اساس جماهيري او على نطاق حلقات بحث والمرجو البحث عن صيغة تجمع بين الاقتراحين .

الواقع العربي .. وتجوازه بين منظوري العلم والاخلاق

سمير كرم

قبل سنوات معدودة كان واحد من أبرز المشتغلين بـ « علم المستقبل » ، في واحد من اكثر المجتمعات المعاصرة تقدما واهتماما بهذا « العلم » الجديد ، يختار لكتاب له في هذا المضمار عنوان : **التفكير بما لا يمكن التفكير به** Thinking about the Unthinkable . والمؤلف هو « هيرمان كاهن » مدير « معهد هدسون » في الولايات المتحدة الاميركية . و « ما لا يمكن التفكير به » هو المستقبل . ولا تزال كلمة « المجهول » تحيط بمعظم ما يتعلق بالمستقبل . وباختصار شديد فان المستقبل هو أشق ميادين « المعرفة » الانسانية ، واعقد المسائل الابستمولوجية وأكثرها صعوبة على التناول النظري والعملي ، على الرغم من كل ما احرزته « الثورة التكنولوجية » من انجازات ، خاصة في مجالات استكشاف الفضاء ، وبصفة اخص نتيجة للتقدم الكبير في علم « السيبرنطيقا » Cybernetics وجوانبه التطبيقية في العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء .

و« علم المستقبل » لم يضع أقدامه بعد على أرض راسخة من القوانين العلمية ، وخاصة القوانين العامة منها ، بحيث انه لا يزال يواجه السؤال ذاته الذي تواجهه منذ زمن طويل علوم انسانية عدة مثل علم الاجتماع وعلم النفس ، وهو هل يستطيع هذا العلم ان يكتشف قوانين دقيقة لها صفة الضبط العلمي شأن علوم الطبيعية والميكانيكا والاحياء (البيولوجيا) ... الخ ؟ ام انه سيضطر ـ بعد ان يفتر الحماس السائد الآن له في مراكز الدراسات والابحاث في الشرق والغرب على السواء ـ الى الذوبان جزءا بعد جزء في علوم اخرى راسخة بالفعل في مناهجها ونتائجها ؟

ولان « علم المستقبل » يأتي في آخر سلم العلوم زمنيا ومنهجيا ـ لانه يعتمد على كل العلوم السابقة عليه وعلى قوانينها واستنتاجاتها ـ فانه اعقد منها جميعا (ربما كان له تعقيد الفلسفة وان لم يكن له تجريدها) واكثرها تطلبا للاشتراكات المنهجية والفكرية (وربما كانت له قابلية « علم » التاريخ للانزلاق عن الشروط المنهجية وان لم يكن له رسوخ وحضور المصادر التاريخية) .

لهذه الاسباب وكثير غيرها تاخر ـ ويتاخر ـ وصول الاهتمام بعلم المستقبل الى مجتمعنا العربي ، الى مراكز الابحاث والهيئات العلمية والاكاديمية في الوطن العربي ، وحتى الى أدمغة المفكرين العرب . هنا الصعوبة ليست في « علم المستقبل » في حد ذاته فحسب ، انما الصعوبة ـ والعقبة ـ في انكفاء التفكير العربي في معظمه على الماضي ، ارتياحا إليه ، بامجاده وانتكاساته . ولهذا فالدراسات العربية التي صدرت عن « المستقبل » ـ فضلا عن تلك التي تلمست الطريق الى « علم المستقبل » ـ قليلة للغاية ، حتى اذا صرفنا النظر عن محتواها ومستواها . حتى في الترجمة من اللغات الاجنبية لم نعن بالبعد المستقبلي في انتقاء ما نترجم . وحتى ـ أيضا ـ في الترجمات الادبية لم نختر « جول فيرن » والروايات الخيالية العلمية *Science Fiction!*

* قسطنطين زريق : **نحن والمستقبل** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٧ ـ ٤٥١ صفحة .

ولهذا فان صدور كتاب له موضوع ومستوى ونوعية كتاب الدكتور قسطنطين زريق « **نحن والمستقبل** » يشكل حدثا فكريا . ولا اكتفي بالقول انه « اضافة الى المكتبة العربية » وفق ما يقال عادة . فالكتاب يتعرض بشمولية وجدية لعلم المستقبل موضحا من اهمية هذا العلم في العصر الحاضر ، شارحا بواعث الاهتمام المستقبلي المعاصر وفوائده في المجتمعات الغربية ، وفي المجتمعات الاشتراكية ، وفي المجتمعات النامية (العالم الثالث) . والكتاب يعرض أيضا للخلفية التاريخية لبواعث الاهتمام المستقبلي في العصور القديمة ، والسبل التي انتهجتها المجتمعات البدائية في إرواء تعطشها لاكتشاف المجهول ، والانماط التاريخية للاهتمام المستقبلي ، السابقة على المرحلة العلمية المعاصرة ، وهي الانماط : البدائي والعقائدي والتخيلي . ثم أن الكتاب ــ في القسم الثاني منه الذي يعالج الـ « نحن » (بعد ان يكون القسم الاول قد عالج « المستقبل ») يتصدى ــ في شمولية مماثلة ــ للواقع الراهن للمجتمع العربي وقدراته وخصائصه ، لينتقل من هذا الى المركب Synthesis الذي ينشأ ــ او لا بد أن ينشأ ــ عن وضع « النحن » العربي في « المستقبل » العالمي زمانيا ومكانيا . اي مركب « مستقبل المجتمع العربي » .

واذا كان أي كتاب عن « المستقبل » يثير الشك في انه من قبيل التصورات « الطوباوية » (اليوتوبية) فان المؤلف يحرص من البداية على ان يبعد هذا الشك عن ذهن القارىء ! « **لسنا من الذين يذهبون مذهبا يوتوبيا** » . ومع ازالة هذا الشك تزول أيضا كافة احتمالات الخروج بصورة عامة او تفصيلية لمجتمع المستقبل العربي ، سواء رسمت هذه الصورة بمادة العلم (التحليل والارقام والاحصاء والقوانين الدقيقة) او كانت من قبيل « المدن الفاضلة » التي ترسم بمادة هي من الخيال « السوريالي » (بمعناها الحرفي : ما فوق الواقعي) للفلاسفة او المصلحين الاجتماعيين . ويقف الدكتور قسطنطين زريق عند حدود رسم الاطار المنهجي لمعالجة قضية المستقبل وهو في حيز الواقع الاجتماعي ــ السياسي ــ الاقتصادي ــ الثقافي للمجتمع العربي . واما مهمة خلق التصور المستقبلي فيتركها كلية الى « مؤسسات ريادية » يرى ضرورة انشائها في الوطن العربي لتواكب المؤسسات الريادية المماثلة التي سبقتنا الى انشائها الدول نفسها التي سبقتنا الى العقلانية والعلم والموضوعية والعلمانية والتماسك الخلقي :

«... ان قربنا لنهاية الالف الثاني بعد الميلاد أسبغ على السنة ٢٠٠٠ سحرها الخاص ، فجعل هذه السنة الالفية هدفا وعنوانا للعديد من الدراسات التوقعية التي يقوم بها الافراد او المؤسسات في شتى ميادين الحياة المقبلة . ومع ان دراستنا لا تحمل هذا العنوان ولا تدخل في حيز احد هذه المشروعات الالفية ، فانها تقتصر مثلها على المستقبل القريب الذي ينسحب على العقود القليلة القادمة ، دون ان نقيد أنفسنا بحد زمني معين ، لان الحدود الزمنية هي بطبيعتها مائعة متموجة وستغدو اكثر ميعانا وتموجا في المستقبل ، ولاننا لا نملك الادوات العلمية والاحصائية التي تملكها المؤسسات المنشأة لهذا الغرض والمجهزة تجهيزا بشريا وماديا ضخما راقيا يساعدها على ما تذهب اليه من ضبط وتحديد .

« ... ان افتقارنا الى هذه الوسائل يضيق قدرتنا على رسم صورة للمستقبل بالدقة والوضوح اللذين نبغيهما ...

« ... واذا استطاعت هذه الدراسة ان تعبر عن حاجة العقل العربي الى التمرس بهذا التفكير المستقبلي وعن حاجة المجتمع العربي الى انشاء مثل هذه المؤسسات الريادية ، وان تاتي دعوة ملحة الى هذا التمرس والانشاء وتسهم في تحقيق شيء منهما ، فهذا حسبها » .

فاذا لم يكن المؤلف ــ ولا دراسته ــ يذهب مذهب اليوتوبيين ، فهل يذهب أي « مذهب » آخر ؟ .

يناقش الدكتور زريق ــ بقدر غير قليل من الاستفاضة ــ التيارين المذهبيين الاعم اللذين يسودان العالم المعاصر : التيار الغربي ــ البورجوازي ، والتيار المادي ــ الماركسي ، وكيفية نظر كل منهما الى الدراسات المستقبلية وكيفية استثماره لها ، ولكن دون ان يبدو المؤلف « متمذهبا » مع هذا التيار او ذاك . بل الاصح ان نقول ان الدكتور زريق ــ في دراسته « نحن والمستقبل » ــ يرتكز فكريا على اسس ومبادىء ومناهج « **الاتجاد التكاملي** » (ولا اقول أبدا « التعادلي ») . فالتكاملية في فكره ــ وفي هذه الدراسة بوجه خاص ــ ليست منعكسة فحسب في شمول نظرته للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية والنفسية ... الخ في معالجة قضايا الانسان (والمستقبل قضية الانسان الاولى .. ولا مستقبل بغير انسان اصلا) ، انما تنعكس هذه التكاملية في رحابة اختياراته الموضوعية واللاانحيازية للحقيقة حيثما كانت . فالمؤلف مفكر

« تقدمي » بغير شك يقف في صف التغيير نحو الافضل لا في صف المحافظة على الواقع باي ثمن ، يناهض الامبريالية والاستعمار الجديد واشكال الهيمنة الاجنبية على اختلافها ، يؤيد بوضوح وبلا مواربة حقوق الشعوب والطبقات المستغلة والكادحين والمناضلين من اجل الاستقلال والحرية ومن اجل حقوق الحياة الانسانية ومن اجل « التقدم » ، بكل ما تعنيه هذه المقولة الفاصلة . ولكن له مواقفه وآراءه النقدية الواضحة والصريحة من التيارات التي تقف في صف هذه القضايا ذاتها حين تتعارض مواقفها وممارساتها مع الحرية الانسانية بالذات ، أو مع اتباع التقدم اللازم للحياة الانسانية . فهو اذا كان يرى ــ مثلا ــ ان « المثل الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، ثم في الصين الشعبية .. مثل رائع على انتهاب المراحل والفوز في عقود من السنين بمكاسب تقدمية تتطلب قرونا من التطور المتدرج » ، فانه يرى ــ في الوقت ذاته ــ انه « ليس ضروريا ولا مفيدا للشعوب المتخلفة ، وهي تسعى في مسالك التقدم ان تقلد الشعوب المتقدمة تقليدا اعمى او ان تقترف الاخطاء التي اقترفتها هذه الشعوب ووقعت في شركها » . ولا يتردد في ان ينبه الى ضرورة « رؤية الاخطار على حقيقتها » وليس في ضوء اتهامات توجه من وراء عقائد مذهبية معينة الى النشاطات والفعاليات في مجال الدراسات المستقبلية او غيره .

« ليس يكفينا ان نندد بهذه النشاطات والفاعليات او ان نتبين ونعلن اخطارها ، بل يتوجب علينا ان نقتبس منها ما نستطيع ، وان نكون لانفسنا ، وان نكون لانفسنا القدرات العلمية والتنظيمية التي تمكننا من الافادة منها والاستعانة بفنونها واساليبها للدفاع عن انفسنا وصيانة كياننا القومي . وهذا هو بالضبط ما يفعله العدو الصهيوني الاسرائيلي . فانه يقبل على البحوث المتقدمة والاساليب المتطورة فيقتبس منها ويشارك فيها ، ويستخدمها في اجهزته العسكرية وفي سواها من منظماته ومنشآته . وليس لنا غنى اذا اردنا ان ندفع شره ونتغلب عليه ، وان نرد عنا الاخطار الاستعمارية التي يرتبط بها ويمثلها ، من ان نباريه في السباق الشاق الحاضر . وفي السباق الاشق المقبل ، في ميادين البحث والتطبيق والتنظيم وفي ما يتصل منها بخاصة بريادة المستقبل واستطلاع تطوراته والاعداد له » .

جانب من « تكاملية » فلسفة المؤلف انه ضد فلسفة التفسير الواحد ــ اذا جاز التعبير ــ وحتى اهتمامه بالتأكيد والتركيز على النزعة العلمية لا يبرز كاستثناء من هذا : فان القوى السائدة في هذا العصر تتمثل في ثورتين : **ثورة العلم والتكنولوجيا ، وثورة مطالب الشعوب ومطامحها** . والدلائل « تدل على ان هاتين الثورتين ستمضيان في الانطلاق والتفاعل والتعزيز المشترك وفي اكتساب المزيد من القدرة والحدة والانتشار . فهما ــ بلا جدال ــ **اقوى العوامل الفاعلة في تكوين الحاضر ، وسيظل لهما هذا الفعل ، بل فعل اشد وانفذ ، في صوغ شكل المستقبل ..** »

واذا كانت الثورة العلمية التكنولوجية لا تنفرد بالتأثير في الحاضر والمستقبل ، انما تشارك في هذا التأثير ثورة المطالب والمطامع الشعبية ، فان التطلع الى مستقبل افضل ــ للعالم ككل ولنا نحن العرب ــ لا يقوم على الشق « العلمي » وحده من اسس التقدم ، بل يقوم ايضا على الشق « القيمي » ــ الاخلاقي ــ ايضا . ومن هنا الحاجة الى ما يطلق عليه المؤلف وصف « الثورة القيمية » ، اي « التي ترفض القيم السلبية الفاسدة السارية في المجتمع وتكافحها وتسعى الى التحرر منها تلهفا الى قيم ايجابية صحيحة قد اثبتت الخبرة الانسانية جدواها ... » .

وربما نحس مع التصور المستقبلي للدكتور زريق اننا امام فلسفة ثنائية او « اثنينية » ــ فهناك دائما طرفان : العلم والاخلاق ، الفعالية والحرية ، الثورية والتطورية ــ اكثر مما نحس اننا امام فلسفة احادية التفسير . ومع ذلك فانها ثنائية مرنة وخصبة لا تشكل قيدا حديديا من حلقتين مغلقتين في تناول الظواهر او المشكلات ــ وهي ايضا ثنائية متوازنة . اهم تبدياتها في هذه الدراسة المستقبلية ذات الطابع القومي والروح التقدمية ثنائية « الانتهاج العلمي » و « الالتزام الاخلاقي » .

« اننا لنخطىء اذا اعتقدنا ان ثمة انفصالا واقعيا بين الجهد العقلي والجهد الخلقي ، او ان الاول قد يأتي صحيحا ناجعا بدون الثاني . فالمواقف العقلانية الاصيلة كالسعي الى الحقيقة والتزامها ، واعتزام الفوز بها ونصرتها ، ومجاهدة النفس للتحرر من كل ما يفسدها ــ هذه وامثالها هي ايضا ، بل نقول اولا ، مواقف خلقية ادبية . ولقد يعترض البعض بأنا نشهد اليوم تقدما علميا خارقا لا يجاريه تقدم خلقي ادبي ، فالعقلانية اذن شيء . والنزاهة الخلقية شيء آخر . ان هذا الاعتراض يصح اذا صح امران : اولهما ان يكون التقدم العلمي ، على ضخامة انتاجه وروعة انجازه ، تقدما سليما في جملته . والواقع انه ليس كذلك .

فانه كما ذكرنا سابقا ، منصب على الطبيعة اكثر مما هو متوجه للانسان . وقد افاد الانسان في فهم اسرار الطبيعة وفي تسخير قواها ولكن لم يفده الا افادة ضئيلة في ادراك اسرار نفسه وفي التغلب على شهواته . انه تقدم غير متزن ... » .

المطلوب اذن هو علم ملتزم اخلاقيا . والالتزام الاخلاقي هو التزام بالعقلانية الصحيحة والمكتملة اي العقلانية « عندما تصبح خلقا » ، وهي العقلانية التي كانت في الماضي « مصدرا لافضل الانجازات والابداعات في التاريخ » ، وستكون في المستقبل « لا مصدر الابداع فحسب ، بل قوام البقاء والتقدم » .

والنزعة الثنائية عند الدكتور زريق تمتد من فلسفته المستقبلية الى اتجاهه القومي الوحدوي . فنظرته قومية ــ عالمية في آن معا . ليس فقط رفضا لسلبيات النظرة العرقية او الجنسية ، وليس فقط رفضا لسلبيات الاثرة القومية الضيقة التي تخبىء وراءها اطماعا ومصالح فردية او طائفية او حزبية او قطرية ، انها بالاساس لنظرة مستقبلية صحيحة ومخلصة وواعية حق الوعي لطبيعة القومية والوحدة . « فالمستقبل الصارم لا يحتمل الغش والمخاتلة ولا يقبل من الامم التي تريد الحياة والتقدم غير الحقيقة والاخلاص ... ان العصر الذي نلجه هو عصر « كوكبي » اصبحت الوحدة فيه الارض بكاملها والعالم بمجموعه . لقد وحدت قوى العلم والتكنولوجيا المعمور ، دانيه وقاصيه ، وهدمت الحواجز الطبيعية القائمة بين اصقاعه وشعوبه ، وجعلت مشكلاته الاساسية عالمية النطاق انسانية الصفة والموضوع » . ويطلق المؤلف وصف « تقلص العالم » على هذه الظاهرة ، وينتهي الى « ان المشكلات الرئيسية التي سنجابهها في المستقبل ستكون عامة النطاق : اي انها لن تقتصر ، مدى وتأثيرا ، على بلد دون بلد ، او على شعب دون شعب ، بل ستلف البشرية بمجموعها ، كما ان مجابهتها ستستدعي جهودا عالمية شاملة » .

ولا يعني هذا ان الدكتور زريق ــ وهو مفكر عربي وحدوي في المحل الاول ــ ينظر الى المشكلات المستقبلية للامة العربية نظرة تتجاوز القومية الى « عالمية المشكلات » ، انما هو ينظر الى عالمية المشكلات لتقصي خصائص الواقع الراهن والتطور المرتقب بكل تأثيراتهما على المستقبل العربي بالذات : فاي شعب يعتقد ان بامكانه ان يحل المشكلات التي تجابهه اليوم ، بل المشكلات التي ستجابهه غدا ، دون اعتبار أبعادها واشتباكاتها العالمية ، يخطىء خطأ فادحا وينحرف عن الادراك الصحيح والمعالجة الناجعة .

وربما امكننا ان نعزو الى النزعة الثنائية في تناول المؤلف لموضوعاته في « نحن والمستقبل » تأييده نظرة « التقارب » convergence القائلة بان النظامين الرأسمالي الشيوعي « سيتقاربان بفعل تقدمهما الصناعي المتسارع ، بل سيتجهان الى التشابه والتفاهم والتبادل ، باتساع سلطة الدولة ونطاق العدالة الاجتماعية في النظام الاول وبالافساح في مجالات الحرية والتقرير في الثاني » . الامر الذي كان من نتيجته تبنيه للنظرية القائلة بان الشقة ستضيق بين العالمين الاول والثاني ، فتتغير بالتالي صورة المستقبل بحيث نرى فيه عالمين اثنين فحسب ، عالم متقدم علميا وصناعيا (تتقارب فيه النظم الرأسمالية والشيوعية) وعالم متخلف (العالم الثالث : مهما تكن نظمه) ، اي باختصار نظرية تحول الصراع من صراع بين شرق وغرب الى صراع بين شمال وجنوب .

وبطبيعة الحال فان **نظرية التقارب** في ذاتها مثيرة لكثير من المجادلات خارج اطار كتاب « نحن والمستقبل » ، والردود عليها كثيرة ، خاصة من جانب الماركسية الارثوذوكسية (تمييزا لها عن مواقع وتوجهات الماركسية الغربية او الاوروبية) . وابرز ما يوجه لها من انتقادات انها تقوم ــ في وقت يتضح فيه اكثر الاستقطاب بين معسكري الامبريالية والاشتراكية ــ على الادعاء بان الرأسمالية هي بصدد التحول الى اشتراكية ، وان الاشتراكية ــ بدورها ــ هي بصدد التحول الى رأسمالية . بكل ما يترتب على هذا وذاك من الغاء لاي فكرة عن تحول صاعد في مستقبل المجتمع الانساني من مرحلة في تطوره الاقتصادي ــ الاجتماعي الى مرحلة اعلى ، فضلا عن سلب اي معنى لمقولة الحتمية في التطور البشري . نقول ان نظرة « التقارب » في حد ذاتها مثار جدال شديد خارج اطار هذا الكتاب ، ولكن الامر الجدير بالمناقشة بشأنها من داخل كتاب الدكتور زريق هو تناقص قبوله لها وتأييده لتوقعاتها المستقبلية مع مفاهيم اخرى اخذ بها بوضوح خلال الدراسة ، وهو ــ بالاضافة الى هذا ــ انعكاسات قبول هذه النظرية على التصور المستقبلي للمجتمع العربي ، خاصة في ضوء الحقيقة المؤكدة القائلة بان مجتمع المستقبل في الامة العربية سيؤثر ويتأثر بالتركيبة العامة للمجتمع المستقبلي العالمي .

ولعل ابرز تناقض بين الآخذين بنظرية

« التقارب » وما يأخذ به الدكتور زريق في اساسيات كتابه ان اولئك يعتبرون ان العامل الحاسم في تقرير المستقبل الذي يتمثل عندهم في « امتزاج » بين الرأسمالية والشيوعية هو « الثورة التكنولوجية » ولا شيء غيرها . فهؤلاء هم من اصحاب التفسير ذي البعد الواحد . ويعتقدون ان **الثورة التكنولوجية** قد جاءت لتلغي مقولات الصراع الطبقي والحتمية الاقتصادية والتطور التاريخي . بينما الدكتور زريق كان قد وضع ـ بتعبير واضح وصريح ـ ثورة مطالب الشعوب ومصالحها الى جانب ثورة العلم والتكنولوجيا وفي مستوى واحد معها ويعتبر « هاتين القوتين الجبارتين هما اعظم العوامل الفاعلة في تطوير الحاضر وفي صنع المستقبل ، فلا بد من العودة اليهما لبسط مقوماتهما وآثارهما في سياق المحاولة التي تعمد اليها لاستشراف المستقبل واستبانة ملامحه » . ويصف الثورة الثانية منهما : ثورة المطالب والمطامح الشعبية بانها « فريدة في التاريخ البشري من حيث الضخامة والحدة والانتشار » في الوقت الحاضر .

وعلى حين يرتكز مؤيدو نظرية « التقارب » على اساس الافكار القائلة بنهاية عصر الايديولوجيا ، حيث يحل العلم والتكنولوجيا تماما محل العقائد الفلسفية والسياسية والاجتماعية فان الدكتور زريق يعطي قيم الحرية والكرامة ويؤيد تفاؤلا ايديولوجيا بمستقبل الانسان ، ايديولوجيا تؤمن بالتطور وهو القائل ان « **المجتمع ليس اداة ميكانيكية تصنع صنعا بالعلم والتكنولوجيا فحسب ، لانه يتألف من افراد أحياء لهم اهواؤهم ونوازعهم وارادتهم ، وفيهم حوافز الخير ومباعث الشر . فلا بد لبنائه من عنصر آخر بالاضافة الى العلم ، هو العطاء الانساني الخير الذي به تتلاحم وجوه الكيان الوطني وتتطور** » .

والامر المثير للحيرة في تأييد الدكتور زريق في هذا الكتاب لنظرية « التقارب » بين الرأسمالية والاشتراكية كأحد ملامح المستقبل العالمي ، انها لا تتفق بالمرة مع منحاه الخاص في التأكيد على اهمية الجانب الاخلاقي والنفسي ـ مع الجانب العقلي العلمي ـ الى حد جعل القسم الاخير من كتابه ـ الذي يضم الفصول من الثاني عشر (ويحمل عنوان : نحو مجتمع فاضل) الى الفصل الخامس عشر ـ يظهر وكأنه نسيج وحده ليس هو نسيج الكتاب في الفصول السابقة . فتغلب على الرؤية الاجتماعية للمؤلف في الفصول الاخيرة طبيعة المفكر الاصلاحي ، وتغلب على نظرته توجهات فيلسوف الاخلاق . ومن ثم تغلب حتى على لغته الاصطلاحية تعبيرات معيارية و « قيمية » : فالفصول الاخيرة مفعمة بالروح « الاخلاقية » تعكسها تعبيرات الكرامة والصدق والواجب والعطاء والايثار ... الخ . ويصل اهتمام المؤلف بهذه الاصطلاحات القيمية ومغزاها وانفعاله الوجداني بها الى حد يؤثر في البناء المنطقي لاستدلالاته ، فيظهر هذا البناء في غير الصورة التي يظهر فيها البناء المنطقي لاقسام الكتاب الاولى التي أرخت لماضي الاهتمام المستقبلي وانماطه وتطوره ، او التي عرضت حاضر الاهتمام المستقبلي وبواعثه ، او التي رسمت ملامح المستقبل ومشكلاته وتحدياته .

وعلى سبيل المثال نجد تداخلا منطقيا في تقسيم المؤلف لاوجه « **القدرة الذاتية** » للمجتمع . فهي عنده اربعة وجوه :

(١) قدرة العقل المتمثلة بالعلم ، العلم بالطبيعة والعلم بالانسان .

(٢) القدرة الخلقية « الناتجة عن عمق الايمان والسيطرة على الشهوات والاطماع » .

(٣) قدرة المجتمع على رد العدوان عليه ، وعلى التحرر من الظلم .

(٤) قدرة المجتمع على تكوين بنيته الوطنية ، وهي القوام الذي تنتظم به مختلف الروابط التي تضم افراد المجتمع وفئاته بعضا الى بعض .

وازعم اني لم اجد وحدة قياس منطقية يعتمد عليها هذا التقسيم الرباعي . فهل حقا ان قدرة المجتمع على رد العدوان مثلا تنفصل عن قدرته العلمية او عن قدرته الخلقية ؟ وهل تنفصل القدرة على تكوين البنية الوطنية عن القدرتين الاوليين العقلية والخلقية ؟ .

وصحيح ان هذا التداخل بين الاقسام الاربعة لا يشكل خطرا علي بنية الكتاب المنطقية ولا على صحة قضاياه ، ولكن هناك اعتبارين يسمحان للمرء بأن يهتم بهذا الجانب . اولهما ان المؤلف اعتبر ان « انشاء هذه القدرة الذاتية ، بوجوهها الاربعة ، هو الهدف الذي يجب ان توجه اليه المجتمعات الانسانية ـ ولا سيما المتخلفة منها ـ انظارها وجهودها . وهو مقياس التقدم والرقي بمعناها الصحيح الشامل » . اي ان « القدرة الذاتية » تلعب الدور الاهم في تشكيل المستقبل . وبالتالي فانها مقولة اساسية وتتوجب معالجتها بمنهجية دقيقة . والمنهجية تعني اول ما تعني التماسك

المنطقي . وثانيهما ان هذا التداخل يتكرر في تقسيمات اخرى هامة في هذا القسم من الكتاب حيث التركيز شديد ــ اكاد اقول مفرط ــ على العوامل والاعتبارات « الاخلاقية » بدرجة اما ان تستغرق القارىء فتنسيه المعالجة العلمية والنظرة الموضوعية التي سارت عليها فصول الكتاب . واما ان توقعه في ازمة التناقض غير الحقيقي بين ما هو علمي وما هو خلقي . الامر الذي حرص الدكتور زريق نفسه على تبيان زيفه في اكثر من موضع من الكتاب .

وحتى لا اكون قد سقت مثالا واحدا على الخلل الطارىء على القسم الاخلاقي من الكتاب ، اشير الى معالجته لقيمة الكرامة المنبثقة من الحرية ، التي اعتبرها « القيمة الانسانية الاصلية الشاملة التي يسعى اليها ويتميز بها المجتمع الفاضل » . فقد فرع عليها عددا من « القيم الفرعية تتضمن ادراكا لمفهوم من المفاهيم وايثارا له على غيره ورغبة في تحقيقه وتطبيقه ... تتمثل بولاء معين . وهذه الولاءات جميعا تتوافق وتتكامل في ولاء شامل هو الولاء لحرية الانسان وكرامته » . وبطبيعة الحال فان « التوافق » و « التكامل » لا يمكن ان يعنيا التداخل والاستغراق المنطقي . ولكن عندما رصد المؤلف هذه القيم ــ الولاءات جاءت متداخلة ومتكررة . فقد ذكر منها ثمانية ولاءات : الولاء للحقيقة ــ الولاء للصدق ــ الولاء للواجب ــ الولاء للعطاء ــ الولاء للغير ــ ايثار التعاون ــ الولاء للمستقبل ــ الولاء للمسؤولية .

وبطبيعة الحال فانه لا خلاف على قيمة الحرية ــ الكرامة كقيمة اساسية للمجتمع الفاضل ، ولا خلاف على « قيمة » كل القيم المتفرعة عليها فيما اسماه المؤلف ولاءات . ولسنا ــ بالقطع ــ مع الذين يجدون الكلام عن المجتمع الفاضل وعن الفضيلة « ناشزا هذه الايام » . ولا ممن يعتبرون هذه الدعوة دليلا على جهل بحقائق التاريخ وتكوين المجتمعات وتطورها . الا ان استطلاع المستقبل من منظور علمي (و « علمي » هنا بالمعنى الاوسع للكلمة منهجيا وموضوعيا وليس بمعنى الضبط التجريبي الحسي ، كما يمكن ان يعنيه مفكر وضعي منطقي مثلا) يتطلب وضع نظام القيم في اطار علمي سليم ومتماسك ، اي في اطار واقعي وليس مجردا ، ويتطلب ربط هذا النظام بمنهج واضح للاهداف والوسائل الواقعية لانجازها . تمثل الاخلاق احد العناصر الهامة في التكوين الروحي لفهم الانسان للعالم ولنفسه . وللاخلاق استقلالها النسبي وهي تدخل في نسيج التفكير الفني والسياسي والعلمي . وهي تتخلل كل شيء وبخاصة السياسة . ومن المؤكد ان كل حديث عن مجتمع المستقبل لا يمكن ان يفلت من حقيقة كونه سياسة . ولغة العلم الاجتماعي هي بطبيعتها لغة احكام قيمية ، اذ ان مفاهيم مثل التقدم والاستقلال والحقيقة والفضيلة والكرامة لها جميعا معنى اخلاقي ظاهر او ضمني .ولكن هناك شرطا اساسيا لواقعية المفاهيم والتفسيرات الاخلاقية هو شرط الوحدة العضوية بين العلم والاخلاق فهذا الشرط هو المؤشر الى صلاحية هذه المفاهيم للتطبيق العملي .

اما الخطر فهو **التجريد** ، هو اسباغ طابع تجريدي « عاطفي » خاص على الاخلاق ، يفصلها عن تناقضات الواقع وصراعاتها ويعتقد انها فوق هذا الواقع ومتعالية عليه . ومن شأن هذا التجريد ــ على سبيل المثال ــ ان يوقع في خطأ عدم التمييز بين عنف القاهرين وعنف المقهورين ؟ او ان يوقع في خطأ الاعتقاد بان انعدام التوازن الذي يتصف به التقدم العلمي في مرحلته الحالية هو نتيجة اختلال بين العلم والاخلاق وان تحقيق التوازن هو من نصيب الاخلاق ، او ان يوقع في خطأ الاعتقاد بأن الفضل او الفساد ليسا في اوضاع المجتمع (اي هي موضوع لانشغال العلم ــ الاجتماعي خاصة) انما في اوضاع « الانسان ذاته » التي غالبا ما تعني الانسان المجرد ، وهو الانسان الذي لا وجود له في الواقع .

ولقد ادى تفرد القسم الاخير* من الكتاب بنسيج اخلاقي تجريدي مختلف عن نسيج القسم الاول منه الى درجة من الانفصال بين دراسة المستقبل والتصورات التي طرحها المؤلف بعدها عن المجتمع الفاضل ــ العربي ــ كما ينبغي ان يكون . انفصال هو في التحليل الاخير له انفصال بين النظرية والتطبيق . ولعل غياب بعض المفاهيم العلمية المحددة من القسم الثاني عند معالجة مشكلات المجتمع العربي الراهن واحتمالات مجتمع المستقبل هو انعكاس ونتيجة في الوقت نفسه لهذا الانفصال . ان مفهوم « **الثورة** » ــ مثلا ــ لم يعالج في أي من البعدين ــ الحاضر او المستقبل ــ معالجة مباشرة . وحتى عندما استخدم المؤلف اصطلاح الثورة ربطه بما أسماه « الثورة القيمية » ــ اي مرة اخرى بمسألة الاخلاق . كما

---

* اود ان اشير الى انني استبعد من الكتاب الملحق « من وحي احداث لبنان » الذي يشكل اضافة لها طابعها الخاص الذي لا يجعلها ذات علاقة عضوية بالكتاب ذاته ، على الرغم من استمرارية النظرة الاستطلاعية المستقبلية في هذا « الملحق » . (س . ك)

لم يعالج مفهوم « **الديمقراطية** » بمعناه المباشر على الرغم من ان مشكلة الديمقراطية هي واحدة من اعقد مشكلات الحاضر العربي ، وبالتالي اشدها تأثيرا على المستقبل . انما عولجت بطريقة غير مباشرة ــ موارية ــ من خلال مفاهيم اكثر تجريدا مثل الحرية والكرامة .

ولا يعني هذا ان كتاب « نحن والمستقبل » لا يحمل افكارا ثورية وديمقراطية . بل العكس هو الصحيح . وحسبه انه القائل :

« ان الاصلاح الجماعي يأتي ، اكثر ما يأتي ، عن طريق تعديل توازن القوى ، الذي يتقلص به نفوذ الجماعات الطاغية أو المنعمة ، وتحقق به الجماعات المقهورة او المحرومة حقوقا ومكاسب تتناسب وقدر نضالها والظروف الموضوعية التي يجري فيها هذا النضال . ولما كان عسيرا على الجماعات السائدة ان تتخلى عن نفوذها واستئثارها برضاها ذاتها او بحث الآخرين لها على ان ترتفع عن الانانية وتتصرف بروح « غيرية » . فلا بد اذن من اللجوء الى تعديل توازن القوى بتعديل النظام القائم او تبديله . وكلاهما ــ لاسيما التبديل ــ يستدعي القسر والاكراه ، ولا يحصل بدون نضال . واي رجل دين او مرب ، او مفكر او مصلح ، يعتقد ان الاصلاح يمكن ان يتم بالدعوة الحسنة او بالجهد العقلاني وحدهما دون نضال من الجماعات المقهورة لاكراه الجماعات القاهرة على التنازل عن نفوذها واستئثارها والاقرار بحقوق سواها ــ اي شخص يعتقد هذا الاعتقاد او يبشره هو اما حالم منخدع او مضلل خادع » .

واذا كانت مفاهيم « الفعالية » و« الحرية » و « العدالة » تحل محل ــ او ترادف ــ مفاهيم القوة والثورة والديمقراطية في كتاب « نحن والمستقبل » ،فان مفاهيم تقدمية وموضوعية اساسية تجد طريقها مباشرة الى معالجة للمستقبل العربي . انه مع « العلمانية » ببساطة وصراحة : « فالنظام الثيوقراطي مثلا الذي كان يصلح لزمن ما في الماضي ، لم يعد يصلح للحاضر ، فكيف للمستقبل ؟ وهو مع الوحدة » بغير صنمية ولا خداع للنفس :« ان الوحدة ، وان تكن نهاية ، فهي ليست بذاتها غاية . وانما هي وسيلة : وسيلة لصيانة الانسان العربي وتحريره وتحضيره . فالانسان هو الغاية وكرامته هي المطلب ... ليس ممكنا ان نوفر للانسان العربي حريته بخنق الحرية ، او نعزز كرامته بوسائل الامتهان والاذلال ، او ان نضمن تحضره بأساليب تنافي العقل وتجافي الخلق » . وطوال دراسته فان الدكتور زريق لا يطرح اي تصور للامة العربية مجزأة ، تأكيدا لايمان بان المستقبل هو في الوحدة .

لقد حدد الدكتور زريق لدراسته القيمة والشاملة هدفا متواضعا « ان تعبر عن حاجة العقل العربي الى التمرس بهذا التفكير المستقبلي ، او عن حاجة المجتمع العربي الى انشاء هذه المؤسسات الريادية ... » ، والحقيقة ان هذه الدراسة تتجاوز كثيرا هذا الهدف الى ما هو اخطر : القاء الاضواء ــ اكاد اقول من جميع الجوانب ــ على حقيقة الخيار التاريخي الذي تقف امامه الامة العربية اليوم ، الخيار الثالث في تاريخها الطويل ــ والذي قد يكون الخيار الاخير ــ « **بين القعود والتبعثر والاشتغال بصغائر الامور ... وبين الطموح الى العظائم والجد الصادق الحثيث في تحقيق الامكانات والرد على التحديات لابداع مستقبلي يأتي خليقا بالابداعين التاريخيين السابقين ، بل ومتفوقا عليهما** » .

ان الدكتور زريق يقف بهذه الخاتمة **محايدا بين التفاؤلية والتشاؤمية** التي صبغت واحدة منهما الدراسات المستقبلية في معظم الاحوال . وكان هذا الحياد في الواقع لحساب الموضوعية والعقلانية من ناحية ، وتحسبا لاخطار التنبؤ والقطعية من ناحية اخرى . والكتاب هو في الواقع دراسة نظرية تنتظر التطبيق والممارسة . انه خريطة لطريق المستقبل الوعر . وليس للخريطة ان تحدد مسبقا اذا كان المسترشد بها سينجح في الوصول الى الهدف ام لا . ولكن هذا لا يخفي حقيقة ان الخريطة سليمة وصحيحة ودقيقة .. وان تكن مركبة ومعقدة ومتشعبة .

النهج التاريخي .. على الطريقة الانتقائية*

هاني مندس

نفس الهاجس والخط الفكري العام الذي اتبعه العروي في كتابيه السابقين « **الايديولوجية العربية المعاصرة** »(دار الحقيقة ، ١٩٧٠) ، و « **العرب والفكر التاريخي** » (دار الحقيقة ، ١٩٧٣) ، يبرز أيضا ، في كتابه الاخير ، مهما تنوعت واختلفت القضايا التي يتطرق لها هنا . فالمسألة الاساسية التي تشغل فكر العروي ذات طبيعة منهجية ـ انه يحاول ان يطرح الاسئلة والمعضلات التي يراها حاسمة وهامة من وجهة نظره ، وجل همه ان يبلور ، سواء في طريقة طرحها او الاجابة عليها ، منهجا انتقاديا عقلانيا ، من الزاوية الرئيسية .

ان دائرة اهتمام العروي هي الايديولوجيا والثقافة ، أي البناء الفوقي ، باعتبار ان الايديولوجيا التي سنختارها يتوقف عليها الكثير من القضايا والتأثير الفعال في حركة الواقع .

ومن هنا ، فان التحديث الثقافي الذي ستقوم به النخبة المثقفة الثورية هو بداية ومدخل التحديث السياسي والاقتصادي ـ الاجتماعي ، اي القضاء على التخلف . فغاية العروي هي السعي للتخلص من حالة التخبط والتأخر التي يعاني منها الفكر العربي ممثلا في النخبة الثقافية .

فالأزمة الثورية هي عند العروي ازمة المثقفين العرب ، وهي أزمة قديمة تاريخية ، فلم تستطع « النخبة » الحاكمة طوال الاجيال السالفة ، من تبني فكر عقلاني ديناميكي وتاريخي ، قادر على الخلق والابتكار ودفع عجلة التقدم لا التسليم للتقليد والسلفية والتخلف .

والواقع انه لا بد من الاقرار مع العروي ، ومن حيث المبدأ ، بالدور الذاتي الايديولوجي والنشاطي الفاعل الذي ينبغي ان يقوم به المثقفون الثوريون العرب ، انطلاقا من صلة هذا الدور بالصراع الطبقي ، اذا ما فهمنا الصراع الطبقي بمعناه الشامل الجدلي .

وحين يؤكد العروي في مختلف كتاباته على هذا الدور ، فاننا نوافقه بقوة مستبعدين في الوقت نفسه النزعة الارادية الذاتية في صنع التاريخ ، ومستندين الى سياق منهجي مختلف لا يفهم الماركسية بصورة فظة ، أو كثقافة ناقصة تجاورها ثقافات أخرى لا تقل عنها اهمية وباشكال متفاوتة ، كما لا يكتفي « بالدعوة » الى « تبنيها » كتعويذة سحرية او مجرد « دليل عمل » او « مقروءة بطريقة معينة » (ازمة المثقفين ص ١٥٣) ، بل سياق منهجي يعمل على تطبيقها وتطويرها بشكل خلاق كنظرية وممارسة من خلال **خصوصية الواقع التاريخي** المحدد ، وباعتبار الماركسية أعلى وأرقى تجسيد لما توصلت اليه الثقافة الانسانية على مر العصور ، وعلما ينبغي دراسته بكل ما يستحقه من دراسة . علاوة على ان « التبني » الفعلي

---

* عبد الله العروي : **ازمة المثقفين العرب : تقليدية ام تاريخية ؟** المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٨ .

للماركسية انما يتجلى من خلال التحليل العلمي الخلاق لقضايا المجتمع المحدد ، والانطلاق من هذا التحليل كدليل موجه للممارسة النضالية والتي تغني بدورها التحليل النظري وتطوره .

ان العروي يقحمنا على مناقشة منطلقاته الفكرية نفسها ، وما صلة هذه المنطلقات بالماركسية التي يدعو في كتابه الاخير الى الاسترشاد بها « كأفضل » مدرسة « للفكر التاريخي يجدها العرب اليوم » . (أنظر المصدر السابق نفس الموضع) ، ولكنها « مقروءة بطريقة معينة » . وكان بودنا ان نتفحص هذه الطريقة التي يدعونا العروي لقراءة الماركسية ، على اساسها ، فلم نجد سوى طريقته الانتقائية (رغم عدم اعجابه بها) ، وكأن الماركسية ، بالتالي ، رغم كل المفاهيم المغلوطة عنها ، يمكن فهمها أو قراءتها بطرق مختلفة .

ولكي لا نجحف العروي ، فانه لا بد من التنويه انه من المفكرين العرب القلائل الذين يحاولون ان يبذلوا جهدا نظريا جادا وضروريا ، في أرض فكرية ضحلة . فمفكرونا وحركاتنا السياسية لم يبرزوا منهجا علميا فكريا متماسكا قادرا على حل المعضلات الاساسية في مجتمعاتنا ، ودفع عجلة الثورة الى الامام . فثمة عجز ايديولوجي وسياسي مزمن نعاني منه اليوم . وذلك في **مرحلة انتقالية** ما زالت تختمر فيها الاتجاهات الفكرية والسياسية وتتبلور ، بعد أن تبين ضعف وافلاس الاتجاهات البرجوازية القومية على اختلاف تياراتها المحافظة اليمينية والوسطية والراديكالية .

ان الجدية التي يبذلها العروي ، بصرف النظر عن منهجه ، هي التي تجذب الكثيرين الى الاهتمام بما يكتب ، فالعروي ، انطلاقا من اطلاعه الواسع على اتجاهات الثقافة الغربية المعاصرة ، يحاول جاهدا ان يعالج انماط التفكير السائد في البلاد العربية ، وهو يصفها ويحللها ، كما تتجلى في مجال الثقافة والايديولوجيا .

ويبدو العروي مفكرا موسوعيا شاملا وعقلانيا ليبراليا وداعيا الى تبني الفكر التاريخي في الوقت نفسه . ويصدم العروي بقوة **واقع الفقر النظري والايديولوجي بين الساسة والجمهور العربي** ، مما يدفعه الى نزعة احترام كل ما هو فكري ذو طابع عقلاني وليبرالي . ويؤدي به هذا الامر وانطلاقا من منهجه نفسه ، الى الوقوع وظيفيا في اسار النظرة العقلانية الساذجة حين يتعرض الى تحليل اية ظاهرة معينة . ففي الفكر كان البدء . وكل شيء يمكن ان يصلح انطلاقا من الفكر . فالازمة أزمة اية ثقافة ينبغي ان تسود اجتماعيا وقوميا . وهذا صحيح جزئيا . الا ان العروي لا يرى صلة هذه المسألة بالصراع الطبقي ، ويحصر الامر في الثقافة العربية والنخبة ، وكأن من الممكن لطبقات عاجزة عن تطوير قوى الانتاج وتنمية واغناء الثقافة والعلاقات الاجتماعية ان تتبنى فكرا علميا مناهضا لمصالحها ومفاهيمها عن العالم .

لقد انطلق العروي في كتابه « **الايديولوجية العربية المعاصرة** » من « مشكل النقص الايديولوجي » في واقعنا السياسي العربي . وقد استنتج من تجربة بن بركة في المغرب والتجربة الناصرية في مصر ، وتجربة اليسار ان العامل المشترك في التجارب الثلاث هو **العجز الايديولوجي** ، وذلك دون ان يعمد الى تحليل هذه التجارب تحليلا علميا تاريخيا . فالايديولوجيا ليست عامة الا بمقدار ما يجري فرضها من قبل طبقة معينة او تحالف طبقي معين . والعجز ليس تفسيرا ، بل هو نتيجة . والعروي ، كما أسلفنا ، يقع في اسار النظرة العقلانية الساذجة حين يدعو في كتابه « **العرب والفكر التاريخي** » الى نقد الوضع الفكري العربي الراهن من خلال البدء « بنقد الفكر التقليدي السائد » (ص ٢١) . فهو لا يدعو الى تحليل طبيعة التشكيلات الاقتصادية ـ الاجتماعية القائمة في صلته بمحتوى طابعه الايديولوجي السائد سواء كان تقليديا او غير تقليدي ، وطريقته هذه تتنافى مع منهج التحليل الماركسي التاريخي الذي يدعو اليه . فهو يضع البناء الفوقي كأساس لتحول البناء التحتي ، ولا يرى ان الصلة القائمة بينهما صلة جدلية عبر الصراع الطبقي الايديولوجي والسياسي والاقتصادي . وهكذا تصبح المعركة التي يخوضها العروي وظيفيا مجرد معركة أفكار وثقافات .

صحيح ان اي عمل سياسي ثوري لا بد ان يبدأ ويعتمد على مجموعة من المثقفين الثوريين « توحد ذهنيا » بينهم وتصهرهم في بوتقة منسجمة الى **أقصى مدى ممكن** ، أيديولوجيا الماركسية .

ولكن هؤلاء المثقفين الثوريين لا بد ان يظلوا عاجزين عن زيادة عددهم والقيام بدورهم السياسي والتاريخي ، إذا لم يتحولوا الى قوة سياسية فاعلة قادرة على اجتذاب الطاقات وتطوير المعركة الايديولوجية ، والسياسية والاقتصادية التي تقودها الطبقة العاملة. الا ان العروي يعتبر **أن مهمة المثقفين « الآن » ليست « بالدرجة الاولى في الاستيلاء على السلطة وانما في السيطرة على المجال الثقافي** » . (المصدر السابق ص ٣٥) .

فكيف يمكن السيطرة على المجال الثقافي في واقع طبقي ذي طابع ثقافي معين ، من دون خوض معارك سياسية وفكرية مشتركة . ان العروي لا يرى الصلة العضوية الجدلية بين الفكر والنضال السياسي ، فهو لا ينظر الى المسألة باعتبارها عملية واحدة ، لابد لها ان تبدأ بالتجانس والانصهار الايديولوجي المطلوب بين حفنة من المثقفين الثوريين ، ولكنها لا يمكنها ان تسيطر على مجال ثقافي معين او سواه في الواقع دون خوض المعارك السياسية والفكرية المشتركة . ثم ان السيطرة الفعلية على اي مجال من المجالات الاجتماعية والثقافية لا يمكن ان يتم الا بعد الاستيلاء على السلطة السياسية .

يذكر العروي في كتابه الجديد « ازمة المثقفين العرب تقليدية ... ام تاريخية؟ » انه « لا يبحث في الثقافة بذاتها ولكنه يعالج من خلال الثقافة مشكلات المجتمع العربي ..» (ص ١٥١) . ويرى ان هدف الكتاب هو « كشف النقاب عن اهم العقبات التي تعيق تطور هذا المجتمع » (المصدر السابق ، نفس الموضع) . وهذه العقبات ذات طابع ثقافي فقط . فهو لا يرى صلة الثقافة السائدة بالطبقات .

والمثقفون العرب يفكرون وفقا لمنطقين عند العروي : « الغالبية العظمى منهم بحسب المنطق التقليدي (السلفي) والباقي بحسب منطق انتقائي ، الا ان الاتجاهين يعملان على الغاء البعد التاريخي » . (ص ١٥١ ،١٥٢) .

ولكن أليس الالغاء الفعلي للبعد التاريخي يتجلى في اعتبار ان التخلف الفكري الذي نعاني منه هو أدهى من التخلف الاقتصادي ؟ وكأن ليس هناك علاقة بين هذين المستويين ، اي ، بين مستوى تطور علاقات الانتاج والثقافة والفكر .. « فالبلدان التي ارادت الخروج من التخلف في اطار الاستعمار الجديد » قد زادت فعلا من « أرقام الانتاج » وجرت « توظيفات عديدة ولكن التخلف من حيث هو ظاهرة انسانية واجتماعية وفكرية لم ينتقص في شيء » (ص ١٥٢) .

ان الكاتب لا يرى اي نوع من التنمية والتوظيفات تجري داخل البلدان المتخلفة والتابعة ، وصلة هذه التنمية بنوع الطبقات الحاكمة فيها ، ومستوى تطور علاقات الانتاج والثقافة . فهو يضع المسألة على النحو التالي : ثمة تقدم وتطور « انتاجي » ملحوظ من جهة ، يقابله تخلف انساني واجتماعي وفكري معدوم من جهة أخرى . وهذا هو الجانب الاخير الذي ينبغي حله ومعالجته في رأي الكاتب . فهو يولي معالجة مسألة التخلف الثقافي والايديولوجي الاهمية الحاسمة .

وعليه ، فان الكاتب يقع في مغالطات كثيرة ، نتيجة منهجه هذا ، وتؤدي به الى البقاء في اسار النظرة العقلانية السائجة وتعميم كثرة من الاحكام والاستنتاجات غير العلمية في مختلف المجالات . فهو يرى ، مثلا ، ان « البرجوازية الصغيرة مسيطرة سياسيا » في عدد من الاقطار العربية ، وفي ذهنه مصر والعراق وسوريا وغيرها ، وان هذه البرجوازية الصغيرة العربية تتميز بسمات تعتبر من « اسباب دوام الفكر التقليدي » (ص ١٦٣) . وهذه السمات هي :

ـ تتميز البرجوازية الصغيرة العربية بفكر منمم ، طوبائي ، انتقائي ككل برجوازية صغيرة :

ـ واذا تملك النفوذ السياسي وعلى أقل تقدير الارجحية الثقافية ، فانها تفرض مميزاتها من حيث هي قيم على المجتمع في جملته :

ـ ولما كانت أقلية ، يحكم جزء منها لانه يملك الثقافة الحديثة ، فانها تؤبد هذا الوضع بالواقع الوحيد وهو أنها تحافظ على نفسها في السلطة ، مانحة هذه الثقافة لاقلية ضئيلة سرعان ما تصبح مبتورة عن سائر السكان . فالثقافة الحديثة تكون على هذا النحو وسيلة ، اداة ، ايديولوجية تابعة للثقافة التقليدية . » (ص ١٦٢ ،١٦٣).ونحن نتساءل ، هنا ، هل حقا تملك البرجوازية الصغيرة « **النفوذ السياسي** » أو على اقل تقدير « **الارجحية الثقافية** » مما يجعلها قادرة على فرض قيمها على المجتمع بأسره ؟ من الواضح ان الكاتب لا يعترف بوجود تشكيلة اقتصادية ـ اجتماعية رأسمالية في عدد من البلدان العربية ، وان البرجوازية الصغيرة ليست حاكمة بل محكومة سواء كانت ريفية او مدنية . فليس من المعقول ان نعتقد ان نمط الانتاج السائد ، في مصر مثلا ، هو نمط الانتاج البرجوازي الصغير في المدينة والريف ، بينما توجد هياكل انتاج رأسمالية ضخمة تدار لصالح العملية الرأسمالية . ولا يهمنا هنا الاصول الاجتماعية لافراد الطبقة الحاكمة ، بل الدور الوظيفي الذي يقومون بتأديته . فهم يديرون انتاجا رأسماليا في اطار علاقات انتاج راسمالية سائدة . أما كون هذه « الاقلية » البرجوازية الصغيرة التي تشكل « معظم » سكان المدن (ص ١٦٠) ، ولكنها اقلية بالنسبة لسكان الريف ، فهي ، في الاساس ، لا يحكم جزء منها لانه يملك الثقافة الحديثة ... فالثقافة ليست مقياسا للحكم في الانظمة البرجوازية العربية ، حيث نجد القسم الساحق من

المثقفين يعانون من البطالة رغم كفاءاتهم العالية .. الا ان منهج الكاتب في تركيزه على اهمية الثقافة ودورها الحاسم في « كل شيء » يقوده الى مثل هذه الاستنتاجات التي تدحضها الوقائع ناهيك بالتحليل العلمي .

فاذا كانت البرجوازية (سواء الفردية ام رأسمالية الدولة) تحتاج دوما الى كوادر من المثقفين البرجوازيين الصغار ، وتضع عددا منهم في مراكز قيادية اساسية انتاجية وسياسية ، فهذا لا يعني ان الثقافة هي معيار السلطة والحكم ، بل ملكية وسائل الانتاج .

ونحن لا يمكننا مناقشة كافة الافكار التي يعرضها الكاتب ، فهذه الافكار محكومة بالتناقض الذي يفرضه منهج الكاتب نفسه ، ويجعل عددا كبيرا منها ملتبسا وغير واضح . فبمقدار ما يحث الكاتب على ضرورة شحذ الفكر فانه يوصلنا الى افكار مختلطة ومشوشة وذات طابع مثالي او انتقائي في النتيجة . وسوف نناقش الكاتب في عدد من هذه الافكار وتبيان ضعفها وعدم تماسكها الناتج عن خلل منهجي في تمثله للفكر التاريخي العلمي الذي يدعو اليه بطريقته الخاصة . « فالتاريخانية لم تقدم هنا كدراسة تمهيدية لا مندوحة عنها لكل مثقف عربي من اجل كل بحث مقبل . انها تفيد بصفة اساسية ، في طرح مسائل معينة تبدو لنا هامة في حالة المجتمع العربي الحاضرة » (ص ١٠) .

فالمنهج التاريخي « يفيد » ، فقط ، في « طرح مسائل معينة » . وفي نطاق محدود « حالة المجتمع العربي الحاضرة » . فالكاتب لا يستخدم المنهج التاريخي (الماركسية) كأساس ينطلق منه في فهم ومعالجة كافة القضايا .

ولذا ، لا يخفى علينا الكاتب ، كيف يتصور الماركسية ، « كرد فعل » على الثقافة الليبرالية ، مميزا بين **ماركسية كلاسيكية وأخرى** . « ان القرن العشرين ... هو باكمله رد فعل على هذه الثقافة الليبرالية ، بما فيها ماركسية كلاسيكية معينة ».(ص ٦) فهو يفهم الماركسية على طريقة الاكاديميين الذين يتبنون الفهم الميكانيكي فيتحول كل أمر او فكر او نظرية الى رد فعل معين على ما سبقه ... مما يتيح مجالا للتصورات « المتعالة » التي تخطىء كل الاتجاهات والنظريات اما « لتطرفها » او « مغالاتها » الخ ... بحيث تظل الحقيقة دائما في الوسط . وهذا ما لا ينطبق على النظرية الماركسية .

انه يأخذ في مكان آخر على الماركسية الفظة السائدة انها لم تتعمق في دراسة الفكر العربي وتحديد موقف خلاق من التراث (والصراع السياسي والايديولوجي الدائر ايضا) فهي دعت الى تقويض الاساس ، فقط ، على اساس ان « كل شيء ينبع في الاعصار » . **فالكاتب يرى انه لا يمكننا ان نبني مجتمعا جديدا دون تحديد موقف شامل من الحياة الاجتماعية والثقافة السائدة .**

تعني الكاتب مسألة كيف تعاود الايديولوجية التقليدية الاسلامية تجديد نفسها وفي واقع جديد . انه يفسر آلية هذه المعاودة نتيجة وجود ضغط خارجي (احتلال او تهديد) مما يخلق وضعا انكفائيا على الصعيد الايديولوجي ، اي التمسك بالافكار التقليدية الموروثة . كما ان الماركسية كما مورست في البلاد العربية ، « لم تستطع ان تلعب اي دور في توضيح الماضي العربي ، الذي يمكن ان يكون في جزء منه ليس بالقليل سلسلة من ردود الفعل الانكفائية » .(ص ٩٩) .

وهكذا لا يحلل الكاتب الاسباب الداخلية التي تقود الى « الانكفاء » الداخلي ، كلما لاح في الافق تهديد خارجي سياسي أو ايديولوجي ، ما هو علاقة الداخلي بالخارجي ، سيما ان الخارجي لا يمكن ان يمارس تأثيرا حاسما الا من خلال الداخلي نفسه .

ولكن لا عجب ان يسترسل الكاتب في ترداد بعض الافكار الميكانيكية المثالية ، لانه يفهم « التاريخانية » بطريقته الخاصة الانتقائية . فهو أقرب الى الفهم الهيجلي العقلاني المثالي للتاريخ منه الى الفهم التاريخي الماركسي . يقول الكاتب : « ان التاريخ كان الوعي ، والثورة التحقيق والديالكتيك الوسيلة » (ص١٣٣). فهل التاريخ هو مجرد وعي فقط ؟.

ولا يمكننا ، بالطبع ، ان نعالج في هذه العجالة العديد من الافكار والاسئلة التي يطرحها الكاتب . فهو يناقش « وضع العرب الكلاسيكي » ورؤيتهم السلفية ، ويتعرض الى حالة المغرب كمثال حسي لتطبيق افكاره في هذا المجال ، كما يقدم ملاحظاته على منهج فون غرونبوم ونظرته الى الاسلام .

فالكاتب يحشد في هذا الكتاب العديد من المسائل التي تحتاج الى نقاش مسهب ، سيما موقف « الانتليجنسيا العربية والتاريخانية » ، وملحق « اوروبا ولا أوروبا » ، و « مثقف العالم الثالث والماركسية » و « أزمة المثقفين وازمة المجتمع » ، وهكذا يصعب مناقشة الكتاب بجدية الا مناقشة مسهبة ، ذات طابع منهجي . وانني افضل ، من وجهة نظري ، ان تجري عملية مناقشة مفكر عربي كبير كالعروي عن طريق تناول كتبه الاساسية كوحدة فكرية منهجية . فالعروي من المفكرين العرب القلائل الذين يمكن معاملتهم على هذا الاساس .

ثورة « الشريف » العربية

الدكتور محمود زايد

في المكتبة العربية نقص ظاهر في الدراسات التي تتناول **الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن علي** من مختلف جوانبها الفكرية والدبلوماسية والعسكرية والسياسية . والواقع ان ما كتب عنها قليل بالقياس الى ما كتب عن غيرها من الاحداث الكبرى التي شهدها العالم العربي في هذا القرن ، ولا يتناسب مع الدور الذي لعبته في تاريخ العرب المعاصر . وبالنظر الى هذا النقص والى الصعوبات التي تعترض الباحث فيها ـ مثل توافر الوثائق الرسمية والالمام بالتاريخ الدبلوماسي والسياسي والعمليات العسكرية ومعرفة لغات المراجع وصعوبة الحكم ـ فان القارىء يرحب بكل دراسة جديدة تضيف جديدا الى معارفنا عن الثورة ، أو تفسر بعض ما غمض من جوانبها ، أو تقدم تفسيرا جديدا لها .

وغني عن القول اذا أن القارىء يرحب بدراسة اللواء مصطفى طلاس هذه التي اغناها صاحبها بخبرته في الشئون العسكرية والسياسية ، واطلاعه الواسع على المراجع ، وبوضعها في منظور تاريخي واسع كفيل بالانعتاق من نظرة البعض الضيقة اليها ! وفضلا عن هذا فان القارىء العربي لا يظفر عادة بكتاب عربي مثل هذا يقع في ٦٦٤ صفحة من القطع المتوسط وله مثل حلته القشيبة ، وطباعته الانيقة الدقيقة ، وفهارسه المفصلة ، وخرائطه الملونة !

تشتمل هذه الدراسة على مقدمة بقلم المؤلف ، وعشرة فصول . تتناول دراسة لمسرح العمليات الحربية ، والجذور التاريخية للثورة ، والاحداث التي سبقتها ، ومراسلات الحسين مكماهون ، والاتفاقات السرية ، واعلان الثورة ، وتحرير بلاد الشام ، واعلان استقلال سورية ، وتأسيس امارة شرقي الاردن واستنتاجات . وتلي هذه الفصول ملاحق اربعة تضم نصوص رسائل الحسين ـ مكماهون واتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور وبنود ولسون الاربعة عشر ثم قائمة بالمراجع وفهارس للاعلام والاماكن والموضوعات .

أهمية الثورة في نظر المؤلف أنها « تعبر عن بداية عصر الانطلاق وتحرير أمتنا العظيمة » (ص ١٣) وينبغي أن ننظر اليها بوصفها أول « **وأكبر ثورة قومية رفعت شعار الوحدة العربية والدولة العربية القوية** » (ص ١٦) . وينكر المؤلف « الجحود الذي لقيته الثورة منذ قيامها وحتى الوقت الحاضر » من كتّابنا ويأخذ عليهم انهم أساؤوا « فهم الظروف الموضوعية التي رافقت قيامها ، ولهذا أساؤوا تقديرها » كما يأخذ عليهم انهم حكموا عليها من خلال « مقاييس ومنطلقات لو طبقت على غيرها من الثورات الكبرى .. لهزلت هذه الثورات » (ص ١٤ ـ ١٥) .

ويرى المؤلف ان الحسين بن علي كان على حق في ثورته على الاتراك . ويستند في حكمه هذا الى قول لماوتسي تونغ جاء فيه : « اذا أردت أن تعرف نفسك هل انت على حق أم على باطل في اية قضية من القضايا فانظر الى رد فعل العدو ، فاذا كان العدو مغتبطا من عملك فاعلم أنك على خطا ، أما اذا كان

* اللواء الركن مصطفى طلاس : **الثورة العربية الكبرى** ، دمشق ، ١٩٧٧ .

العدو مغتاظا من عملك ، فاعلم أنك على صواب » وحيث ان قادة الاتراك حقدوا على الثورة فانها كانت على صواب (ص ٥٢٢) .

حققت الثورة كما يرى المؤلف انجازات كبرى « فرفرفت راياتها المنتصرة على مكة ودمشق وبيروت وحلب وغيرها من الحواضر ووضعت اسس أول حكومة عصرية في دمشق » وهزمت أعداءها الظاهرين في ميادين القتال ،ورايتها لم تنكس « بل انتقلت من يد ثائر في جبال اللاذقية الى يد ثائر في جبال الزاوية ثم جبل العرب والغوطة » (ص ١٥) . ويضيف المؤلف ان الثورة أخرجت القضية العربية الى حيز الوجود على ميدان السياسة العالمية (ص ٥٢٥) « ثم ان النتائج التي تمخضت عنها الثورة هي أفضل بكثير من الاوضاع التي كانت سائدة قبلها » .(ص ٥٢٦)

لكن مع هذا فالمؤلف يرى ان الثورة « لم تحقق ولو جزءا مما قامت في الاصل لتحقيقه » وهو انشاء دولة عربية واحدة للعرب الاسيويين». (ص ٥٣٠) ويرد اسباب فشلها في ذلك الى عاملين اولهما « ذاتي ويخص العرب أنفسهم » ويتلخص فيما ابتلى به العرب من أنانية وحب للذات .

«فالزعماء العرب يومذاك كانوا الصورة والانموذج للزعماء العرب اليوم مع فارق بسيط في الشكل ..

كانت العصبية القبلية هي العصبية الغالبة ولم يكن الوعي القومي قد انتشر .. ومن هنا نرى أن الشريف حسين وابن السعود وابن الرشيد والامام يحي والادريس لم يكن في واقع الامر كل منهم سوى زعيم قبلي .. الفرق الكبير والوحيد هنا هو أن الشريف حسين تبنى هدف المثقفين والمفكرين للعرب » (ص ٥٣١) .

وثاني العاملين خارجي ، ويتلخص في نية الغدر عند بريطانيا منذ بداية المباحثات (ص ٣٤٧) وحقد فرنسا على الثورة (ص ٥٣٨) وعدم دعم الولايات المتحدة الاميركية لها (ص ٥٤٣) .

تحليل المؤلف هذا لما حققته الثورة وما لم تحققه سليم في مجمله ، وكذلك تحليله لقضية الوحدة العربية التي « ما تزال في مقدمة الاهداف التي يجب ان يناضل العرب من أجل تحقيقها » ويأخذ على الذين يشترطون لقيامها بين قطرين تماثل الاوضاع بينهما انهم « وقعوا في دائرة فكر خيالي سطحي » ويضيف الى ذلك قوله :

« ان اقامة الوحدة عمل قومي بكل معنى الكلمة . ولذلك فان الوحدة لا يمكن أن تنتظر عملية تطور بطيئة تنضج فيها كل الظروف الموضوعية لاقامتها ، ولابد من مواصلة النضال بلا هوادة للقضاء على كل معوقات الوحدة وعلى كل جذور التجزئة . ولا بد من الاستفادة من كل فرصة سانحة لاقامة الوحدة . وفي ظل الوحدة يمكن ان نحقق التقدم وبناء الدولة المعاصرة » (ص ٥٣٣) .

لكن في الكتاب اراء اتبع فيها المؤلف رأي غالبية المؤرخين والكتاب مع أنها لا تصمد للنقد ، ومنها اراؤه في تاثير الحملة الفرنسية على مصر (ص ٤٣ ـ ٤٤) . فالمؤلف يرى أنه « رغم اخفاق الحملة وانسحاب الفرنسيين ، ظلت هذه الحكومة (الحكومة التي انشأها نابليون في مصر) نموذجا تبناه محمد علي من بعد » فقد سبق للمرحوم الاستاذ ساطع الحصري ان زعزع هذا الرأي ويتفق مع ساطع الحصري في هذا عدد من المؤرخين والكتاب الاوروبيين المعاصرين .

(١) الأردن

فارس جلوب

تقدم المستقبل العربي لقرائها في كل عدد بلداً عربيا .
وتبدأ بالأردن ، الأول حسب التسلسل الابجدي .
وكاتب المقال مؤلف ومؤرخ وشاعر بريطاني مستعرب
عاش معظم حياته في الوطن العربي ، وخاصة في الاردن .
وله كتابات في الدفاع عن القضية الفلسطينية ،
ويراسل حاليا عددا من الصحف ومؤسسات الاعلام الاخرى ، الغربية .

مع ان المملكة الأردنية الهاشمية كيان جديد نسبياً ، فان اراضيها هي احدى اقدم مناطق المدنية الانسانية . انها بلد غني بالكنوز الاثرية للحضارات المتعاقبة التي يمتد عهدها من العصر الحجري الى يومنا هذا .

التاريخ القديم

ان وادي الاردن هو احد اقدم المناطق المسكونة باستمرار في العالم ، وقدم ثروة من المعلومات حول تطور الجنس البشري للمؤرخين . وقد اظهرت التنقيبات هناك ادلة على وجود مستوطنات بشرية يرقى عهدها الى ٦٠٠٠ سنة خلت ،ويعتقد انه احد اول اجزاء العالم التي طورت فيها زراعة المحاصيل وتربية الحيوانات . وقد مر الهكسوس (الرعاة) ، الذين اخترعوا العربة واستعمروا مصر ، عبر وادي الاردن في هجرتهم من الاراضي الواقعة الى الشمال منه . وتركوا قبورا تحتوي على اشياء من صنعهم تمثل مستوى تطور الانسان منذ ٣٧ قرناً .

كانت عمان ، عاصمة الاردن ، (المعروفة في العهد القديم باسم رابوث عمون) مركزا مهما من مراكز المدنية في ازمنة التوراة . وتشرف على المدينة الحديثة اطلال قلعة هاجمتها قوات الملك داود ، في المعركة الشهيرة التي قتل فيها اوريا الحثي .

خلال القرون عانى الأردن من موجات الغزاة المتعاقبة . في الأزمنة القديمة احتله الاسرائيليون جزئياً ، واجتاحه الاشوريون والكلدانيون ، وحكمه الفرس في زمان قورش وضم الى امبراطورية الاسكندر الكبير ، ثم تقاتل عليه خلفاء الاسكندر . واستولت على الجزء الشمالي من البلاد دولة المكابيين اليهودية بعد ١٦٤ قبل الميلاد .

ابرز مدينة قديمة كانت مدينة الانباط . واشتهر الانباط ، وهم شعب عربي ، باحد ابرز مآثر هندسة العمار القديمة : مدينة البتراء . هذه « المدينة الحمراء الوردية التي يرقى عهدها الى نصف الازل » ، كما وصفها شاعر بريطاني حفرت من الصخر الصلب في جبال جنوب الاردن . واظهر بناؤها مهارة عسكرية وهندسية كبيرة ، اذ انها كانت موقعاً ممتازاً للحماية ضد الهجوم .

دامت مدنية الانباط نحو ٦٠٠ سنة ، الى ان سحقها اخيراً الرومان في عهد تراجان في العام ١٠٦ للميلاد . وكانت قد بلغت اوجها في عهد الملك الحارث الرابع (٧ قبل الميلاد ــ ٤٠ للميلاد) ، حين امتدت سيطرتها باتجاه الشمال حتى بصرا وجبل العرب في سوريا . وتمتعت امبراطورية الانباط بازدهار كبير ، اذ انها سيطرت على طرق التجارة الحيوية التي تربط شبه الجزيرة العربية بالاراضي الى الشمال والشرق والغرب . وبعد الغزو الروماني صارت البطراء عاصمة اقليم العربية البطراء .

تركت المدنية اليونانية ــ الرومانية اثارا عديدة في الاردن ، اشهرها مدرج الامفيتياتر في عمان ومدينة جرش في الشمال .

وبعد تقسيم الامبراطورية الرومانية ، كان الاردن تحت سيطرة بيزنطية علما بان السيطرة كانت فضفاضة نوعاً ما في اوقات مختلفة . وكان ازدياد الغزو القبلي احد معالم الحياة المتكررة

باستمرار في الاردن كلما ضعفت السيطرة الحكومية . فقد كان من عادة القبائل الرحل في المناطق الصحراوية ان تغزو المزارعين المستقرين في الأجزاء الأكثر خصوبة من البلاد ، كلما شعرت انها تستطيع فعل ذلك بلا عقاب .

حوالي العام ٦٢٧ للميلاد ، اعتنق عروة بن عمرو ، الحاكم الامبراطوري في عمان ، الاسلام ، وصلبته السلطات البيزنطية لرفضه العودة الى اعتناق المسيحية . وفي ٦٢٩ للميلاد ، اغتيل موفد النبي محمد واربعة عشر مرسلا في الأردن ، وابتدأت فترة من الحروب بين الامبراطورية البيزنطية والمسلمين في الجزيرة العربية ، وبلغت ذروتها اخيرا في تحرير الأردن من الحكم البيزنطي .

كان أول اشتباك رئيسي في مؤته في جنوبي الأردن . وخاضت حملة مسلمة صغيرة مؤلفة من ٣٠٠٠ رجل معركة شرسة ضد قوة بيزنطية اكبر بكثير ، ولكنها لم تستطع تحقيق أي كسب في الأراضي. إلا انه اعقبت ذلك معاهدة بين المسلمين والامير يوحنا المسيحي ، أمير عيلا (المعروفة اليوم باسم العقبة) . وبوجه عام كان مسيحيو الأردن والمناطق العربية الاخرى مستعدين للترحيب بالمسلمين بوصفهم اخوانهم العرب والمحررين من النير الأجنبي . والكثيرون ممن لم يتبعوا المعتقد الارثوذكسي عانوا الاضطهاد من الكنيسة البيزنطية ومن الامبراطورية على السواء ، ورحبوا بالتسامح الديني الذي ميز الحكم الاسلامي .

وجاء الانتصار الاسلامي في معركة اليرموك العام ٦٣٦ للميلاد ليحطم السيطرة البيزنطية على الأردن تحطيماً تاماً . ومنذ ذلك الحين ظل الأردن تحت الحكم الاسلامي المتواصل الى ان ابتدأ الصليبيون تعدياتهم التدريجية ضد جنوبي البلاد في العام ١١١٥ للميلاد . وقد ادرك الصليبيون ، كما ادرك الاسرائيليون في ايامنا ، الأهمية الاستراتيجية للاستيلاء على المنطقة حول خليج العقبة ، بغية تقطيع العالم العربي الى نصفين عند اضيق نقطة ارضية فيه . وشيدوا سلسلة من القلاع في جنوب الاردن ، كان ابرز امثلة عليها القلاع في الطفيلة وشوبك والكرك . وحطم قوة الصليبيين بصورة حاسمة صلاح الدين الايوبي العام ١١٨٧ في حطين ، وصارت الأردن تتمتع من جديد بفترة غير متقطعة من الحكم الاسلامي لعدة قرون .

بروز الدولة الحديثة

شكل الأردن ، من القرن السادس عشر الى بداية القرن العشرين ، جزءاً من اقليم من سوريا في الامبراطورية العثمانية ، باستثناء فترة قصيرة من احتلال وهابيي نجد . ومدت دولة الوهابيين سيطرتها الى الكرك العام ١٨٠٦ ، وسار جيش وهابي عبر الازرق ، في الصحراء الشرقية للاردن في ١٨١٠ ووصل حتى حوران في جنوبي سوريا . وبعد ذلك هزم ابراهيم باشا الوهابيين .

في ظل الحكم العثماني ، بقي الاردن بصورة جوهرية منطقة غير متطورة ، تعيش بصورة رئيسية على الزراعة وتربية الدواجن . وكان مشروع التنمية الرئيسي الوحيد الذي قامت به الامبراطورية العثمانية هو بناء سكة حديد الحجاز ، الذي ابتدأ في ١٩٠٠ . ورد هذا الى الأردن بعض اهميته كطريق عبور ، إلا أنه ترك تأثيراً سيئاً على البيئة ، إذ انه ادى الى دمار مناطق من الاحراج ، بغية تأمين الخشب كوقود للقاطرات . ومنذ الاستقلال قامت الحكومة الأردنية بجهود كبيرة لتشجيع اعادة التحريج ، التي تحتاج اليها البلاد للتغلب على مشكلة الجفاف .

ان مزيج الاهمال والاضطهاد الذي ميز الفترة اللاحقة من حكم العثمانيين لاقسام من العالم العربي ، بلغ اوجه في الثورة العربية العام ١٩١٦ . ولتأمين نجاح الثورة دخل قائدها ، الحسين شريف مكة ، في اتفاقية مع بريطانيا تعهدت فيها بريطانيا بدعم بروز دولة عربية مستقلة في معظم المناطق التي كانت آنذاك تحت الحكم العثماني ، مقابل اسهام الثورة العربية في الجهد الحربي الحليف ضد المانيا والنمسا وتركيا العثمانية .

وخانت الحكومة البريطانية هذا العهد بعد قطعه بفترة قصيرة بتوقيعها اتفاق « سايكس ــ بيكو » السري الذي قسمت الدولة العربية المقترحة بموجبه بين بريطانيا وفرنسا . ولم يدرك العرب ان حليفتهم قد خانتهم إلا بعد الثورة الروسية العام ١٩١٧ ، عندما نشرت الحكومة السوفياتية نص اتفاق « سايكس ــ بيكو » .

وكان وعد بلفور ، الذي وعدت الحكومة البريطانية بموجبه بالعمل من أجل تأسيس « وطن قومي » لليهود في فلسطين ، خرقاً آخر للالتزام البريطاني السابق للشريف حسين .

بعد تحرير سوريا من الحكم العثماني ، انتخب فيصل ، احد ابناء الشريف حسين ، ملكاً على سوريا . إلا ان فرنسا ، التي طالبت بغنائم حربها بموجب اتفاق سايكس ــ بيكو ، احتلت سوريا وطردت الملك فيصل ، ووصل ابن آخر للشريف حسين ، هو عبد الله ، الى معان في جنوبي الأردن في

الخامس من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٢٠ وأعلن عن نيته طرد الفرنسيين من سوريا لاعادة اخيه الى العرش . وكان البريطانيون ، في وقت سابق ، قد وعدوا عبد الله بعرش العراق .

وعقدت الحكومة البريطانية مؤتمرا لخبرائها في الشرق الاوسط في القاهرة العام ١٩٢١ ، وترأس المؤتمر ونستون تشرشل . واثناء انعقاد المؤتمر ، بلغه خبر وصول عبد الله الى عمان ، ويبدو انه كان ما يزال مصمماً على مواصلة حملته ضد الاحتلال الفرنسي لسوريا .

وبغية منع هيجان يمكنه ان يعطب التنفيذ السهل لاتفاق « سايكس ـ بيكو » ، اقترحت الحكومة البريطانية حلا وسطا . فقد عرضت على عبد الله امارة شرق الأردن ، مع مساعدة مالية ، مقابل تعهده بايقاف حملته ومنع الغارات ضد الفرنسيين ، والمحافظة على النظام في البلاد تحت سيطرته . فوافق عبد الله ، وولدت دولة الأردن .

تعزيز الحكم الهاشمي

لم تكن مهمة الامير عبد الله ، أول حاكم هاشمي للأردن ، سهلة بحال من الأحوال . كان عليه ان يفرض سلطته على منطقة لم يكن يعرفها جيداً ، إذ انه لم يعش هناك قبلا قط . وكان سكانها غير معتادين على سلطة حكومة مركزية قوية ، وشاعت من جديد اغارات البدو على المناطق المأهولة المستقرة . وكانت البلاد فقيرة جداً ، ولم يكن لدى حاكمها الجديد في البداية أي مصدر للأموال ليدعم بها جهازاً ادارياً عدا عن المعونة المالية البريطانية . ولم يكن لدى الأمير عبد الله سوى قوة شرطة صغيرة ورديئة التدريب ليحافظ بها على النظام ، وسرعان ما ثبت انها غير كافية لتأدية مهمتها .

وفي البداية واجهت المحاولات التي قامت بها الحكومة الجديدة في عمان للحصول على موارد مالية كافية بواسطة فرض الضرائب معارضة شديدة ، ما لبثت ان انفجرت في شكل تمرد في الكوره بمنطقة عجلون . واشتبك القرويون مع قوة الشرطة ، وقتلوا ١٨ من اعضائها واجبروا عددا آخر على الاستسلام .

ولمساعدة الأمير عبد الله في مهمته ، عهدت الحكومة البريطانية لضابط بريطاني ، هو الكولونيل فريدريك بيك ، بمهمة تأليف قوة كافية لفرض سلطة الدولة . والى ذلك ، اقامت سربا من سلاح الجو الملكي في عمان . وسرعان ما اكتشف الكولونيل بيك عقبة خطيرة امام جهوده وهي انه لم يكن هناك شوق كبير بين أبناء شرق الأردن ، في البداية ، للانضمام الى جيشه الجديد ، المعروف باسم قوة الاحتياط لشرق الأردن . ولذا اضطر في أول الأمر الى تجنيد الرجال من البلدان العربية الاخرى لرفع عدد القوة الى ٢٥٠ رجلا في البداية .

وسرعان ما وضعت قوة الاحتياط على المحك . فقد قام سلطان باشا العدوان ، رئيس قبيلة العدوان التي تقطن وادي الأردن ومنطقة « السلط » ، بقيادة تمرد ضد الحكومة في سبتمبر (ايلول) ١٩٢٣ . كان سلطان باشا يطالب باصلاحات ، اقتصادية بنوع خاص ، في الادارة بحيث يمكن خفض الضرائب . وقمعت قوة الاحتياط التمرد ، كما قمعت تمردا مماثلا في وادي موسى في فبراير (شباط) ١٩٢٦ .

وواجه الأمير عبد الله تهديدا أخطر بكثير لمركزه في اغسطس (آب) ١٩٢٤ ، في شكل غزوة وهابية وصلت الى مسافة اميال من عمان ، قبل ان يعيدها سلاح الجو الملكي البريطاني الى الوراء . ونجح الوهابيون في اخراج السلالة الحاكمة الهاشمية من الحجاز ، وكانت النتيجة ان ولاية معان ، التي كان الهاشميون يديرونها سابقاً من الحجاز ، ضمت الى شرق الأردن .

ونجحت حكومة شرق الأردن اخيرا في انهاء مشكلة الغارات القبلية نتيجة لتشكيل قوة شرطة البادية في ١٩٣٠ . واعتبر الماجور جون باغوت غلوب ، الضابط البريطاني الذي عين لقيادة هذه القوة ، ان افضل طريقة لمكافحة الغارات القبلية هي وضع الغرائز الحربية البدوية في خدمة الدولة بتجنيدهم في قوة الشرطة الجديدة . وثبت ان النظرية صحيحة ، وانهيت الغارات القبلية بعد فترة قصيرة من تشكيل القوة . وكانت شرطة البادية تشكل جزءا من الجيش العربي ، كما سميت قوة احتياط شرق الأردن في اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٢٣ .

تطوير المؤسسات الحكومية

مع فرض سلطة الدولة جاء تطوير المؤسسات الحكومية . لاكثر من عقدين من الزمن ، بقي شرق الأردن تحت الانتداب البريطاني ، ولذا فان تطوره السياسي اتبع نمطا مماثلا لنمط الكثير من البلدان الاخرى الواقعة تحت الحكم البريطاني .

وفي فبراير (شباط) ١٩٢٨ وقعت في القدس اتفاقية تنظيم العلاقات بين بريطانيا وشرق الأردن ، وشروط الانتداب وشروط تأسيس حكومة

دستورية . في هذه المرحلة لم تكن الحكومة البريطانية مستعدة لافساح مجال كبير للاردن في تقرير مصيره ، وكانت شروط الاتفاقية مشابهة جدا للشروط التي تضمنتها معاهدات الحميات التي فرضتها الحكومة البريطانية على دول الخليج العربي . فقد تضمنت شروطا تتطلب من الامير عبد الله ان يطلب الاذن من بريطانيا لعدد كبير من النشاطات ، بما فيها تأليف قواته المسلحة والمحافظة عليها ، وفرض الرسوم الجمركية والتخلي عن الاراضي او بيعها او استئجارها .

واعقب هذه الاتفاقية تبني قانون دستوري ، يضع تفاصيل تنظيم الحكومة الدستورية ، ووضع مواطني شرق الاردن . وفي ابريل (نيسان) ١٩٢٩ ، شكل اول مجلس تشريعي يتألف من ١٤ عضوا منتخباً وستة اعضاء مجلس تنفيذي معينين وممثلين اثنين للبدو (لم يكن للبدو في هذه المرحلة حق التصويت) . وكان المجلس التنفيذي يقوم ببعض مهام مجلس الوزراء وكان يرأسه كبير وزرائه ، في حين ان المجلس التشريعي كان يقصد به ان يكون برلمانا بدائيا .

الا ان هذا النظام ، الذي صمم اصلا في لندن ليطبق على امم تختلف اختلافا كبيرا واقعة تحت السيطرة الامبريالية البريطانية ، لم يثبت انه عملي لمتطلبات شرق الاردن . وبعد فترة قصيرة نشأ خلاف بين الاعضاء المنتخبين والمعينين ، وكاد النظام ينهار كليا بعد انتخاب المجلس التنفيذي الثاني في يونيو (حزيران) ١٩٣١ . وانقذ الوضع رئيس جديد للوزارة وضع صيغة الحل الوسط : تعيين ثلاثة اعضاء للمجلس التنفيذي من المجلس التشريعي المنتخب . ولكن في حين ان هذا ساعد في تخفيف التناقضات في المجلس التشريعي ، فقد استمر الاضطراب العام ، وكان واضحاً انه لن ينتهي طالما بقي شرق الاردن تحت الوصاية الاجنبية وحرم شعبه حق تطوير مؤسساته .

وبالتالي عرضت الحكومة البريطانية تنازلات معينة لاعطاء الامير عبد الله درجة اعظم من الاستقلال ، مما يسمح له بنوع خاص بتعيين ممثلين قنصليين في الدول العربية المجاورة ، بموجب اتفاق جديد موقع في الثاني من يونيو (حزيران) ١٩٣٤ . وفي ديسمبر (كانون الاول) ١٩٣٧ ، تبنى المجلس التشريعي مشروع قانون يحد من صلاحيات الامير للتشريع عندما لا يكون المجلس منعقدا ــ وهذه خطوة ذات دلالة نحو تطوير ملكية دستورية .

وفي سبتمبر (ايلول) ١٩٣٨ استقال ابراهيم هاشم وخلفه كرئيس للوزراء توفيق ابو الهدى . وقيل رسمياً ان اعتلال الصحة هو السبب ، غير ان بعض المؤرخين يعتقدون ان العامل الاهم كان ان هاشم وجد صعوبة متزايدة في التفاهم مع المقيم البريطاني ، السير هنري كوكس ، الذي كان يميل الى التصرف بطريقة دكتاتورية نوعاً ما . وبالفعل كان كوكس قد سبق له ان رفض المرشح الذي يفضله الأمير عبد الله لمركز رئاسة الوزراء ، وقد عين هاشم للمنصب كحل وسط .

في مؤتمر لندن حول فلسطين الذي انعقد العام ١٩٣٩ ، قامت الحكومة البريطانية بعدد من التنازلات لمطالبة شرق الاردن المتزايدة بالاستقلال . وكانت ابرز هذه التنازلات : (١) تحويل المجلس التنفيذي الى مجلس وزاري مكتمل ، (٢) الغاء احتياج الامير للحصول على إذن بريطاني لانشاء القوات المسلحة أو المحافظة عليها ، (٣) استقلال مالي اعظم ، (٤) اعادة تأكيد حق شرق الاردن في تعيين ممثلين قنصليين ، (٥) تعيين شرق اردنيين لمناصب رسمية مؤهلين لها حيث كان ذلك ممكناً ، عوضاً عن مواطنين بريطانيين أو اجانب آخرين . وفي اغسطس (آب) ١٩٣٩ شكل ابو الهدى أول وزارة شرق اردنية واستبدل كوكس بألك كيركبرايد ، الذي كان اقل عجرفة في تعامله مع الشرق أردنيين .

الاقتصاد قبل الاستقلال

على الرغم من وجود بدايات لريح تغيير سياسية ، ظل شرق الاردن يعتمد اعتماداً كبيراً على بريطانيا مالياً طوال هذه الفترة . وارتفعت منح المعونة البريطانية من ١١٥,١٤٤ جنيهاً استرلينياً في السنة المالية ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ الى ٨٠٩,٢١٤ في ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ . لم تكن هنالك اية صناعة بالمعنى الحديث للكلمة ، وحتى الحرف اليدوية لم تكن متطورة تجارياً .

كان هذا جزئياً نتيجة لسياسة عمدية من قبل الانتداب البريطاني ، الذي اعتبر شرق الاردن قاعدة امامية عسكرية مريحة يجدر دعمها مالياً ، ولكن يجب ألا يسمح له بانماء كفاية ذاتية اقتصادية الى الحد الذي يجعله ينهي اعتماده المالي على بريطانيا .

وكانت حصة الأسد من المعونة البريطانية تخصص للجيش العربي . وكان القدر الضئيل من الانماء الاقتصادي الذي سمحت به الحكومة البريطانية في حقول الزراعة والبنية السفلى .

وتتمثل درجة الاعتماد الاقتصادي التي فرضت على شرق الأردن تمثيلا واضحاً في احصاءات الاستيراد والتصدير لتلك الفترة . فقد ارتفعت الصادرات من ٢٢٨,٣٧٦ جنيهاً استرلينياً في ١٩٣٦ الى ٩٤٨,٧٧٣ جنيهاً في ١٩٤١ . وكانت جميع الصادرات تقريباً، منتجات زراعية ، وذهب ٩٠ بالمئة منها الى فلسطين . وفي الفترة نفسها ارتفعت الواردات من ٩٣٥,٣٠٥ جنيهات استرلينية الى ٢,٣٧٢,٧٥٠ جنيهاً . ومع ان هذه الارقام تمثل تضييق الهوة بين الواردات والصادرات ، فان هذا يعود الى حد كبير الى ارتفاع في اسعار الأغذية في الحرب العالمية الثانية ، وليس الى انتاجية اعظم . وكون واردات شرق الأردن في كل سنة اعظم بكثير من صادراتها حتم الاعتماد على معونة مالية اجنبية .

واجتهد الأمير عبد الله بصورة مستقلة لتأمين بعض رؤوس اموال التنمية بغية تغيير هذا الوضع بعض الشيء . وفي ١٩٣٣ وقع على اتفاق مع الوكالة اليهودية لتأجيرها بعض الاراضي في وادي الأردن لقاء دفعات مالية . كان الامير يأمل هكذا في تشجيع استثمار رأس المال اليهودي في وادي الاردن الذي لم يكن بوسع شرق الأردن تنميته آنذاك ، وكذلك في ان يستعمل دفعات الايجار لرؤوس اموال التنمية . والأمر الذي يدعو الى السخرية هو ان هذا الاتفاق منعته الحكومة البريطانية ـ ليس لأنها كانت تعارض الاستيطان اليهودي بحد ذاته ، كما قد يبدو ، بل لان الخطة كان يمكن ان تضعف القبضة الخانقة البريطانية على اقتصاد شرق الأردن .

كان احد ابرز الاجراءات في الثلاثينات إلغاء نظام المشاع لامتلاك الأرض ، الذي كانت بموجبه مناطق واسعة من الأراضي تملكها قبيلة من القبائل ، يتناوب اعضاؤها على زراعة اقسام منها ، اذ ان بعض الاقسام هي اكثر خصوبة من الاقسام الاخرى . وكان الاعتراض على نظام المشاع هو ان انعدام الملكية الفردية لا يعطي المزارع أي حافز لتطوير الأرض ، التي بقيت هكذا غير منتجة .

الحل الذي تم تبنيه لهذه المشكلة هو قانون لاستيطان الاراضي موحى به من بريطانيا ويؤسس الملكية الفردية . وفي حين ان هذا القانون افلح الى حد ما في تصحيح عدم كفاءة طريقة تطبيق نظام المشاع ، فانه اسهم كذلك في تطوير شكل من اشكال الاقطاعية . فمع ان المزارع الصغير صار صاحب قطعة أرض ، فان مركزه اضحى عرضة لتقلبات الطقس ومتقلقلا نتيجة لانعدام وجود رأس المال . واذا كان هناك موسم حصاد رديء ، اضطر الى شراء البذار لمحصول السنة التالية ، ولتمويل هذا الأمر ، عليه ان يؤمن قرضاً من أحد المرابين . وكان مثل هذا القرض يقدم عادة بفائدة باهظة مع تقديم ارضه كضمانة اضافية . واذا لم يكن الموسم التالي جيداً جداً ، جازف المزارع بعجزه عن تسديد القرض وهكذا يخسر ارضه . وقد يستطيع الاستمرار كمزارع مستأجر لدى المرابي ، ولكن النتيجة النهائية هي نمو طبقة من ملاكي الاراضي الغائبين : وهذا مثال أخر على عدم كفاية حل موحى به من بريطانيا لمشكلة عربية .

لعل هذه العملية كانت محتومة ، اذا قبل المرء بالنظرية القائلة ان كل مجتمع بشري يجب ان يمر عبر مرحلة الاقطاعية في طريقه الى نظام اقتصادي أعلى . وفي اية حال ، فقد نجم عنها تغيرات عميقة في البنية الطبقية للمجتمع الأردني . اما الانتقال الى طور الرأسمالية الأكثر تقدماً فكان عليه ان ينتظر حصول البلاد على استقلالها .

سارت التغييرات في نظام ملكية الأرض يدا بيد مع الجهود التي قامت بها الحكومة لاقناع البدو بالتخلي عن طريقة حياتهم البدوية والتحول الى مزارعين مستقرين . وابرز نجاح حققته هذه السياسة على الأرجح كان مع قبيلة بني حسن في شمال البلاد . فقد تحول شيوخ بني حسن بالنتيجة الى ملاكين واعضاء القبيلة الى فلاحين . كذلك تم اقناع قبيلة بني صخر ، التي تسكن المنطقة جنوب عمان ، بان تستقر وتتوقف عن الترحل بصورة رئيسية .

مع القبائل الاخرى في شرق الاردن ، كانت الجهود لجعلها مستقرة اقل نجاحاً . والسبب الرئيسي هو عدم استعداد معظم رجال القبائل للتخلي عن مهنة تربية الدواجن والماشية ، التي كانوا فيها مهرة ، لمصلحة مهنة جديدة ، مثل زراعة القمح ، التي لا يعرفون شيئاً عنها . وتبنت الحكومة اخيراً سياسة عملية اكثر لتشجيع التنويع ، بحيث يصير البدو مزارعين ورعاة ماشية في آن معاً. وكانت هذه السياسة ذات قاعدة اقتصادية اصح ، إذ ان مهارة البدو في تربية المواشي هي مصدر قوة يجدر بشرق الأردن عدم التخلي عنه .

تحقيق الاستقلال

اتاحت الحرب العالمية الثانية فرصة لعدد من البلدان ، بينها شرق الأردن ، لزيادة مطالبتها بالاستقلال . كان تكتيك الأمير عبد الله من هذه الناحية ان يعرض دعمه الكامل لبريطانيا في

صراعها ضد دول المحور . وحتى في الفترة التي تلت الانسحاب البريطاني في دنكرك مباشرة ، عندما انخفضت مكانة بريطانية الى ادنى نقطة ، كان يبني حساباته على انتصار الحلفاء .

كان باستطاعة الجيش العربي ، رغم حجمه الصغير ، ان يلعب دوراً مفيداً للحلفاء . لقد رفض عرضه القتال في الصحراء الغربية ، ولكنه خاض الحرب في حملتين : ضد حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق وضد فرنسيي حكومة فيشي في سوريا . والغي في آخر لحظة تحرك لارسال فرقة تمثل الجيش العربي لتساعد في تحرير اليونان من الاحتلال النازي ، وذلك استناداً الى الحجة المشكوك بها ان الحكومة البريطانية اعتقدت انه من غير المرغوب فيه ان تقاتل قوات عربية على التراب اليوناني . وقام الجيش العربي بالمهمات المحدودة الموكولة اليه في الحرب العالمية الثانية ببعض الامتياز ، وما من شك في انه كان بامكانه القيام بالمزيد من المهمات لو لم تقلل القيادة البريطانية من شأن فعاليته كقوة قتالية . وبحلول نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت قوة الجيش العربي قد ارتفعت الى نحو ٨٠٠٠ رجل ، بينهم ٢٠٠٠ شرطي والبقية اوكلت اليها مهمات عسكرية .

تأسست جامعة الدول العربية في ١٩٤٥ ، ومع ان شرق الأردن لم يكن قد اصبح دولة مستقلة تمام الاستقلال ، فقد كان احد الأعضاء المؤسسين . ولكن وقت الاستقلال كان قد حان ، وفي السابع والعشرين من يونيو (حزيران) ١٩٤٥ دعا المجلس التشريعي رئيس الوزراء ، ابراهيم باشا هاشم ، الى المطالبة بالاستقلال الناجز ، وتوجه الأمير عبد الله وهاشم الى لندن للتفاوض حول هذا الأمر ، وفي الثاني والعشرين من مارس (آذار) ١٩٤٦ تم توقيع معاهدة تنص على استقلال شرق الأردن ، مع ترتيبات للتشاور المتبادل والدفاع المشترك مع بريطانيا . وارفقت المعاهدة بملحق نص على ان بريطانيا يمكنها ان تضع قوات في شرق الأردن وان تزود الجيش العربي بالضباط وان تؤمن التدريب للضباط الشرق أردنيين .

أعلن شرق الأردن مملكة مستقلة ، وعبد الله ملكاً عليها ، في الخامس والعشرين من مايو (ايار) ١٩٤٦ . بيد ان شروط المعاهدة الانكلو – شرق أردنية اثارت شكوكاً ، خصوصاً بين الحكومات العربية الاخرى ، حول مدى حقيقة هذا الاستقلال . ونتج عن ذلك تأخر في منح الولايات المتحدة اعترافها بشرق الأردن ، وفي قبول شرق الأردن في الأمم المتحدة .

حرب ١٩٤٨ واثارها

ما لبثت التطورات في فلسطين ان طغت على الاحداث في شرق الأردن . بعد تبني الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً بتقسيم فلسطين والحملة الصهيونية لطرد سكان ذلك البلد ، نشأت حالة هددت مصالح الدول العربية ككل وسلام المنطقة باسرها . وادت سياسة الصهيونيين الارهابية التي بلغت قمتها في مجزرة دير ياسين في التاسع من ابريل (نيسان) ١٩٤٨ الى فرار نحو ٣٠٠ الف مدني من بيوتهم ، وتوجه معظمهم الى الأردن .

مع انسحاب البريطانيين من فلسطين في الرابع عشر من مايو (ايار) ١٩٤٨ ، اندلعت الحرب بين الصهاينة وعدد من الدول العربية نتيجة لمحاولة هذه الدول منع الصهاينة من الاستيلاء على فلسطين كلها . ونظراً لعدم كفاية الحكومات العربية المعنية وافتقارها الى التنسيق وتردي اوضاعها العامة ، لم يتم انقاذ بسوى منطقتين صغيرتين من فلسطين : وهما ما عرفتا فيما بعد باسم الضفة الغربية وقطاع غزة .

وكانت الضفة الغربية ، أكبر هاتين المنطقتين ، متاخمة لشرق الأردن ، وتبنى اجتماع لبعض اعيان الضفة الغربية في اريحا العام ١٩٤٩ قراراً يدعو شرق الأردن الى ضم المنطقة . وسمي البلد الموسع المملكة الأردنية الهاشمية .

وأدى ضم اواسط فلسطين وسكانها ، مع قسم رئيسي من اللاجئين الذين طردوا من مناطق اخرى في فلسطين ، الى احداث تغييرات عميقة في المجتمع الأردني . فقد عنى ذلك ، اقليمياً ، ان الاردن كسب منطقة اراض هي اكثر خصوبة وانتاجاً ، وتحتوي كذلك على مدن شهيرة ذات اهمية دينية ، مثل القدس والخليل وبيت لحم . وهكذا اكتسب الاردن امكانية تنمية صناعة سياحية لدعم مدخوله الضئيل من العملة الاجنبية من الزراعة .

وسكانياً ، كانت الآثار اهم بكثير فمواطنو الأردن الجدد ، اللاجئون منهم وسكان الضفة الغربية ، يفوق عددهم عدد الشرق أردنيين الاصليين ، وكان لهم بوجه عام مستوى تعليم اعلى بكثير . لقد كانت فلسطين عبر القرون جزءا من الاتجاه السائد للمدنيات الانسانية العظيمة ، التي شاركت فيها مشاركة كبيرة بارزة . ولذا كان شعبها اكثر تعلماً واعلى تعقيدا من الشرق أردنيين ، الذين لم تكن بلادهم الصحراوية بصورة رئيسية

حتى الآونة الأخيرة إلا على اتصال ضعيف بالعالم الخارجي .

واعطى ضم الضفة الغربية الاردن فجأة ثروة من الأشخاص المهرة الذين كان شرق الأردن يفتقر اليهم ، ولم يكن بين هؤلاء اداريون ومربون واطباء واعضاء مهن اخرى من الذين ثمة حاجة ماسة اليهم فحسب ، بل ايضاً عدد صغير من رجال الأعمال الذين افلحوا في انقاذ بعض رؤوس اموالهم على الأقل . وعنت هذه العوامل ان الاردن اكتسب اخيراً بعض الوسائل للشروع في تنويع اقتصاده .

ولم يكن مستغرباً ان التحول الهائل والسريع الذي شهده المجتمع الأردنـي رافقتـه ضغـوط وجيشانـات سياسيـة . ومـال المواطنـون الفلسطينيون في الأردن ، بما لهم من تقدم واختبار للتيارات الفكرية ، الى ان يكونوا في طليعة الذين يضغطون من اجل تغيير اسرع او اصلاحات اكثر شمولا ـ الأمر الذي طالما ورطهم في نزاع مع العناصر الأكثر محافظة .

اغتيل الملك عبد الله في ١٩٥١ وخلفه ابنه طلال ولم يملك الملك الجديد إلا سنة واحدة ، ثم خلع وخلفه ابنه حسين ، ملك الأردن الحالي . وقد ظل الملك حسين ، الذي احتفل بيوبيله الفضي السنة الماضية ، في السلطة لمدة اطول من أي رئيس دولة عربي آخر على قيد الحياة .

وأدت محاولات الدول الغربية لبناء حلف بغداد (المسمى « الحلف المركزي » الآن) ولادخـال الأردن فيه ، الى اطلاق فتـرة من الاضطـراب السيـاسي . فقد زار رئيس الأركان البريطانـي الجنرال تمبلر عمان في اواخر ١٩٥٥ ليعرض شروطاً مغرية على الأردن لينضم الى الحلف ، وأدت زيارته الى تظاهرات احتجاج غاضبة استمرت حتى يناير (كانون الثاني) ١٩٥٦ .

وتتابعت الاحداث بسرعـة . فقـد صرف الليفتنانت جنرال غلوب ، الذي خلف الكولونيل بيك كرئيس لأركان الجيش العربـي العـام ١٩٣٩ ، من منصبه في مارس (آذار) ١٩٥٦ . وحل اردني محله ، كما حل اردنيون مكان عدد من الضباط البريطانيين الآخرين في مراكز عالية ، علماً بان بعثة عسكرية بريطانية استمرت في العمل في الأردن لعدد من السنين . وجـرت انتخابات عامة أدت الى تشكيل حكومة قومية عربية برئاسة سليمان النابلسي . وألغت هذه الحكومة معاهدة ١٩٤٨ مع بريطانيا ، وبذلك انهت المعونة المالية السنوية البريطانية للقوات المسلحة الاردنية .

ونشأ صراع بين الملك وانصاره من جهة ومجلس الوزراء والضباط القوميين والجمهوريين في الجيش من جهة اخرى . وانتهى الصراع بانتصار الملك في ابريل (نيسان) ١٩٥٧ . وأدت الاطاحة بالملكية الهاشمية في العراق في يوليو (تموز) ١٩٥٨ الى وضع حد لخطة ترمي الى اتحاد اوثق بين الأردن والعراق ، وبدا لفترة من الوقت انها قد تسبب فترة اخرى من الجيشان السياسي في الأردن . ونقلت قوات بريطانية جواً الى عمان ، لتكون مستعدة لمثل هذا الاحتمال .

خسارة الضفة الغربية

غير أنه صار واضحاً ان الملك حسين قد نجح في فرض سلطته . وخمد الاضطراب السياسي لعدد من السنين وشرعت البلاد في فترة من الانماء ، وضعت فيها مهارات وموارد سكانها الفلسطينيين قيـد الاستعمال الفعال . وبرزت صناعات جديـدة ، وازدهرت السياحة واخذ الأردن يتمتع بازدهار اقتصادي .

خضعت البنية الطبقية للمجتمع الأردني لتطور سريع خلال هذه المرحلة . فالمجتمـع الزراعـي والرعوي السابق لعام ١٩٤٨ ، بطبقتيه الصغيرتين من الحرفيين والتجار في مدنه الرئيسية ، كان يجري تحويله بسرعة الى بدايات مجتمع رأسمالي حديث . وكان هناك انتقال ثابت من السكان الى المدن حيث بدأت الصناعة تنمو . ونمت بورجوازية لا يستهان بها ، كانت ما تزال بصورة رئيسية من التجار ولكنها ضمت ايضاً بعض رجال الأعمال . وتطورت المنطقة الممتدة من عمان الى الزرقاء ، بما فيها مناجم الفوسفات في الرصيفه ومعمل تكرير النفط وعدد من المصانع ، الى منطقة صناعية . وولدت بروليتاريا صناعية ، ذات حركة نقابية .

واخذت طريقة الحياة البدوية تزول بسرعة . وحتى في ابعد المناطق الصحراوية في الجنوب ، كان ابناء القبائل يستقرون في مجتمعـات زراعيـة كالحسينية والجفر . وكان الكثيرون من البدو قد اخذوا يتحضرون ايضاً ، وفي هذا المجال لعبت القوات المسلحة دوراً بارزاً . فالخدمة في الجيش أو سلاح الجو مكنت رجال القبائل من تعلم مهارات تلائمهم لمهنة حضرية حديثة ، ليصيروا سائقي سيارات وعاملي راديو أو طيارين . وجاء في بعض التقديرات ان السكان البدو في الأردن انخفض عددهم من نحو ٥٠٠,٠٠٠ في ١٩٤٨ الى نحو ٥٠ الفاً فقط في ١٩٦٧ ، ومن المتوقع ان يصير هؤلاء مستقرين تماماً عما قريب .

إلا ان هدف الحكومة تحقيق كفاية ذاتية اقتصادية تامة في اوائل السبعينات احبطته حرب ١٩٦٧ التي نجم عنها استيلاء الاسرائيليين على الضفة الغربية . وعدا عن خسارة معظم المناطق الزراعية الخصبة والمواقع التاريخية المهمة التي تجذب السياح ، كان على الأردن ايضاً ان يتحمل عبء مشكلة لاجئين ثانية ، إذ ان الغزو الاسرائيلي ادى الى طرد ما يزيد على ٤٠٠ الف فلسطيني آخر من بيوتهم .

وأفضت هذه الاحداث كذلك الى فترة جديدة من عدم الاستقرار السياسي . فالنزاع الذي نشأ بين الحكومة الاردنية والمقاومة الفلسطينية ، وانفجر في شكل حرب اهلية شاملة في ١٩٧٠ و١٩٧١ سبب المزيد من الضغوط الشديدة على الاقتصاد الأردني .

واحدث نمو الوعي الوطني الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية كقوة سياسية ، تغيرا في العلاقة بين الضفة الغربية والحكومة الاردنية . لقد حاول الملك حسين ، عن طريق المشروع الذي طرحه في ١٩٧٢ لاقامة مملكة عربية متحدة ، ان يعيد تأكيد مطالبته بوضع الضفة الغربية تحت سيادته من جديد لدى تحقيق الانسحاب الاسرائيلي . وراحت منظمة التحرير الفلسطينية ، من جهة اخرى ، تطرح فكرة حق التقرير الفلسطيني الكامل والدولة المستقلة ، وتبنت الدول العربية هذه الفكرة في مؤتمر قمة الرباط في ١٩٧٤ . وبعد ذلك تبنتها ايضاً الجمعية العامة للأمم المتحدة .

لقد اعلن الملك حسين قبوله لقرار قمة الرباط . ومنذ ذلك الحين طرحت اقتراحات حل وسط لشكل ما من اشكال الصلات الخاصة بين الأردن والدولة الفلسطينية المقترحة . ومهما كانت النتيجة النهائية لكل هذه التحركات ، ولا يزال من المبكر التكهن بها ، فانه يبدو واضحاً ان وضع الضفة الغربية لا يمكن ان يعود الى ما كان عليه بين العام ١٩٤٩ والعام ١٩٦٧ .

الوضع الراهن للأقتصاد

نظراً لهذه الحقيقة مضت الحكومة قدماً ، خلال الاعوام الأخيرة ، في انماء اقتصاد المنطقة الاصلية لشرق الأردن ، ولم تسمح بتأخير هذه المهمة بانتظار التطورات السياسية في النزاع العربي الاسرائيلي الذي تبقى نتيجته غير واضحة .

تظهر الاحصاءات التي نشرها المصرف المركزي الأردني تنويعاً متزايداً للأقتصاد ، مع نمو ثابت في معظم القطاعات وتشديد على الصناعة والمعادن . ومع ان الآمال المعلقة على احتمال امتلاك الأردن احتياطات نفط في كميات تجارية قد خابت ، فان لديها ثروة معدنية قيمة ، هي الفوسفات الذي صار مصدر كسب متزايد الأهمية للعملات الأجنبية . وكان من حسن حظ الأردن ان الارتفاع الكبير في اسعار النفط العام ١٩٧٣ رافقه ارتفاع في اسعار الفوسفات ، بلغ ٣٢٥ بالمئة بالمقارنة مع مستوى ١٩٦٩ . وارتفعت صادرات الفوسفات الاردنية بنسبة ١٥٨ بالمئة من ١٩٦٩ الى ١٩٧٦ عندما بلغ الانتاج الاجمالي ١,٧٠١,٨٠٠ طن . وبلغ الانتاج في ١٩٧٧ : ١,٧٦٩,٣٠٠ طن .

وعدا عن عامي الحرب الأهلية ، ١٩٧٠ و١٩٧١ ، عندما سجل معظم النشاط الاقتصادي انخفاضاً حاداً ، تمتعت صناعة الفوسفات الأردنية بنمو ثابت . واضافة الى رواسب الرصيفه ، هناك مناجم فوسفات في « الحسا » في الجنوب ، القريبة من « العقبة » ، التي تنمو اهميتها كمرفأ تجاري . وفي ١٩٧٧ تم تصدير ١,٧٠٥,٤٠٠ طن من الفوسفات الأردني من العقبة .

وارتفعت منتجات النفط من ٦٧٥,٣٠٠ طن في ١٩٧٣ الى ١,١٤٥,٣٠٠ طن في ١٩٧٧ . وخلال الفترة نفسها ارتفع انتاج المواد المنظفة من ٢,٧٣٦ طناً الى ٥,٠٢٧ طناً ، والبطاريات السائلة من ٤٠,١٠٠ وحدة الى ٥١,٣٠٠ وحدة ، والورق من ٣٠٧٢ طناً الى ٥,٣١١ طناً والحديد من ٢٨,٠٧٦ طناً الى ٧٧,٦٠٥ اطنان ، والأنسجة من ٧٠٣,٠٠٠ يارد الى ٨٦٩,٨٠٠ يارد ، والعلف من ٤١,٥٣٣ طناً الى ٦٣,١٨٢ طناً ، والمنتجات الصيدلية السائلة من ٧٢ طناً الى ١٣٧,٣ طناً . وكانت المنتجات الصناعية التي انخفض انتاجها هي جلد النعال والصوف ، من ٣٦٩,٩ طناً الى ٣٤٥,٥ طناً ، والاسمنت من ٦١٦,٨٠٠ طن الى ٥٣٧,٦٠٠ طن ، خلال الفترة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧ .

ارتفع مؤشر الانتاج من ١٥٢,٩ في ١٩٧٣ (مقابل قاعدة رقم ١٠٠ العام ١٩٦٦) الى ٢٤٢,٩ في ١٩٧٧ . ومن جهة اخرى اظهر الانتاج الزراعي تقلبات كبيرة في الأعوام الاخيرة (وهو امر محتوم جزئياً بالنظر الى تقلبات المناخ) ، مع ميل ملحوظ الى الانخفاض ، كما يبين الجدول التالي :

الانتاج الزراعي (في الوف الأطنان)

المحصول	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦
محاصيل الحقل	٢٧٨,٨	٦٦,٧	٣٣٤,١	٧٤,١	٥٠٠,٧
الخضار	٢٢٣,٠	١٢٤,٦	٢٠٥,٨	٢٦٣,٣	٢٠١,٨
الفواكه	١٥٢,٣	١٠٤,٠	١٥٦,٧	٩١,٧	٨٣,٤

وهكذا يتضح النمط المتغير للاقتصاد

الأردني ، ويتوضح اكثر فأكثر بالأرقام التي تمثل اسهام القطاعات المختلفة في مجمل الانتاج القومي . فقد قدمت الزراعة ٢٣,٨٦ مليون دينار أردني في مجمل الانتاج القومي في ١٩٧١ و٣٣,٤٥ مليون دينار في ١٩٧٦ . وفي المقابل ارتفعت مساهمة الصناعة والتعدين من ١٧,٧٤ مليون دينار الى ٦١ مليون دينار ، ومساهمة البناء من ٧,٣٥ مليون دينار الى ٢٣,٣ مليون دينار ، ومساهمة النقل من ١٤,٥٨ مليون دينار الى ٣٣,٦ مليون دينار ، ومساهمة الادارة العامة والدفاع من ٣٨,٦٦ مليون دينار الى ٦٧,٣ مليون دينار . والمؤسسة العسكرية في الواقع هي اكبر مؤسسة اقتصادية واكبر مستخدم في البلاد .

وتم تسجيل ارتفاعات اكثر تواضعاً في المساهمة في مجمل الانتاج القومي في قطاعات اخرى خلال فترة ١٩٧١ ــ ١٩٧٦ : الكهرباء والامداد المائي من ٢,١٨ مليون دينار الى ٣,٦ ملايين دينار . والتجارة من ٣١,٢ مليون دينار الى ٥٠,٥ مليون دينار . الاعمال المصرفية والمالية من ٣,٠٧ مليون دينار الى ٥,٢ مليون دينار . امتلاك المساكن من ١٠,٨٣ مليون دينار الى ١٧,٣ مليون دينار والخدمات من ١٦,٤٥ مليون دينار الى ٣٦,٧ مليون دينار . وارتفع مجمل الانتاج القومي العام باسعار السوق من ١٩٩,٣٣ مليون دينار في ١٩٧١ الى ٥٤٥,٣٥ مليون دينار في ١٩٧٦ .

ككل اقتصاد قائم على المبادرة الفردية تأثر الاقتصاد الاردني بالتضخم في الأعوام الاخيرة . ويقدر ان الكلفة الاجمالية للمعيشة قد تضاعفت من ١٩٧٣ الى ١٩٧٧ . واستناداً الى قاعدة رقم ١٠٠ للعام ١٩٦٩ ، قدر المصرف المركزي مؤشر كلفة المعيشة بـ ١٣٢,٨ للعام ١٩٧٣ و٢٦٤,٨ للعام ١٩٧٧ .

واظهرت اسعار الاغذية اكبر ارتفاع ، من ١٨٤,٨ في ١٩٧٣ الى ٣٩٨ في ١٩٧٧ ، في حين ان الاسكان ــ ولعل هذا امر يدعو الى الاستغراب ــ اظهر اقل زيادة من ١٢٢,١ الى ١٥٩,٤ . وارتفعت الثياب من ١٣٦,٥ الى ٢٢٧,٨ وغيرها من السلع والخدمات من ١١٤,٨ الى ١٧٩,١ .

وارتفع اجمالي الصادرات الداخلية من ١٢,٦٠٦,٠٠٠ دينار في ١٩٧٢ الى ٤٩,٥٥٢,٠٠٠ في ١٩٧٦ ومن هذا الرقم الاخير كان الفوسفات يمثل اكبر مبلغ منفرد ، ١٩,٢٣٣,٠٠٠ دينار ، تتبعه الأغذية والحيوانات الحية ، ١٦,٣٧٩,٠٠٠ ، والسلع المصنوعة المصنفة حسب المواد ٣,٩٢٠,٠٠٠ ، والمواد الكيماوية ٣,٥٤٤,٠٠٠ ، والمواد المصنوعة المنوعة ٢,٣٥٢ مليون دينار ، والوقود المعدنية ٦٣٩,٠٠٠ دينار ، وارتفع اجمالي الواردات من ٩٥,٣١٠,٠٠٠ دينار في ١٩٧٢ الى ٣٣٩,٥٣٩,٠٠٠ في ١٩٧٦ . ومثلت الآلات وادوات النقل اكبر فئة ، ١٠١,٤٣٩,٠٠٠ دينار ، تتبعها الأغذية والحيوانات الحية ، ٨١,٣٧٨,٠٠٠ ، والسلع المصنوعة حسب المواد ٦٥,٨٨٩,٠٠٠ دينار والوقود المعدنية ٣٧,١٧١,٠٠٠ دينار .

كما تظهر ارقام الصادرات والواردات فانه يبقى على الأردن ان يقطع شوطاً بعيداً قبل تحقيق الكفاية الذاتية الاقتصادية . هناك ، بالطبع ، عوامل اخرى تضيق الفجوة . فقد بلغت المواد المعاد تصديرها ١٩,١٥٦,٠٠٠ دينار في ١٩٧٦ . واظهرت المدفوعات المحولة الى الأردن حساباً دائناً بقيمة ١٢٧,٨٥ مليون دينار وحساباً مديناً بقيمة ١,٣ مليون دينار في ١٩٧٦ ، بالمقارنة مع حساب دائن بقيمة ٨٦,٢٩ مليون دينار في ١٩٧٢ . ومن المدفوعات المحولة للعام ١٩٧٦ ، كانت قيمة ٥,١ مليون دينار خاصة (فان عدداً من الأردنيين الموظفين في الخارج يحولون اموالهم الى الوطن) . ومن المدفوعات المحولة الى الحكومة المركزية ، كانت قيمة ٧٧,٥٩ مليون دينار من الحكومات العربية الاخرى ، وبخاصة الدول المنتجة للنفط ، وقيمة ٢٦,١٣ مليون دينار من الحكومة الاميركية ، و١٣,٤٤ مليون دينار من وكالات الأمم المتحدة .

الأردن عضو في السوق العربية المشتركة . وارتفعت صادراته الى بلدان السوق المشتركة العربية الاخرى من ٥,٣٥٦,٠٠٠ دينار في ١٩٧٢ الى ١٣,٣٦٤,٠٠٠ دينار في ١٩٧٦ . وارتفعت الواردات من بلدان السوق العربية المشتركة الاخرى من ٧,٨٩٧,٠٠٠ دينار الى ١٨,٨٢٥,٠٠٠ دينار خلال الفترة نفسها ، وما تزال هذه نسبة صغيرة فقط من اجمالي تجارة الواردات ــ الصادرات الأردنية ، وذلك في الاساس لانه ما تزال لدى السوق العربية المشتركة قلة من الأعضاء . وفي حال توسع السوق ، من المرجح ان تزداد تجارة الأردن مع البلدان العربية الأخرى . وافضل امل لكي يصل الاقتصاد الأردني الى نقطة الانطلاق التي ترغب فيها يكمن بوضوح في التعاون الاقليمي مع الدول العربية الاخرى ، وبخاصة عن طريق هيئات كمجلس الوحدة الاقتصادية العربية وصناديق الانماء الاقتصادي العربية المختلفة التي أسست ، والتي تستطيع توفير المبالغ الكبيرة من رؤوس الأموال المطلوبة للانماء .